أ.د. طارق يوسف اسماعيل

من زوايا الذاكرة

على هامش ثورة 14 تموز عام 1958



د. طارق يوسف اسماعيل

من زوايا الذاكرة

على هامش ثورة 14 تموز عام 1958

تقديم: د. عبد الحسين شعبان



الفهرس

الباب الاول

تمهيـــــد

الإهـــداء

إلى ذكرى أهم وأعظم إنسانين في حياتي؛

والدتـي نازه حاجي نبـي عمر شيرواني الكرديـة الأصيلة بنت الجبل.

ووالـدي يوسف إسماعيل عبـد الله الحسيني الهاشمي العربي الأصيل

إجلالًا لذكراهما واعتزازاً بفضلهما عَلي.

وإلى اساتذتي المعظمين الذين ساهموا في رسم طريق حياتي.

طارق يوسف إسماعيل
اكتوبر 2017
كالكري - كندا

تقديم

الدكتور عبد الحسين شعبان[1]

I

استعدت وأنا أقرأ السردية الممتعة التي كتبها الدكتور طارق يوسف اسماعيل والموسومة "من زوايا الذاكرة ؛على هامش ثورة 14 تموز عام 1958"، كتابه الأثير عن "الحزب الشيوعي العراقي":

(The Rise and Fall of the Communist Party of Iraq: Evolution and Transformation)

الذي صدر عن جامعة كامبريدج، العام 2008، بل كتاباته عن الحركة الشيوعية العربية، فهو من الأكاديميين الذين لهم باع طويل في البحث العلمي والذي خصّص مساحة كبيرة منه لليسار العربي بشكل عام.

ومن أبرز مؤلفاته على هذا الصعيد كتابه عن الحركة الشيوعية المصرية:

(The Communist Movement in Egypt, 1988 - 1920)

الذي صدر عن جامعة سيراكيوز للإعلام، العام 1990، والحزب الشيوعي السوداني:

(The Sudanese Communist Party: Ideology and Party Politics)

الصادر في لندن عن Routledge العام 2012، والحركة الشيوعية في العالم العربي:

---

(1) مفكر وباحث عربي، له عدد من الكتب في قضايا الفكر والقانون والسياسة والأديان والأدب والثقافة والنقد. أستاذ القانون الدولي وحالياً نائب رئيس جامعة اللّاعنف وحقوق الإنسان (أونور) في بيروت. حائز على وسام أبرز مناضل لحقوق الإنسان في العالم العربي، القاهرة، 2003.

(The Communist Movement in the Arab World)

الصادر عن Routledge العام 2004، والحركة الشيوعية في سوريا ولبنان:

(The Communist Movement in Syria and Lebanon)

الصادر عن جامعة فلوريدا العام 1998، وغيرها من الكتب التي لها علاقة بالسياسة والحكم في الشرق الأوسط المعاصر، بما فيها كتابه عن "الاستمرارية والتغير في الشرق الأوسط المعاصر"، الصادر العام 2012:

(Government and Politics of the Contemporary Middle East: Continuity and Change)

وآخر إنتاجه العلمي:

(Iraq in the twenty- first century: Regime Change and the Making of a Failed State , Routledge,2015)

والذي عالج فيه آثار الاحتلال الأمريكي للعراق وتحويله إلى دولة فاشلة.

وصديقنا الأكاديمي والمفكّر طارق يوسف اسماعيل وإنْ كتب عن اليسار، وحتى لو تعاطف معه، فلم يكن يوماً من الأيام قد عمل في صفوفه أو جزء منه، لكنه كتب بعقل المؤرخ ولغة الباحث السسيولوجي والخبير والمختص بعلوم السياسة والعلاقات الدولية، وهكذا بحث في شؤون وشجون اليسار العراقي والعربي من منظور منفتح ودون إسقاطات أو رغبات إرادوية، ولعلّ كتابه " من زوايا الذاكرة - على هامش ثورة 14 تموز 1958" الذي سيكون بيد القارئ العراقي والعربي، وإن كان تعبيراً عن تجربة شخصية وحياتية، وخلجات روح وطنية توّاقة إلى الحقيقة، فإنه في الوقت نفسه جزء من التاريخ السسيولوجي لمجتمعاتنا وصراعات قواه السياسية وتياراته الفكرية والدينية وتنوّع قومياته وإثنياته ولغاته، وذلك لأن تاريخ اليسار العراقي والحركة الشيوعية بشكل خاص هو جزء لا يتجزأ من تاريخ الدولة العراقية، التي لا يمكن الحديث عنها وعن المجتمع العراقي دون المجيء على ذكرهما.

وبهذا المعنى فإن أي بحث عن اليسار سيقود بالضرورة إلى أروقة الدولة ومؤسساتها وقوانينها وطبيعة نظامها السياسي وممارساتها، تلك التي سيكون مواقفه منها في الصميم من تكويناتها، مثلما سيكون موقف الدولة من اليسار بمؤشراته السلبية أو الإيجابية جزء من معايير الحكم عليها، خصوصاً وإن اليسار بشقه الماركسي وعلى مدى تاريخ الدولة العراقية، لم يعرف العمل العلني الشرعي والقانوني إلّا باستثناءات محدودة جداً، وتعرّض لتصفيات وتشويهات كثيرة ومتنوّعة دون نسيان أخطائه وعيوبه بالطبع.

إن الصورة التي ترسمها زوايا ذاكرة اسماعيل الخصبة والطريّة تظهر على نحو جلي وواضح، دور اليسار العراقي في صعوده ونزوله وتمدّده وانحساره ونجاحاته وإخفاقاته على مدى تاريخه، ويجب أن لا ننسى أن مدرسة اليسار العراقي كانت قد خرّجت أو أثّرت في طواقم من المثقفين العضويين بتعبير المفكر الماركسي الإيطالي **انطونيو غرامشي**، ممن كان لهم دور كبير في أربعينات وخمسينات القرن الماضي وجلّهم من أصدقاء طارق اسماعيل الذين ترد أسماؤهم في متن الكتاب، لاسيّما مساهمتهم في الحركة الشعبية والمنظمات المهنية المدنية والسلمية وأنشطتها المختلفة، تلك التي انضوت تحت لواء **جبهة الاتحاد الوطني** التي انعقدت في 7 آذار (مارس) عام 1957، والتي كان سكرتيرها وكاتب بيانها التأسيسي **ابراهيم كبّه** الذي ارتبط مع اسماعيل بصداقة خاصة، سواءا حين كان وزيراً، أو بعد ذلك في إطار عمل جامعي وأكاديمي يوم عمل طارق اسماعيل استاذاً زائراً في جامعة بغداد، وكان تأسيس جبهة الاتحاد الوطني قد مهّد لمجموعة الضباط الأحرار للقيام بالثورة في 14 تموز (يوليو) 1958 بعد أن تأكدت من تأييد القوى الوطنية المتحالفة في دعمها وبالتنسيق معها.

II

تضيء زوايا ذاكرة طارق اسماعيل، الثورة العراقية منذ اللحظة الأولى لذلك الصباح التموزي المتميز، حين اصطحبه صديقه الملازم عبد الكريم جاسم إلى دار الإذاعة ليتعرّف على العقيد **عبد السلام محمد عارف**، وليبدأ رحلة متميّزة وأثيرة من العمل الوظيفي بالقرب من الزعيم **عبد الكريم قاسم** بعد أن كان قد تخرّج من دار

المعلمين العالية عشية الثورة واستلم شهادته من **الملك فيصل الثاني**، الذي كان أول الضحايا صبيحة الثورة، وتلك إحدى مفارقات التاريخ.

وشهدت الثورة أحداثاً جساماً منذ لحظاتها الأولى، لاسيّما **بتصفية العائلة المالكة** وما رافق ذلك من أعمال عنف طالت بعض رموز العهد الملكي، مثلما حصل **للأمير عبد الإله** الذي تم سحله، ثم علّقت جثته في منطقة الكرخ قرب جسر الشهداء، وبعدها تم تقطيع أوصاله في مشهد سادي شديد الوحشية ولا مثيل له، **وجثة نوري السعيد** التي حصل لها ما حصل للأمير عبد الإله، وذلك بعد يومين من انتصار الثورة (16 تموز/ يوليو/ 1958).

تركت تلك الأحداث تأثيراتها السلبية على مسار الثورة وتطوّرها والصراعات داخلها، كما أتتها رياح التأثير من خارجها إقليمياً وعربياً ودولياً. وللأسف فإن الثورة دشّنت باكورة أعمالها بالدم، وهو المشهد الذي غطّى على الكثير من منجزاتها وشوّش عليها، ووضعها في حالة دفاع عن النفس، وضاع العديد من المكتسبات في ظلّ ضبابية المشهد وغياب الوحدة الوطنية وتفكك جبهة الاتحاد الوطني.

وبغض النظر عن دموية المشهد واندلاع الصراع الداخلي المحموم فإن الثورة حققت عدداً من المكاسب التاريخية منها **الانسحاب من حلف بغداد الاستعماري والمعاهدات غير المتكافئة مع بريطانيا والولايات المتحدة** وتحرير العملة العراقية من **نظام الكتلة الاسترلينية وإطلاق الحريات** في الأشهر الأولى من عمرها، وإصدار **قانون الأحوال الشخصية** رقم 88 العام 1959، الذي كان خطوة متقدمة لمساواة المرأة بالرجل، وغيرها من الإجراءات التقدمية المهمة، وفيما بعد خطت الثورة خطوات وطنية كبرى مثل تحرير الثروة النفطية من الاحتكارات بإصدار **قانون رقم 80 لعام 1961**.

ولعلّ تلك الخطوات هي التي دفعت القوى الإمبريالية للإطاحة بنظام قاسم والعمل على تقويض الوحدة الوطنية، خصوصاً بالصراع بين الشيوعيين والقوميين، وكان أحد أوجهه ما حصل في **الموصل وكركوك**. وينقل لنا مؤلف الكتاب بعض

المشاهد الحيّة من داخل منصة الحكم كما يقال، منها حركة العقيد عبد الوهاب الشوّاف وملابساتها، بما فيها ضيق صدر الزعيم عبد الكريم قاسم من الشيوعيين، وخصوصاً بعد مسيرة الأول من أيار (مايو) 1959 "المليونية" التي رفع بها الحزب شعار "المشاركة بالحكم" بالضغط على قاسم من الشارع، وكانت تلك إحدى مؤشرات تدهور العلاقة بين الطرفين، وانتهاء ما سمّي بفترة "المدّ الثوري" التي استمرّت من آذار (مارس) ولغاية تموز (يوليو) عام 1959.

لم ينسَ طارق وهو يتناول بعض منجزات الثورة أن يستعيد تلك الثنائية التي تكاد تكون متلازمة سلباً أو إيجاباً بين اليسار الماركسي واليسار القومي، فكل حديث عن اليسار يتفرّع حتى دون رغبة في ذلك إلى شق ماركسي وآخر قومي، وإن اتسمت علاقتهما بحساسية خاصة شابها في معظم الأحيان منافسة مشروعة وغير مشروعة، أخذت بُعداً إقصائياً وإلغائياً وتهميشياً، ولا سيّما بعد ثورة 14 تموز (يوليو) 1958، وقد حاول أن يتوقف عند العديد من محطاتها المعلومة وغير المعلومة، وأن يستذكر أحداثها بما لها وما عليها، بحلوها ومرّها، محاولاً أن ينظر إليها بعد تلكم السنون بشيء من الموضوعية والإنصاف والتجرّد.

كانت تلك الثنائية العجيبة بين اليسارين تسير في طريق شاق ومرهق ووعر، انتقل من التحالف إلى الاقتتال، ثم إلى التحالف والاحتراب مرّة أخرى، ومن الصداقة والتضامن والعمل المشترك إلى التشكيك والاتهام والتخوين، ومن التقارب في الأهداف إلى التباعد في الوسائل، ومن المُشتركات إلى المُختلفات، وهو الأمر الذي كانت خسارته فادحة على الإثنين وعلى الدولة والمجتمع في العراق الذي دفع ثمنه باهظاً.

III

وللأسف فإن العزل السياسي اتخذ أشكالاً مختلفة في العراق، ففي **العهد الملكي** كانت القوانين ذات العقوبات الغليظة قد خصّت الشيوعيين بالتأثيم ومنه إلى التحريم والتجريم، لاسيّما **بعد قيام حلف بغداد العام 1955**، ولكن في **العهد الجمهوري الأول** وحين هيمن الحزب الشيوعي على الشارع، ولاسيّما بعد حركة الشواف (آذار/

مارس/ 1959) اتخذ من الإرهاب الفكري وسيلة ضد خصومه القوميين والبعثيين (حلفاء الأمس) الذين رموا كل بيضهم في سلّة جمال عبد الناصر الذي صعّد من عدائه لنظام عبد الكريم قاسم، مثلما حاولت القوى الإمبريالية وحلفائها العمل بكل ما تسنى لها لإعادة حصان تموز (يوليو) الجامح إلى "الحظيرة".

وحين وصل حزب البعث العربي الإشتراكي إلى السلطة بعد الانقلاب الدموي في 8 شباط (فبراير) عام 1963، انتقم من الحزب الشيوعي، بل أصدر بياناً برقم 13 من مجلس قيادة الثورة (المجلس الوطني) شرّع فيه إبادتهم، وشهدت مقرات الحرس القومي ودوائر الأمن ومراكز الاعتقال حملات غير مألوفة من حيث الحجم وأساليب التعذيب والتفلّت من القوانين، ناهيك عن انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان وتراجع عن منجزات الثورة.

أما في **العهد الجمهوري الثالث** (العارفي) فقد احتكر التنظيم الوحيد **"الاتحاد الاشتراكي العربي"** حق العمل الحزبي القانوني والشرعي، وتم تحريم العمل السياسي للشيوعيين والبعثيين والحركة الكردية.

وبعد انقلاب 17 تموز (يوليو) 1968 (**الجمهورية الرابعة**) ومجيء حزب البعث مجدداً إلى السلطة، شهدت البلاد انفراجاً نسبياً والتأمت بعض التحالفات المؤقتة والقلقة، حسبما بيّنت التجربة بين حزب البعث والحركة الكردية (1970) وبينه وبين الحزب الشيوعي (1973)، لكنها سرعان ما تهاوت، وكان العمل شبه العلني مجرد اتفاقات فوقية لم ينظمها قانون للأحزاب.

وظل حزب البعث يتحكم بمقاليد الأمور ويقبض على جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وفقاً لصيغة **"مجلس قيادة الثورة"** المقرّة دستورياً، وكانت القوى التي تحالفت معه قد ارتضت به قائداً للدولة والمجتمع والسلطة السياسية ولصيغة تحالفاتها، فاستدار بالبلاد سريعاً نحو احتكار العمل السياسي والنقابي والمهني وتحريمه على الجميع، واتخذ قرارات بالقضاء على خصومه، حيث أصدر قراراً من مجلس قيادة الثورة بتحريم حزب الدعوة (العميل) كما ورد في النص في 31 آذار/ مارس 1980،

مثلما اتخذ قراراً (داخلياً) بتحديد العام 1980 موعداً للقضاء على الحزب الشيوعي، وامتدت إجراءاته التعسفية تلك إلى داخل حزب البعث نفسه فأطاحت ببعض قياداته في **مجزرة قاعة الخلد** الشهيرة العام 1979.

وللأسف فإن حكومات ما بعد الاحتلال استمرت، في منهج تحريم العمل السياسي على الخصوم، حيث اعتمد قرار الحاكم المدني الأمريكي للعراق بول بريمر بتحريم حزب البعث بالقرار رقم 1 في 16 أيار (مايو) 2003 القاضي **باجتثاث البعث**، والذي استمر لحين صدور **قانون المساءلة والعدالة** وهو قانون أقره البرلمان العراقي في 12 كانون الثاني (يناير) 2008بديلا لقانون اجتثاث البعث، ويتضمن إجراءات أقل صرامة تجاه أعضاء المراتب الدنيا من الحزب.

ولم تستفد القوى السياسية جميعها من الدرس التاريخي والتجربة المريرة التي عاشتها. وكلما جاء عهد، انتقم من سابقه، وهكذا استمرّت دورة العزل السياسي وتلك التركة الثقيلة في العهود المتعاقبة والمستمرة حتى تاريخنا هذا.

ولعلّ هذه الفقرة الاستدلالية لها علاقة بمذكرات طارق يوسف اسماعيل، فما أن يأتي بحادثة تخص أحد الفريقين اليساريين إلّا ويكون الفريق الثاني حاضراً فيها اتفاقاً وإن كان قليلاً واختلافاً في الغالب، ولاسيّما عقب ثورة 14 تموز/ يوليو 1958 التي يعتبر المؤلف أحد شهودها والحاضرين فيها، بل ويمكن اعتبار ما يرويه من مؤرخيها.

وعلى الرغم من صغر سنّه وبداية تجربته الإدارية، لاسيّما بالقرب من الموقع الأول في الدولة، إلّا أنه لعب دوراً مهماً فيها حتى وإن كان موقعه تنفيذيا، لكنه كان قريباً من صاحب القرار ومؤثراً فيه، مع أنه لا يدعي ولا يزعم ذلك تواضعاً، لكن بعض تلميحات أو إشارات يأتي عليها بسرعة، إلّا أن دلالاتها كبيرة بالنسبة لكاتب السطور وأظنّها ستكون للقارئ والمتابع حين نستعيد عفوية تلك الأيام وبساطتها وحميمية أطرافها، مؤسسات وقوى وأفراداً، وهو ما سيكتشفه قارئ هذه المذكرات الشائقة.

IV

كنتُ أتابع ما يكتب طارق اسماعيل قبل أن ألتقيه، وكان قد درس في النجف في

متوسطة الخورنق، أما الثانوية فقد أنهاها في الحلة، مثلما عاش مع عائلته في أبي صخير الذي كان عمي د. **عبد الأمير شعبان** طبيباً فيها، وكنا نقضي بعض أوقات العطل وأيام الأعياد عنده، علماً بان والد طارق عمل في سلك الشرطة وتولّى مناصب عديدة معظمها في الفرات الأوسط في كربلاء و**الكوفة وسدّة الهندية والسماوة والرميثة**، إضافة إلى **أبي صخير**.

وكان والده قد تخرّج من مدرسة الصنائع، وكما يقول عنه طارق كان قريباً من الحركة الوطنية، حيث كان يتعاطف مع **حزب الإخاء الوطني وجماعة الأهالي** لاحقاً، ثم اقترب من "**الحزب الوطني الديمقراطي**" وإنْ احتسب على الشيوعيين بعد الثورة، لكنه لم يمارس العمل السياسي ولم ينخرط مع أي مجموعة سياسية، ومع ذلك أحيل على التقاعد بعد انقلاب 8 شباط (فبراير) 1963، وكان طارق متأثراً بجدّه اسماعيل الضابط في الجيش العثماني مثلما تأثر بوالدته الكردية التي يتحدث عنها بإعجاب كبير، وبقدر اعتزازه بنسبه **الحسيني** الذي تعود أصوله إلى اليمن، فهو "**مشبّك العروق**" حسب تعبير **الجواهري الكبير** عن نفسه لتداخله مع سلالات وأقوام عديدة، ومن هنا ينبع شعوره الإنساني، باحترام الخصوصيات والهويّات الفرعية، الدينية والإثنية واللغوية.

ومثلما كنت أتابع طارق، فهو الآخر كان يتابع ما أكتب، ووجد كل منّا "شراكة" مع الآخر كما عبّر عن ذلك في مقدمة هذا الكتاب، لاسيّما في بعض الاستنتاجات والآراء، خصوصاً وأن الخلفية الأكاديمية والوطنية العراقية هي التي تجمعنا، وخلال لقاءاتي العديدة مع طارق في **لندن والقاهرة وأنقرة وبيروت** وغيرها، وفي مؤتمرات متعدّدة لجامعات ومنتديات فكرية مختلفة، إضافة إلى **الرابطة الدولية للدراسات العراقية** التي عمل على تأسيسها، كنت في كل لقاء أسمع منه بعض ما اختزن في زوايا ذاكرته من علاقة مع قائد الثورة **الزعيم عبد الكريم قاسم** الذي عمل بصحبته، إضافة إلى علاقاته مع العديد من قياداتها والزعامات السياسية والفكرية والثقافية، دون أن ننسى أنه عمل في العديد من الصحف وفي الإذاعة وفي الإعلام، وما كان مشوّقاً حقاً، هو بعض الصور التي حفّزته أسئلتي على استحضارها، في لقاء **الجامعة الأمريكية في القاهرة** في العام 2015.

وكنت في كلّ مرّة أحثّه وأطالبه، بل ألحّ عليه بتدوين مذكراته، وهو ما حصل بعد تردّد وعناء، وحين أكمل كتابتها وأرسلها إليّ لكتابة مقدمة لها، وبعد الانتهاء من قراءتي لها وجدتها غنيّة وشائقة، بل أكثر عمقاً وثراءً مما كنت أتوقّعه، فضلاً عن موضوعيتها، ولعلّ طول المران وكثر المراس على العمل الأكاديمي جعلته أكثر عدالة واعتدالاً، خصوصاً وهو ينطلق من **وطنية صافية وروح إنسانية نقية**، وتلك إحدى صفاته الشخصية والعامة، ناهيك عن تسامحه ومرحه. طارق اسماعيل ليس من النوع الذي يحبّ الظهور والمباهاة، بل هو شديد الحرص على تقديم أهم وأكبر الأشياء بطريقة مبسّطة، فالأشياء البسيطة هي الأكثر تميّزاً وطبيعية.

وبعد أن التهمت عيوني حروفه الفضّية شعرت بكل بساطة بأنني أمام إنسان كبير بسجاياه الشخصية ودماثة أخلاقه وغزارة علمه، فالإنسان حين يكون كبيراً يزداد تواضعاً، وذلك هو علو الشأن الحقيقي وارتفاع الكعب دون شعور بالتبجّح وادعاء الأفضليات وامتلاك الحقيقة، فقد قرأت نبرة طارق اسماعيل القوية لكنها دون صخب أو ضجيج، الواثقة دون تكبّر، فهو لم يرفع صوته أو ينسب أمراً إليه، بل حاول أن ينقل ما رآه وشاهده وسمعه وعاشه، حين كان قريباً من موقع الثورة الأول، وكأني به أستذكر **جلال الدين الرومي** الذي يقول " **اخفض صوتك، فالزهر ينبته المطر، لا الرعد**".

لقد حاول طارق أن يستذكر بعض ما حدث ومن موقع الرائي والمشاهد والشاهد وأحياناً من موقع المشارك، واكتفى في أحيان أخرى بلغة المؤرخ وتدقيق الباحث ومسؤولية الساعي للوصول إلى الحقيقة، خارج دائرة الآيديولوجيا والانحيازات الجاهزة والأحكام المسبقة، ويقول في مقدمته التي وزعها على ثلاثة أقسام:

الأول- تمهيدي يستعرض فيه كيف راودته فكرة كتابة ما يسمّيه بـ "الإرهاصات"؛ **والثاني-** يتناول فيه بألم أوضاع العراق بعد الاحتلال، وهو الأمر الذي خبا بعد أن كان الحلم حاضراً في الإتيان بنظام يضع حدّاً للدكتاتورية والاستبداد، ويعيد للعراق وجهه المشرق كأحد شعوب الأرض المتميزة التي علّمت البشرية أولى حروف الأبجدية وعلوم القانون والفلك والطب وغيرها من دُرر الحضارة الإنسانية، وإذا

به ينجرف نحو الطائفية البغيضة ونظام يقوم على الزبائنية والمغانم في إطار محاصصة مذهبية - إثنية وفي ظل احترابات خارج دائرة المواطنة ومرجعيات فوق مرجعية الدولة.

والثالث - استعاد فيه الحديث عن أوراق ضائعة وعنونه: "أيامي في بغداد"، وحاول فيه أن يجيب لماذا هذه الخواطر؟ ويسميها "خواطر" بعد أن أسماها "إرهاصات"، حيث يقول "وكنت قد تجنّبت الولوج في عالم السياسة خوفاً من أن اختصاصي الدقيق سيدفعني إلى تحليل سلوك البشر ومحاولة فهم مكنونات صانعي القرار، فضلاً عن فهم التراث والثقافة التي تتحرك فيها تلك الكائنات، فوجدتني أشعر بالحيرة وأنا أحاول أن أكون منصفاً وعلمياً" وهي حيرة الباحث الموضوعي، ولعلّه حسب ابن عربي:

الهدى بالحيرة

والحيرة حركة

والحركة حياة

لم توهن غربة طارق اسماعيل، التي زادت على نصف قرن، من روحه الوطنية الوثّابة وتعلقه بكل ما له صلة بالعراق، وكان أحياناً وعند منتصف الليل يتصل بي ليسأل عن خبر سمعه، أو ليتأكد عن حدث ما، أو ليدقق معلومة، أو ليسأل عن كتاب أو بحث أو ليلفت نظري إلى قضية ما أو مسألة مهمة، وسرعان ما يدرك "أنني كائن صباحي" وليس "كائناً مسائياً" أو "ليلياً"، فيستدرك ليغلق السماعة سريعاً، وليكتب لي ما يريد، فأجيبه قدر معرفتي ومستطاعي في اليوم التالي، وهكذا كانت الصلة والعلاقة خلال ربع القرن الماضي.

وإذا كانت المذكرات قد احتوت على زفرات من الإنفعالات والهموم التي ترك لقلمه أن يضعها على الورق، فهي ليست سوى آلام وعذابات لرجل ظلّ قلبه على وطنه في أحلك الظروف ولم يتوانَ رغم كل شيء من تقديم ما يستطيع له، وهو في الغربة، بغض النظر عن مواقفه وآرائه، وكم كان مفيداً لو استفادت الحكومات

المتعاقبة من الكفاءات العراقية، خارج دائرة التصنيف المسبق الصنع الذي كان "الجميع" ضحاياه، وتنقّل بين نعيمه وجحيمه، وآن الأوان لإدراك هذه الحقيقة، وكل تجربة بنقدها، لأنه دون النقد لا تقويم حقيقي ولا معالجة للعيوب والمثالب والأخطاء، فما بالك إذا كان بعضها خطايا وآثام.

VI

كان طارق اسماعيل تلميذاً نجيباً **لعلي الوردي وعلي جواد الطاهر**، اللذين كانا من أوائل الذين أثّروا في مشواره الأكاديمي الطويل والعويص والمتشابك، وحاول بما اكتسبه من معارف وعلوم لاحقة أن يتبع منهجاً وضعياً تاريخياً في تناول الأحداث الاجتماعية، بما يعطيها دلالات أكثر حيوية، بل يجعلها أكثر اقتراباً من نبض الحياة ذاتها، ومثل هذا المنهج استخدمه في علوم السياسة والعلاقات الدولية، التي درّس فيها في العديد من الجامعات العربية والأجنبية، في الولايات المتحدة وكندا والجامعة الأمريكية في بيروت والقاهرة وجامعة بغداد كأستاذ زائر.

ووفاء منه لذكرى علي الوردي فقد بادر في إطار الجمعية الدولية لدراسات الشرق الأوسط والرابطة الدولية للدراسات العراقية المعاصرة وبالتعاون مع الجامعة الأمريكية في بيروت AUB إلى تنظيم مؤتمر للاحتفال بمنجزات علي الوردي بمناسبة مرور 100 عام على ميلاده حضره عشرات من الباحثين والأكاديميين (25-26 فبراير/ شباط 2014).

ولعلّ مذكّراته التي حاولتُ تأطير الحديث عن بعض زواياها فكرياً والانطلاق منها لمناقشة بعض أوضاع العراق، تحمل الكثير من القصص والحكايات والأحداث، ولذلك سأكتفي بهذا القدر وأترك للقارئ فرصة الاستمتاع بها، بل والاندهاش بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني، وسيكتشف عالماً غنياً ومثيراً في آن، وسيكون الأمر أكثر دهشة وانبهاراً للجيل الجديد الذي لم يعش تلك الفترة الخصبة من تاريخ العراق بما فيها صراعاتها بكل ما لها وما عليها. ولعلّه حتى أخطاء ونواقص تلك الأيام على حجمها وضخامتها، إلّا أنها كانت صميمية تعبّر عن اجتهادات ومواقف لقوى

وتيارات أخطأت في اختيار الطريق الصحيحة.

كتب طارق بقلب حار فاستحضر التاريخ ليعطينا العبرة والدلالة، ففاض فيه، ولأن التحقّق والامتلاء مصدره ذاتي وعفوي، فقد طفح بالوطنية، وتلك في كل الأحوال "إرهاصات" و"خواطر" أكاديمي وعالم اجتماع وتاريخ وسياسة وأخلاق، هي كل رأسماله، إضافة إلى صداقاته في رحلته الشائكة فـ" **ليس من رحلة أشقّ من العودة إلى العقل**" حسب الشاعر والكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت.

توطئة

لقد كانت تراودني فكرة كتابة هذه الإرهاصات بين فينة وأخرى كلما هزتني عواطف تعصف بي في بلاد الغربة لا سيما عند وفاة أحد أصدقائي أو زملائي أو معارفي، فأشعر بنوع من الوفاء لذكراهم أو قل أشعر بواجب إحياء ذكراهم وفاءً لنفوسهم الطيبة والنقية. وكنت أكتب لذويهم وفي بعض الأحيان في المجلات والصحف، ربما ترفيهاً لروحي أو لشعوري بالإثم لمغادرتي البلد وبناء حياه كاملة وجديدة في عالم حديث استطعت فيه تشييد صرح علمي ناجح، كما سعيت لبناء حياة عائليه لا استطيع وصفها إلا بالناجحة. كنت أشعر بإخلاص كبير في داخلي لهذا الشعب الكريم ولهؤلاء الناس الطيبين.

كرست حياتي الأكاديمية معظمها لتبني آمال وطموحات أهلي وشعبي وسخرت كتاباتي معظمها لنصرته لاسيما بعد الإحتلال الأمريكي للعراق وما تلاه من ويلات أدت إلى تحطيم كيانه والاستهانة بتراثه وتاريخه إن لم أقل مجتمعه، وما زال ذلك يجذبني إلى جزء من حياتي مدفونٍ في أعماقي أصارع فيه الكثير من العواطف والألم وهاأنذا في السبعينيات من عمري أشعر بالنجاح في حياه مملوءة بالسعادة والرفاه على الصعيد الشخصي و بالحسرة والألم لما حدث لأهلي ووطني.

ولعل ما حفزني على البدء بجدية في هذا المشروع الذي بين يدي القارئ هو لقاء جمع بيني وبين عدد من الزملاء الأكاديميين بعد انتهاء الجلسة الأخيرة في اليوم الأخير من مؤتمر الرابطة الدولية للدراسات العراقية الذي عُقد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في شهر تشرين الثاني عام 2015 حينما عرضت بعض الصور التي سنراها منشورة في هذه المذكرات مع حديث عام لإيضاح بعض الهوامش المؤرخة لها، ولم يكن القصد سوى مشاركة بعض الطيبين من الأصدقاء المقربين من الأساتذة المختصين بالدراسات العراقية في بعض الجامعات الأوربية والأميريكية والعربية بهذه الذكريات.

كانت تلك المناسبة بداية التفكير الجدي لاسيما بعد إلحاح هؤلاء الأصدقاء، وشاعت

الأقدار أن يكون الجميع ممثلين للطيف الإجتماعي والثقافي العراقي بألوانه كلها، منهم الأديب والناقد سنان أنطوان من جامعة نيويورك وأستاذ التاريخ في جامعة جورج تاون جوزيف ساسون وصديقنا عبد الحسين شعبان من جامعة اللاعنف في بيروت الذي كان الأكثر تشجيعاً وقد نذر نفسه لتذليل العقبات كلها واستمر حثه لسنوات. ولولاه لما كانت هذه المذكرات بين يدي القارئ.

وكنت قد تجنبت الولوج في عالم السياسة خوفاً من إن اختصاصي الدقيق سيدفعني إلى تحليل سلوك البشر ومحاولة فهم مكنونات صانعي القرار فضلاً عن فهم التراث والثقافة التي تتحرك فيه تلك الكائنات. فوجدتني أشعر بالحيرة وأنا أحاول أن أكون منصفاً أو أن أكون علمياً.

أجلس الأن في مكتبي أحاول تلخيص بعض أدبيات التحليل السياسي للبدء باللبنة الأولى وهي "السلوكية"، فيدور في خلدي سؤال: هل كل ما يقوم به الأنسان نابع من طبعه أو ناتج من تطبعه؟ وأضع القلم جانباً لأن الإجابة عن السؤال معقدة وشائكة.

ما يحدث في العراق اليوم يفوق الخيال، حسبما تنقله وكالات الأنباء والتقارير الدولية، خصوصاً لجهة الفساد المالي والإداري والسياسي الذي تورّطت فيه جميع القوى دون استثناء، فالذين وصلوا الى الحكم بمساعدة القوى الأجنبية، لا يتورع قسم كبير منهم من الزعم بأنهم يتبعون تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وهو منهم براء.

لقد كتبت هذه الصفحات لي ولأحفادي. ولا أريد أن أزاود على أحد بعراقيتي، التي يحاول البعض احتكارها، فلهم ما يشاؤون، وإذا كنت قد تركت بلدي منذ ما يزيد عن نصف قرن، فإن جذوري الإنسانية والقيمية ما تزال فيه بأفقها الواسع وامتدادها، وبقيت الذكريات والأحلام والخواطر والانطباعات على البعد عفوية ودون تكلّف، فهي تلقائية تعكس علاقة إنسانية ثرة بوطن ذي ثقافة وحضارة اصيلتين شعّتا على العالم أجمع.

جاءت هذه المذكرات من دون رتوش ولا عواطف، إنما هي سرد ليس إلا. وقد

كانت ضمن مشاريعي المستقبلية.. ولكن ما دفعني إلى التعجيل بهذا المشروع مكالمة وردتني في الثالث من شباط عام 2017 من حفيدي الأصغر زيد إثر إصدار الرئيس الأمريكي قراراً بمنع العراقيين من حق اللجوء السياسي وحتى دخول أمريكا. كانت طريقة تساؤل زيد ونبرته تنم عن الم واضح بعد أن شاهد الطريقة السيئة التي عوملت بها العوائل العراقية من قبل دوائر الهجرة في أوربا وهي تحاول إيجاد مأوى لها.

بعد تلك المكالمة قررت أن أبدأ بهذا المشروع على الفور لأضعه بين يدي القاريء.. ولأسجل لحفيدي الأصغر زيد صفحات من حياتي.

ولابد أن أذكر بالثناء كل من ساعد في إخراج هذه المذكرات منهم الأخ الدكتور **عدنان نعمه عبود** الذي أخذ على عاتقه طباعتها وبعين المهندس المتزن حاول إعطائها رونقاً وذوقاً قد لا تستحقه، كما إنه استعان بالطيبين: **الدكتور عبد الرزاق خليفه حمود** أستاذ الأدب العربي والسيد **عبد الستار كريم أحمد**، فله ولهم مني خالص الشكر.

ومن الضروري تذكير القارئ بأن هذه شهادة للتاريخ حاولت جاهداً أن أكتبها بأمانة.. فبعضها كان مسطراً في "مفكرتي" التي كنت ادون فيها الاحداث ساعة حدوثها منذ السنة الأولى من الدراسة الثانوية واستمرت هذه العادة لغاية هذا اليوم، والتي حملتها معي أينما حللت وسأودعها مع الكثير من المخزونات العلمية والوثائق التاريخية بأيدي أمينة عندما يحين قضاء الله.

كما أود التأكيد مرة اخرى للقارئ بأن هذه شهادة لوقائع عشتها وحاولت جاهداً أن أكون منصفا في سردها وقد تجاوزت ذكر الأسماء إلا ما كان ضروريا منها.

ولا بد أن أؤكد بأني وعلى الرغم من كتابتي لأكثر من ثلاثين كتاباً في اللغة الإنكليزية عن السياسة والحكم في الشرق الأوسط وعلاقة ذلك بالمنطقة، فقد حاولت ألّا أفسح المجال لتخصصي العلمي أن يؤثر في ما ورد فيها أو أن اسمح لهذا التخصص أن يحتكر هذه الصفحات إلا بقدر الإيضاح لوضع بعض الحقائق التاريخية في إطارها السياسي والإجتماعي. لقد حاولت أن أسطر هذه الإرهاصات بعفوية وأمانة دون تكلف أو

مجاملة. كتبتها كما وردت في خاطري دون لف أو دوران بل إن ما جاء فيها يسيل من دون تنميق أو إنشاء!.

ومن الضروري أن أذكر أن بعض هذه الخواطر جاءت بعد أكثر من نصف قرن على حدوثها، ولولا أهميتها في حياتي لما بقيت عالقة في ذاكرتي ووجداني، وكانت تلك هي المصفاة الرئيسة لانتقائها. وأود أن أؤكد على انها كانت من الضمير ومن القلب ليس إلا..

لماذا هذه الخواطر؟

كان الحلم الذي يراودني لأكثر من نصف قرن هو أن أكتب نوعاً من خلجات الذكريات وبعضاً من خلائط الخواطر، التي كانت مدفونة في داخلي ولم أكن أعطيها ما تستحقه من التأمل ومن العناية. كنت أراها جزءاً من كياني وخصوصيتي وليس مما أريد مشاركة أحد فيها. ألجأ إليها في خلواتي، أتذكر منها الكثير، وأعيد خزنها في طيات الذاكرة وحينما تضيق بي السبل النفسية أعاود المرور عليها لاسيما في أوقات الحزن وساعات الألم.

ومع بداية مشروع كتابتها، اخذت أشعر بحنين جارف لبغداد الجميلة واهلها الطيبين وأشعر بالألم لما جره الاحتلال عليها من كوارث وويلات، وما جلبه معه من مخلوقات دنيئة تثير القرف والازدراء. والأشد ألما هو حشر اسم الحزب اشيوعي العراقي بينهم وهو الذي ملأ رؤوسنا في الكفاح ضد الإمبريالية. فهل إن انهيار الاتحاد السوفييتي وغياب مرجعيته "النظرية" أنست قادته التاريخ النضالي المجيد لحزبهم فرضوا ان يمرغوه في الوحل بتعاونهم مع قطعان ماشية الاحتلال.

تذكرت أيضاً المرحوم محمد رضا الشبيبي الذي ذَكّرَ عبد السلام عارف عندما زاره معتذراً عن إعتقال إبنته البكرمن قبل عصابات البعث بعد إنقلاب عام1963، حينما ترحمَ على روح عدوّه السياسي نوري السعيد الذي قال له يوماً... "سأذهب وسترى ماذا سيحدث لكم من الذي سيرثني وستتذكر "بأني لم أكن إلا غطاءً لهذه البالوعة الكبيرة".

وتذكرت الشخصية الوطنية **الشيخ محمد الصدر** كما يَروي ناجي شوكت في مذكراته "أن شاه إيران في زيارته لبغداد وفي أثناء تبادل الحديث مع الشيخ باللغة الفارسية لاحظ أن الشيخ قد استشاط غضباً ولحيته ترتجف وهو يخاطب الشاه. وبعد انتهاء الحفل ومغادرة الشاه سأل ناجي شوكت الشيخ عما حصل... فأجابه رحمه الله: أن الشاه قال له حينما كان يرتشف العصير بدل الشامبانيا وأثناء تبادل الأنخاب "لو كان والدي حياً لأجبرك على شرب الخمر". فأجابه الشيخ بما لا يسمح لي ذكره هنا!!!

قولاً ينم عن وطنيته وانتمائه لبلده!!.

إني أرى أن قيادات الحكم الأميركي في العراق الآن تتسابق لإبداء الولاء المبطن لأسيادها في واشنطن وطهران وقم، وأتذكر الجواهري في قصيدته " أي طرطرا تطرطري":

أي طرطرا تطرطري

تقدمي تأخري

تشيعي تسنني

تهوّدي، تنصري

تكردي، تعربي

تهاتري بالعنصر

تعممي، تبرنطي

تعقلي، تسدري

كوني – اذا رمت العلى

من قبُلٍ أو دبر

صالحة " كصالح "

عامرة " كالعمري "

ها انا ذا في منتصف العقد السابع من عمري أريد أن أكمل كتابة هذه المذكرات لنفسي ولأولادي ولأحفادي. وأتذكر تشجيع الصديق والأديب والشخصية الأكاديمية المعروفة **الدكتور عبد الحسين شعبان** الذي دفعني للبدء بها. فهو من القلائل الذين مروا بتجارب قد تكون قريبة من تجربتي وإن اختلفت بالتفاصيل،

ناهيك عن تقارب فهمنا للواقع العراقي. فإن رأت مذكراتي هذه النور فهذا اعتراف بفضله وله مني الإمتنان كله وإنحناءة شكر، وإلا فالذنب ذنبي ليس إلا.

لقد كان صديقاً كريماً ومشجعاً لا يبخل بشيء إلا وقدمه برحابة صدر... وهنا عليّ أن أسجل امتناني واعتزازي وشكري الخالص مرة اخرى للدكتور عدنان نعمه عبود زوج شقيقتي. فلولا فضله لما ظهرت لتكون بين أيديكم.

كما ذكرت في بداية المقدمة، هذه خواطري كتبتها مُرفهاً بها عن نفسي. ولا أريد لها أن تكون قدحاً أو مدحاً لهذا أو ذاك.. وأنما أريد تسجيلها لأحفادي عائشة ونادية وزيد لأذكرهم بعراقة أصولهم أولا، وبأني عشت حياة حافلة، فيها الكثير من الحب والأعتزاز وحتى الندم ولهم فقط أكتب هذه الذكريات. وكذلك وفاءً لأبي وأمي، ولبعض الشخصيات التي مرت بحياتي.

ولابد من التنويه بأن الصور التي ستنشر هنا ليست نتيجة هوايتي الشخصية في التصوير أو ولعي بالصور، بل كانت هدايا من المصورين أنفسهم دون طلب مني، ومعظمها كانت صور جماعية في مناسبات رسمية تلطف بها المصورون من دوائر الدولة أو الصحف والمجلات علي. أما البقية الباقية فقد تكرم بها بعض الأحبة والأصدقاء لتخليد بعض المناسبات، وأما ما تبقى لدي من القليل من الصور الكثيرة، التي التهمها "تنور" الوالدة وبإصرار من والدي أو قل بإشرافه الكامل خوفاً من وحشية "حرس البعث القومي" بعد انقلاب 1963 الدامي الذي لم تنس بعض من قياداته عملي مع الزعيم عبد الكريم قاسم ونشاطي الصحفي والإعلامي في السنة الأولى من الثورة!!.

لم أتصور أن يحقد البعض منهم علي، على الرغم من أنهم كانوا زملائي في الجامعة وتربطني بأكثرهم زمالة او صداقة شخصية احياناً. كان البعض منهم يتظاهر بصداقته لي بل ويعدّ نفسه قريباً مني. وبحس الوالد الإستخباراتي أحرق مكتبتي الخاصة التي احتوت على نفائس الكتب السياسية وبالطبع الكثير من الصور الخاصة التي لو سقطت بأيديهم لكانت وفق قوانين ذلك الزمن "مستمسكات جرمية". فكان على

الوالد التخلص منها، وكانت تلك بداية فقدان أجزاء من حياتي لا تعوض...

وبمرور السنوات اختفى الكثير منها، كما أكل الحل والترحال الكثير مما أسميه "كنزاً" شخصياً يخص حياتي ومراحل مهمة منها... ولعلي افتقدت بعض الصور أكثر من غيرها وعلى رأسها صور مع الأكاديمي والمفكر العراقي الماركسي الدكتور **إبراهيم كبة**، فقد كانت له منزلته الخاصة في قلبي لفخامة شخصيته علمياً وعظمة فكره التي تضاهي ضخامته الجسدية.. كذلك صور مع **توفيق منير** و**كامل قزانجي** ومع الشاعر الفذ **محمد صالح بحر العلوم** والشاعر الكبير **محمد مهدي الجواهري** والفنان اليساري الدكتور**خالد الجادر** وفنان الشعب **يوسف العاني**. لقد أفهمتني الوالدة بأن الوالد أمر بإحراق كامل "الألبومات" التي أودعتها في بيتنا وحتى صور من غير السياسيين أو من المحسوبين على البعث أمثال الشاعر الكبير **بدر شاكر السياب** واللامنتمين سياسياً **كحافظ القباني**...

لم أكن أنوي البقاء خارج الوطن ولم أخطط له، بل كنت أنوي العودة إلى بغداد الأصيلة وأهلها الطيبين ومقاماتها التي جرت في عروقي والتي ما يزال لغاية هذه الساعة ينبض بها قلبي... فمقام "الصبا" يثير شجوني "والماهوري" يعيد إلي ذكرى صلاة العيد التي كان الوالد يسمعني إياها من محطة إذاعة بغداد يوم كنا أطفالاً... أما مقام "الدشت" فإنه يثير فيّ حنيناً خاصاً. لم أحمل معي من بغداد في رحلتي الأولى سوى بعض الملابس مع الكثير من تسجيلات المقامات العراقية التي واظبت على استنساخها كلما تقدمت وسائل التسجيل الحديثة، ولم أفرط بها أبداً... كما إني أعود إليها في أفراحي وأتراحي. وكانت تلك متعتي كما كانت شاهداً تاريخياً على تلك الأيام!!.

الباب الثاني

أيامي في بغـــداد

البدايات الأولى

تأخذني الذكريات الى بعض تفاصيل الحياة وأنا طفل، بيتنا القديم والكبير بالمقاييس كلها. أتذكر باسقات النخل التي كانت في وسط الباحة في منطقة سبع قصور في الكرادة الشرقية ببغداد والقريبة من الكلية العسكرية القديمة، إذ كان جدي إسماعيل آغا معتمداً مدنياً فيها. لم أكن أعلم ماذا يعني هذا العنوان او (الرتبة)، ولكني فهمت حينما بدأت أستوعب، أنه عنوان شبه فخري لضابط متقدم في الجيش العثماني رفض التعاون مع المحتل الإنكليزي، فضلاً عن كونه موظفاً مدنياً في حكومة ولاية بغداد بعد إقصائه من عمله في الجيش العثماني، إذ كان برتبة قائمقام تعادل في مراتب العثمانيين عقيد في الرتب العسكرية في العراق الجديد!. كان وديعاً وطيباً إلا أنه كان بين الفينة والأخرى لاسيما بعد أن بلغ عقده التاسع، يستمتع بسرد بعض من قصص حياته. كنت أحاول التقرب منه لكنه كان دائماً خالي العواطف، يحاول التزام الصمت ولا يبتسم إلا قليلاً. وحين يَفرح ينطلق في قهقهة غريبة تعبر عن السعادة والمتعة وإن كانت تلك أيضاً قليلة.

لقد استطعت أن أطلع على قصة حياته من تلك الدقائق التي كان يحدثني فيها عن أيام زمان الرائعة، أيام الدولة العثمانية. والده هو: "عبد الله هدى جميل الحسيني". يعود نسبه الى الأمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) وهو من وجهاء الحسينية في اليمن، يلتقي مع يحيى - امام اليمن في حينه - بجده السابع. اما والدته فهي شقيقة صاحب الشرطة في اسطنبول وهي من سلالة زاده التونسية. حين حملت به وقربت ساعة مخاضها ارسلها الى صنعاء لتضع مولودها في احضان اسرته. ولما ولد كنعان - وهو الأسم الاول لجدي اسماعيل - وبلغ الاربعين يوما، عادت به أمه الى احضان أبيه في اسطنبول. احتجز والده من لدن السلطان في أسطنبول كرهينة وتم تعيينه كضابط شرف في الحرس السلطاني لأن عائلته كانت دائمة التأرجح في ولائها للدولة العلية. ترعرع جدي في اسطنبول ونما إحساسه بالولاء للدولة العثمانية تبعا لذلك والحب لتلك المدينة الساحرة حتى آخر لحظة من حياته. دخل الكلية الحربية وتخرج فيها ضابطا في البحرية العثمانية.

كان على ما يبدو يحن باستمرار لإسطنبول وأهلها. ولما لم تستطع زوجته الاسطنبولية (الكرجية) العيش في البصرة حيث سكن بعد نقله الى العراق، اعادها مع إبنتها الوحيدة الى اسطنبول وانتقل الى بغداد لاحقا. فتزوج من إمراة ثانية اسمها "فاطمة" وهي جدتي: من عائلة كردية عريقة. أنجبت له ثلاثة أولاد، كان بكرهم والدي يوسف الذي تخرج في مدرسة "الصنائع" التي كانت -على ما حدثني به الوالد - بداية المدارس المهنية في العراق التي أنشأها الإحتلال البريطاني في بغداد لتدريب العراقيين للمساهمة في بناء "العراق الجديد".

أنخرط في خضم الحركة الوطنية لشباب ذلك العهد، ثم وجد نفسه بقناعة يغازل الحركات اليسارية الناشئة فانتهى به المطاف في حزب الإخاء الوطني ومن بعده جماعة الأهالي ووريثها الحزب الوطني الديمقراطي. دخل الخدمة الحكومية في سلك الشرطة بناءً على وساطة من ياسين الهاشمي وتدرج في مسلكها. وعمل في منطقة الفرات الأوسط التي عشقها وأحب أهلها: كالسماوة والرميثة وأبي صخير والكوفة وكربلاء وغيرها.

كان ابي يحدثنا بأن الحركات والأحزاب كلها بضمنها الشيوعية تمثل إرهاصات وطنية تبحث عن سبل لتحرير الوطن والغاء الفروقات الطبقية في مجتمع نخرت أوصاله الخرافات الدينية والطائفية والعشائرية والإقطاعية والتي كانت أبشع من المحتل وأعوانه. ولما قامت حركة مايس عام 1941 اعتقل كغيره، وكان مسؤولاً انذاك عن عائلة فيها طفلان، أنا وأخي خالد. مكث في السجن سنتين أصبح بعدها عاطلاً عن العمل. أعيد إلى الخدمة في سلك الشرطة شريطة أن يخدم خارج بغداد، مع وجود علامة استفهام كبيره على ولائه السياسي. وحين انطلقت ثورة 14 تموز عام 1958 إمتنع عن ممارسة العمل السياسي، لكنه عُد شيوعياً في إنقلاب البعث عام 1963؟!. أحيل على التقاعد وهو في نهاية الأربعينيات من عمره بينما كان في غاية النشاط الذهني والجسدي. كانت حياتنا العائلية مستقرة ومحافظة جداً تكونت من دزينة كاملة من الأولاد. كان والدي من مواليد 1911 قائداً للعائلة بحماس. يسهر على راحتها ويمنحها ولاءه ولا أبالغ إن قلت إن التزامه كان غير محدود بها. يحب

الجغرافية ويكاد يعرف كل جبل او واد في اية بقعة من العالم انذاك. ويحفظ اسماء كل مدينة تقريبا في أي بلد من عالمنا الشاسع. ويعرف الكثير عن أحوال سكانها وطباعهم وتراثهم وسبل عيشهم وعقائدهم الإجتماعية. تزوج في أربيل من والدتي: "نازه" إبنة حاجي نبي الشيرواني أحد نازحي شيروان التي كانت ضمن العشائر المشاركة في ثورة البرزاني الأولى عام 1932. وأُودع مع رجال عائلته كلهم في سجن الدولة وانتهت العائلة في معسكرات النازحين في ما يسمى في ذلك الوقت "حسار" وهو على شكل مربع محاط بسياج طيني، يزدحم نزلاؤه في غرفه وباحاته. وكنت الأول في تسلسل العائلة.

عادت العائلة إلى بغداد بعد شهور. كنت أشعر بأن الوالدة كانت موضع إستغلال - في بعض الأحيان - من قبل جدتي لأبي التي كانت أيضاً من أصول كردية!، إلا أنها كانت تعاملني معاملة خاصة وتحبني بإفراط. كنت أثأر - أحيانا - لوالدتي، فأعامل جدتي لأبي بنوع من التعالي والعدائية... اما عن جدتي لامي الكردية فعلى عكس ذلك، كانت مليئة بالحب والحنان لأحفادها من ابنتها البكر نازه، على الرغم من حبها لإبنتها الثانية "كناز"، والتي اختطفتها المنية وهي صغيرة، والثالثة "بياز" وابنها الوحيد "كاكه ره ش".

كانت الوالدة في نظري عظيمة وذات كبرياء وشموخ ومن أجمل النساء في العالم - في نظري - وتتمتع بشخصية قوية وصارمة مليئة بالحنان والحكمة وتتفانى في خدمة وتربية أولادها وكل ذلك مقترن بإحترام بالغ لوالدهم. قليلة الكلام، صامتة أغلب الأحيان. وتؤكد في كل مناسبة الحفاظ على ما تسميه "كرامتها" الإنسانية التي ورثناها جميعاً منها. كانت في الوقت نفسه كريمة ومتسامحة. لم تتحدث العربية إلا حينما نزحت مع زوجها إلى بغداد وتعلمتها بلهجة بغدادية أصيلة. غرست فينا منذ الصغر عزة وكرم الفراتي العربي وتصميم وصرامة الكرد النابعة من قوة جبال كردستان ورفعتها وشموخها. أقول ذلك بكل فخر واعتزاز. كان تراثنا وربما تراث أولادي وأحفادي في الغربة من ذلك المنبع ومازال هذه الصفات ولغاية هذه اللحظة نبراساً لحياتي وترسخت فيّ آثارها بكل صورها وحتى عُقدها!. كانت حياة العائلة

طبيعية وهادئة ومُرفهة. ولا أريد أن أضفي عليها صفة الغنى لكنها سعيدة ودافئة بمقياس ذلك الزمان.

تدرج الوالد في سلك الشرطة. كان طيباً وفي الوقت نفسه صارماً، وشخصيته خليط من "الخشية من إيذاء أحد" على ما يسمى بذلك الزمان "الخوف من الله". كان يؤمن ذاتيًا وفي اعماق نفسه بأن إيذاء الناس يؤدي بالنتيجة إلى أن يدفع الثمن أولاده وعائلته. كان شديد التمسك بعائلته حنوناً عطوفاً لكنه كان قاسياً عليهم بأحكامه. يطلبُ منهم الالتزام بكل قيم ذلك الوقت مصراً على أن يكونوا المثل الأعلى في سلوكياتهم كلها.

لست أنسى ما حييت تأكيداته المستمرة على أن "القيم" هي التي تعيشها مع ذاتك وأمام ضميرك الذي يصفه ب "الله"... فأنت تعرف ما تعمل، وإن كنت تتظاهر فإنك قد تخدع الناس ولكن لا تستطيع خداع نفسك. هنا - كان يَصر - لاتكن منفصم الشخصية، وكان يقول "معظم أهل بلدنا هم من هذا النوع". كان يؤكد بحرص على تجنب ضياع القيم وإنحطاط الأخلاق. لم يكن مؤمناً بأي شيء ديني بل كان علمانياً بنوع من التقوى الذاتية. وقد كان يؤكد بأن الأديان لها الكثير من القيم والمثل لكن القائمين عليها والمدعين فيها هم الذين يفسدون تلك القيم. وإن الدين قوام على القيم ولكن الفساد يحيد الدين عن صراطه وبذلك تنتهي رسالة الدين. أنشأنا علمانيين وشجعنا على القراءة، إذ كان يقرأ كل الصحف اليومية أو ما يتيسر له منها.

يوم كنت في الصف الأول ابتدائي كان يعطيني "عانه" وهي عملة محلية في حينها مكافأةً لي عن كل كلمة أتلفظها بشكل صحيح وواضح من الصحف التي امامه، وتزداد الهبة إلى ستة فلوس إذا حركت الكلمة بشكل صحيح. كنت أجني من ذلك الكثير وكان الحد الأعلى "درهماً" وهذا في معيار تلك الأيام كثير... ولنا ان نتصوران الكيلو غرام اللحم كان "بدرهم".

في بدايات الأربعينيات بدأت نواة العائلة تكبر... أول العنقود كما كان يحلو له أن يقول هو طارق وتبعه خالد، ثم خالدة التي اختطفتها المنية في عامها الثاني، حيث

أصيبت "بالسعال الديكي". كانت في غاية الجمال وخفة الدم ولن أنسى أبداً كيف كانت تملأ الدار سعادة وحضوراً. كان والدي يومها مأموراً لمركز ناحية الخضر بلواء الديوانية - أعلى رتبة لموظف حكومي في تلك الناحية - لهذا كانت دارنا فسيحة فيها الكثير من الغرف وأعتقد أن البناء كان من أيام الدولة العثمانية على الطراز العباسي الإسلامي. باحة الدار فسيحة والشذروان يتوسط الباحة. وحوله تنتشر أشجار الرمان وباسقات النخل. هذه كانت على الأقل، ذاكرة طفل في عامه الثالث. لست أنسى ما حييت حينما بدأت "خالدة" بالسعال والوالدة تحاول أن تهدئها وتزيد الحنان والقبل والمسكينة تصرخ وتغص وتختنق بين الفينة والأخرى، لكنها تعاود الشهيق ومن ثم الاسترخاء والعودة إلى النوم... وتتكرر تلك الحالة عشرات المرات يتخللها الصراخ والعويل والوالدة تذرف الدموع وتحتضن الطفلة!! وخالد وأنا لا ندري ماذا نعمل، فقد كان خالد مشاكساً ولا يتحمل الجلوس في مكانه. كانت الوالدة رحمها الله مبتلاة بإسعاف الطفلة ونحن الإثنان لا نكف عن العراك. كان الوالد مواظباً على الدوام بانتظام. كان هندامه - دائماً - في غاية الأناقة والترتيب. تقع الناحية ومركزها على إحدى ضفاف نهر الفرات العريض، إذ تتمركز دوائرها وبيوت موظفيها ومعظمهم من أهالي المدن من بغداد والنجف والديوانية، بينما العشائر وأهاليها على الجهة المقابلة للنهر. لم يكن هناك جسر يربط بين الجهتين، بل هناك "عوامة" بدائية يطلق عليها في ذلك الوقت اسم "الطبگة" يستقلها الركاب وقوفًا ويقوم إثنان أو أربعة - على ما أذكر - بادارة عملية العبور باشراف شخص آخر يسمونه "الملاح" وهو بلغة اليوم يعادل الربان. كان الوالد في "الطبگة" حينما جاءت إحدى نوبات "خالدة" ولكن في هذه المرة... استمر السعال لفترة اطول وقد كان ذلك يحدث أحيانًا لكنها تعود للتنفس وتدب فيها الحياة ثانية... لم ينفك السعال هذه المرة وازداد وجهها احمراراً فقد كانت الأكثر بياضاً في العائلة كلها مما زاد في إحمرار وجهها. فجأة توقف السعال وهي في حضن الوالدة لكنها هذه المرة ذهبت في رحلة أبدية. كان عليّ أن أبلّغ الوالد الذي كان في طريقه إلى الجانب الآخر من النهر وهو في "الطبگة" بأن أصرخ لأعلمه بأعلى صوتي الطفولي وكل ما أوتيت من إشارات وقفزات. إنتبه الوالد أخيراً وأمر الربان بالعودة فأنبأته بما حدث. لا أنسى قسمات وجهه كانت في غاية التأثر وأجهشت

باكياً. كان يحاول تهدئتي وإيقاف نحيبي وحملني من النهر إلى البيت وكانت تلك أول مشاهداتي للموت. كنت أعرف بأن الناس الذين يموتون كبار السن ولكن هذه المرة أختي الصغيرة هي التي ماتت. أكملوا مراسيم الدفن ولأول مرة أرى والدي يبكي بينما الوالدة كانت تئن علناً وتنتحب بحرقة، وبين الأونة والأخرى تنشد ما تعلمته في بغداد، وحينما ينضب ذلك تبدأ الإنشاد بالكردية. كان صوتها جميلًا ومن هنا جاءت عراقيتي كردية الوالدة وبغدادية الوالد في محيط الفرات الأوسط. أصر الوالد على تسمية الابنة القادمة "خالدة" أيضًا وليس على عادة أهل ذلك الزمان، إذ كان الناس يتشاءمون من إطلاق اسم الميت على المولود اللاحق. أصر الوالد وجاءت "خالدة" أخرى ثم أعقبتها بلقيس، وسعاد ثم ولدَ سعد، وتلاه صلاح وبعده سلام... وجاءت فاطمه ووفاء ثم خاتمة المطاف فائزة. كان الوالد قريباً من أولاده وعائلته. يسهر عليهم وكانت تلك بداية "تدجينه" السياسي. لم يعد التقدمي من أتباع حزب الأخاء العراقي أو اليساري من أتباع جعفر أبو التمَن وجماعة الأهالي الفابية. حاول جاهداً أن يؤدي مسؤولياته العائلية. كان يرفض أن يمجد حكام ذلك الزمان ولا يُخفي معارضته لهم لكنه كان يكظم الكثير من مشاعره ولا يبوح بها إلا للمقربين.

كُلف بالعديد من المناصب الإدارية إلا أنه كان يحب أن تكون وظائفه في الفرات الأوسط لاسيما لواء الديوانية. كان يراهم أهل شيمة وذوي وفاء وخلق وعلى حد رأيه "عَرب أصلاء"، وتتحلى عشائرهم بالنُبل العربي ولدى شيوخهم شموخ الشخصية العربية الأصيلة بكل صفات الكرم والإلتزام.. هكذا جال الوالد ارجاء اللواء كله. ففي الرميثة كان قريباً من الشيخ خوام العبد العباس من شيوخ ثورة العشرين. ولا أنسى أبداً وجهه الصبوح وهيئته البهية وهندامه العربي الأصيل ولعل ما أتذكره هو أنه كان حنطي البشرة أقرب منه إلى البياض الذي كنت أخاله حكراً على الأكراد وعلى أهالي بغداد. وكذلك كان شيخ الظوالم جياد ال شعلان أبو الجون لصيقًا بوالدي، وأبوه من أساطين ثورة العشرين. كان ذا شعر طويل ولحية قصيرة مشذبة ومهيبة وذا وجه صارم الملامح. وفي الحمزة الشرقي كان شيخ الخزاعل "علي الشعلان السلمان الظاهر". كل هؤلاء كانوا أعضاء في مجلس النواب العراقي، يعيشون مع عشائرهم لكنهم يذهبون الى العاصمة أثناء انعقاد المجلس. وحينما

انتقل الوالد الى الكوفة لم تكن هناك مدرسة متوسطة فكنا نذهب يومياً بسيارة أجرة للدراسة في متوسطة النجف... ونعود مساءً إلى الكوفة لنعاود الكرة في اليوم التالي. كانت الكوفة رائعة المناخ على ضفاف الفرات لاسيما في فصل الصيف. بدأت صداقة حميمة مع أقرب الناس إلى قلبي عبد مسلم مهدي أسد الذي بدأنا معاً رفقاء دراسة في متوسطة النجف. كان يمر بحالة نفسية صعبة إذ قتل والده الذي كان من كبار تجار الكوفة بظروف غامضة. حينما التقيته كنا في الثانية عشرة من العمر. تقاربنا وأصبح جزءاً من عائلتنا، حتى كانت والدتي تعده أحد أولادها المقربين. إستمرت علاقاتنا حتى تسربت أفكارنا التقدمية إليه وأصبح - وهو المتدين - تقدمياً وانتهى به المطاف علمانياً. أصبح رفيق العمر وتشابكت حياتنا بعد ذلك. دخل كلية الحقوق ومن ثم أصبح مديراً للناحية حتى تم فصله من وظيفته بعد الإنقلاب البعثي سنة 1963 باعتباره يسارياً وهو بعيد عن اليسارية. بدأ بعدها ممارسة المحاماة في الكوفة وأصبح من أنجح محاميها.

إنتقل الوالد بعد ذلك إلى سدة الهندية وهناك جاءت أحداث العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 وآلت الأمور الى سحب يد الوالد من الوظيفة. بقيت العائلة من دون مرتب أو دخل. إنتسبتُ إلى ثانوية الحلة وتخرجت فيها عام 1954 وكنت الأول على دفعتي. كانت الكليات في ذلك الوقت تقبل الطلبة المتقدمين للإنتساب إليها بشكل مباشر وليس من خلال القبول المركزي. وبما أني لم أكن أعرف على وجه التحديد نوع الإختصاص الذي أرغب فيه، تقدمت بأوراقي إلى كليات الحقوق والآداب ودار المعلمين العالية. كانت مقابلة الطالب المتقدم إلى الكلية تجرى من لدن أساتذتها. حيث تتشكل لجنة المقابلة من مجموعة من الأساتذة لكل قسم، تناقش فيها أسباب اختيار التلميذ لفرعه واختبار ذهنه وإلمام المتقدم. لقد كان الإنتساب إلى الكليات مسألة جادة، أهم بنودها الدرجات ومن ثم المقابلة وبعدها تحصل مناقشات ثم يتقرر قبول الطالب في الكلية والفرع أو القسم. لقد كان الإنتساب لإحدى الكليات يتم بشكل مباشر- قبل أن تتحد هذه الكليات تحت سقف جامعة بغداد- وكنت من خريجي دفعتها الأولى (جامعة بغداد) عام 1958. كان أول رئيس لجامعة بغداد هو التربوي

المعروف عالمياً، خريج الجامعة الأميركية في بيروت وبعدها جامعة كولومبيا الأميركية الشهيرة، الأستاذ الدكتور "متي عقراوي" الذي ترك منصب الأمين العام لليونسكو ليقبل بشرف إنشاء هذه الجامعة العراقية الأصيلة التي حملت اسم "جامعة بغداد". دخلت أولاً كلية الآداب وحاولت الإنضمام أيضا إلى كلية الحقوق، وكانت مراسيم القبول تصدر من إدارات الكليات وبإستقلالية كاملة. لم يكن هناك تسجيل مركزي في تلك الأيام، فبإمكانك الدوام في كليتين من دون أن يعلم أحد. كانت كلية الحقوق أيسر الكليات من حيث متابعة غيابات طلبتها لأن عدد طلبتها كان كبيراً ولكل طالب كرسي مثبت عليه رقم، والغيابات تسجل في الغالب اعتماداً على الكراسي الشاغرة، أما من يشغلها فهذه مسألة أخرى. تناوب على إشغال الكرسي المخصص لي "عبد مسلم" وصديق آخر هو "موفق الجلبي"، وكنت أسدي الجميل لهم بتلخيص الملازم التي يطبعها الأستاذ المحاضر. كانت لي قابلياتي الخاصة في الحفظ، فقد وهبني الخالق قابلية تنافسني عليها أصغر بناتي "جنان" وإحدى حفيداتي "نادية" بنت "شيرين" ابنتي الكبرى.

كنت أحضر الدروس في كلية الآداب قسم الإجتماع وقسم العلوم الإجتماعية في دار المعلمين العالية وكنت أرتاح لدروس دار المعلمين العالية أكثر من غيرها.ولم أكن أحضر دروس قسم الإجتماع سوى درس "د. علي الوردي" "ود. عبد الجليل الطاهر". أما البقية فقد كنت أجدها مملة وبدائية. بعد انتصاف العام الدراسي وبينما كنت أتجول في باحة الكلية التقيت أستاذنا الرائع الدكتور علي الوردي، وكان يحب التجوال في اروقة الكلية، فقال بعد أن حرك حبات مسبحته "شرفتنا اليوم يا شيخ طارق". لم أكن أعرف بأنه على علم باسمي، فأحمر وجهي وتلعثمت وقدمت له اعتذاري لعدم تمكني من حضور محاضراته كلها التي كانت تستهويني وأجدها رائعة على الرغم من أنها لم تكن تقليدية. كان يرصد ظواهر إجتماعية تثير عندي الكثير من ردود الفعل وأستمتع بطريقته الإستقرائية في التدريس وربط العلم بالواقع الإجتماعي. ولهذا حين دعاني لأن "أتمشى" معه وعلى حد قوله "نمشي رياضة" لم أتجرأ لأقول له بأني في طريقي إلى



الصورة رقم (1): الأستاذ الدكتور علي الوردي مع مجموعة من طلبة دار المعلمين العالية عام 1956

كلية الحقوق، فهذا هو اليوم الذي علي أن أحضر لأن عبد مسلم وصديقي الآخر موفق الجلبي لم يستطيعا فيه مفارقة كراسيهما، لأن غياباتهم وصلت درجة قد تنتهي بهم إلى الإنذار بسبب تغطيتهم حضوري!!! بدأنا نمشي وهو يضع يديه خلف ظهره وفي أحداهما المسبحة التي لا تفارق أصابعه (صورة رقم 1).

لست أدري لماذا شعرت براحة!. كنت أئن من وزر ما أقوم به وما أعاني منه!. كان ذلك في يوم مشمس من شهر كانون الأول عام 1955. بعد نحو ربع ساعة من المشي وكان يتحدث عن الأشجار والأوراد والأعشاب... التفت إلي وقال "شنو مشكلتك؟" فقلت على الفور "أي واحدة منهم؟" فقال "انت دائماً مستعجل؟!" وأردف: "هذه أحلى أيام حياتك استمتع بها!! حينما تذهب هذه الفرص فإنها لن تعود" ردد مقام محمد القبانجي "الليالي اللي مضت ما تعود ليه" استمر معلقاً "توقف وشم الورود"، قالها بإنگليزية واضحة. ثم انساب من باطني ما أعانيه من زحمة في دراستي! فسمع مني ما أنا فيه وأجاب "ليش دستوي هيج بنفسك؟". لقد وقع هذا

السؤال عليّ كوقع الصاعقة! تلعثمت ولست أدري ماذا حدث؟! سؤال وجيه... وأعاده عليّ: "ماذا تريد من حياتك؟". أوضحت له ما في داخلي وانسابت الأفكار التي أصبحت بعد ذلك الخطوط الأولى لمستقبل حياتي. قلت له إن العلوم السياسية تستهويني ولكن هذا التخصص غير موجود في أي كلية عراقية وإني أجد متعة خاصة فيما يمكن أن يطلق عليه "علم الإجتماع السياسي" وإن درسه هو أقرب إلى وجداني وإني أتفاعل معه. قال "هل قرأت شيئاً عن العلوم السياسية؟ فأجبت بنعم وأخرجت من بين مجموعة الكتب التي أحمل كتابًا مقررًا من جامعة ميشگن لطلابها عن مقدمة في العلوم السياسية والذي اشتريته من مكتبة "مكنزي" في شارع الرشيد!!! قال على الفور: "وكيف لغتك الإنگليزية"؟. أجبت بنوع من النشوة "جيدة لا تصل الى الإمتياز". فأردف: "من الآن دعنا نتحدث بالإنگليزية" وكان ذلك ما حصل! قال "هل تعلم بأن الدكتور صالح زكي رئيس قسم العلوم الاجتماعية في دار المعلمين العالية حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة كولومبيا المشهورة وهو أول عراقي يتخصص في ذلك؟. وها هو الآن يدرّس تاريخ العراق المعاصر لعدم وجود فرع في أي من كليات بغداد!". إنتهت المحادثة على حين غرة وقال "سأذهب إلى مكتبة مكنزي بعد ظهر غد الخميس أقضي ساعتين فيها وأذهب الإثنين والجمعة إلى شارع المتنبي! وأبدأ بمكتبة المثنى لقاسم الرجب، فإن هذا الرجل له حس مكتبي خاص، يأتي بالكتب من كل مكان في المنطقة العربية". ودعته وذهب كل منا لحاله...

الأستاذ الكبير "علي الوردي" من قلائل أساتذة الكليات الذين كانت لهم شهرة واسعة في الأوساط الإجتماعية والسياسية. إتصفت آراؤه بالجرأة والتحدي لكثير من قيم ومقاييس ذلك الزمان، إلا أنه كان موزوناً بعلمه ويتمتع بعقلية نقدية تتعدى الروتينية العلمية. مرت الأيام وبينما أنا أبحث في محتويات مكتبة مكنزي وأحدث صاحبها "كريم مكنزي"[1]، محاولًا إقناعه بأن أستأجر بعض الكتب، وإذا أعدتها وهي ليست بحالتها الممتازة فإني سأبتاعها... وإذا بصوت من خلف إحدى

(1) عمل كريم وهو من أصول كرديه عراقيه في مقتبل عمره عند مؤسس المكتبة الإشتراكي الإسكتلندي دونالد مكنزي وحينما ترك دونالد العراق في أوائل الأربعينيات وهب مساعده - كريم - إسمه والمكتبة. ومنذ ذلك الحين أصبح مكنزي لقباً لكريم الكردي والذي اشتهر به طيلة حياته.

حاضنات الكتب يقول "كريم أني مستعد أكفله"... وإذا بالمتحدث هو أستاذنا الوردي!!! وبصوت متكسر يقرب من الحشرجة وبوجه أكثر احمراراً وشحوباً استقبلت هذا التدخل الرائع... ووافق كريم على اقتراحي مع تزكية أستاذنا والتفاتته الكريمة!!! خرجت على الفور من المكتبة مسرعاً محاولاً الإختفاء بين المارة وكأنني عملت شيئًا يستحق الخجل أمام أستاذ أجله وأحترمه. وبعد مرور أسبوع وفي حصته الدراسية أشار إلي بأن أتبعه، وهكذا فعلت. قال "رتبت لك لقاء مع دكتور صالح زكي وهو ينتظرك في مقر رئاسة القسم". ذهبت في الزمان والمكان المحددين واستقبلني الدكتور صالح زكي بجديته المعهودة وصرامته المألوفة...

وبعد أن أطنب في مديح الوردي قال "بإمكانك أن تأخذ الكثير من الدروس في قسم العلوم الاجتماعية لاسيما دروس الاجتماع السياسي والتاريخ الحديث الذي قد يعينك لاحقاً إذا كنت جاداً في إكمال الدراسات العليا في أمريكا، فإنهم في جامعات أميركا لا يأبهون بالدراسات الأولية ما دامت الدروس التي أخذتها تدور في فلك العلوم السياسية. وعليك - ايضا - أن تساندها بدروس يراها قسم العلوم السياسية أساسية، وقد يتطلب ذلك الأمر فصلاً دراسياً واحداً أو إثنين". إنسحبت من الكليات الأخرى واقتصرت على دار المعلمين العالية فقط. كانت درجاتي في نهاية العام عالية جداً وأصبح الدكتور صالح زكي مرشدي حتى أنه ركز درس الفصل كله على "معنى العلوم السياسية". وفي الفصل الثاني ركزعلى العلاقات الدولية التي ولعت بها لدرجة الهيام والشوق العلمي. تخرجت من دار المعلمين العالية في حزيران 1958 وكنت الأول على دفعتي وبدرجة الشرف. وفى دكتور صالح زكي بوعده اذ أعانني بالتقديم على ثلاث جامعات أميركية في العلوم السياسية، وكان أستاذي وموجهي في كل دراساتي واتجاهاتي العلمية، مشجعاً وناصحاً وأخاً كبيراً - وكذلك الحال مع د.علي الوردي - وكلما ازداد سطوع نجمه العلمي والإجتماعي ازداد اعتناؤه بي.

لايمكن وصف اعتزازي وسعادتي حينما جلس معي للتخطيط لدراساتي العليا. كتب توصية لا أزال أراها محطة مهمة على معالم طريق حياتي العلمية، فإني أردت أن أدرس العلاقات الدولية ولم تكن هناك بعثات لهذا الإختصاص ولم تكن دراستي

الجامعية الاولية بذلك التخصص. قُبلت في جامعة إنديانا بناءً على توصية د. صالح زكي كذلك د. علي الوردي، والأهم كانت توصية د. طلعت علي الشيباني، إذ كان من خريجي الجامعة نفسها وأخذ عدداً من دروس الإختصاص في العلوم السياسية على الرغم من أن دراسته العليا كانت في الإقتصاد السياسي. وقد حلَّ الأخير وزيراً للإعمار في حكومة ثورة 14 تموز الثانية بعد إقصاء وزيرها البعثي فؤاد الركابي.

بدأت رحلتي العلمية الأولى عندما ركزت جهودي كلها لإحراز درجات عالية وبدأت في التحضير لجولة جديدة في حياتي، وكانت تلك هي البداية. لم أترك هوايتي في الكتابة بالصحف المحلية. كانت جريدة اليقظة لصاحبها سلمان الصفواني "أبو رامز" في الخمسينيات من العمر، وهورجل طيب القلب، خجول، قصير القامة، إلا أنه مليء بالطاقة وحب الآخرين، انيق ذو بشرة سمراء تذكرك بالبادية التي أنبتت العروبة في عروقه. كان قومي الهوى ناصري الأتجاه. متزوج من لبنانية قصيرة مثله لكنها أقل بشاشة وأكثر صرامة. كانت الأجواء في منتصف خمسينيات القرن الماضي مشحونة بالكثير من العواصف السياسية فقد بزغ نجم جمال عبد الناصر، ومع بزوغه بدأت عروق الشباب القومي بصورة خاصة والتقدمي تئن من وطأة النظام السعيدي وجلاوزته القساة. كانت جريدة اليقظة ذات اتجاه وطني واضح. أغلقت مرات عدة وكان "أبو رامز" يزداد إصراراً على عروبته ومناصرته للقضايا القومية. أغلقت الجريدة - أيضاً - لشهورعدة بعد حرب السويس في شهر تشرين الثاني من عام 1956 لشجبها وبشده العدوان الثلاثي على مصر لتعود إلى الصدور مرة اخرى بذات التوجه والإلتزام. حاربتها الحكومة ولم تمنحها فرصة نشر إعلاناتها، فكانت فقيرة بل وفقيرة جداً.

كانت لمدير تحريرها شخصية لها توجهات "أبي رامز" القومية نفسها على الرغم من كون سحنة "نصار الصباح" أكثر شبهاً بأعدائه السياسيين الإنكليز. كان أحمر الوجه أصلع الرأس وكان ما تبقى من شعره ناصع البياض. له صوت جهوري يتحدث إليك وكأنه يُلقي خطاباً وطنياً. له هيبة خاصة واحترام في قلبي وعقلي. لم أر طيلة حياتي الصحفية إنساناً يجيد اختيار العناوين مثل "نصار"! لم أره يكتب شيئاً لكني رأيته يقرأ

كل مقال بإمعان. كان واجبي، كوني أصغر الصحفيين سناً، أن أزوده بالمقالات بعد صفها، على الطريقة البدائية انئذ، ليقوم بمراجعتها بجدبة وشغف ووضع العناوين المناسبة التي تعبر عن الفكرة كاملة وتختزل صلب الموضوع بروعة وأمانة. فهمت من أستاذ نصار أنه كان تلميذاً في كلية الطب بجامعة برلين وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية - التي ابتلعت نقود أهله - إضطر للعودة إلى الوطن واشترك في ثورة مايس 1941 وانتهى به المطاف في سجون عبد الإله. بعد أن أنهى محكوميته لم يستطع العودة لإكمال دراسته فابتدأ عملاً جديداً في جريدة رفيقه في سجن بغداد ومعه أيضا في منفاه وبعودة زميله إلى الصحافة بدأ الإثنان يعملان في جريدته "اليقظة". بدأت رفقة نضال الإثنين معاً في ميدان الصحافة. كان أبو رامز يثق بصديقه نصار الذي يحمل عنوان مدير التحرير وكانت جريدة اليقظة مسائية ولها مؤازريها من العمال والكتاب وطاقمها الصحفي. كنت أعمل بحماس وإخلاص ولكني لم أفرط بدراستي.

جاءنا أبو رامز في أحد أيام شتاء عام 1957 وأعلن بأن مبيعات الجريدة لا تكفي لدفع إيجار مقرها الكائن في وسط شارع الرشيد بالطابق الثاني لعمارة قديمة تعود ملكيتها إلى وزارة الأوقاف وكان ايجارها رمزياً. وأردف قائلاً "علينا أن نقرر إما أن نغلق الجريدة أو نفكر بشيء من الإقتصاد". طلب منا أن نُفكر بما سنفعله فإن هذا القرار يجب أن يقره الجميع لأنه يتعلق بمستقبل نضالنا وأهدافنا.

كان يوماً شتائياً صعباً، ولم يكن بامكاننا الاستغناء عن المحاسب لأنه يجاهد ليأتي للجريدة بالإعلانات. له طريقته الفريدة في جبايتها وقابليته في انتقاء المُعلنين ويعرف على أي باب يطرق، وكان يقوم بها بعزة نفس وبشمم، فوجوده في الجريدة إذن أمر ضروري. أما نصار الصياح فإنه الأساس الفني للجريدة ومن دونه لا يمكن إصدارها. أما المسؤول الأدبي ومحلل العلاقات الدولية - من أمثالي- فهو أول من يستغنى عنه. كان المراسل المحلي هو الشخص المهم لأنه يأتي بالأخبار التي تهم القراء من ترقيات وتعيينات ونتائج امتحانات فضلاً عن التنقلات. كان وائل السعيدي من أكثر المراسلين المحليين نجاحاً... فله علاقات صداقة مع الكثير من مدراء أقسام الإعلام في الوزارات لاسيما الوطنيين والقوميين منهم، فهم يخصون الجريدة بالأخبار

التي لا تستطيع الجرائد الأخرى التقاطها، فهو إذن مهم جداً جداً أيضاً. يتمتع وائل بشخصية غريبة، أشقر البشرة ذو شعر مجعد ووجه أبيض. يدخن السكائر بشراهة ويتذوق المشروبات حين يجد في جيبه النقود فضلاً عن كونه كريماً وطيباً في الوقت نفسه. كان الأستاذ نصار يسمع نشرات الأخبار الخارجية كلها التي كانت تذيعها المحطات الدولية من "BBC" إلى برلين وبالطبع صوت العرب من القاهرة. لم يكن للجريدة من المال الكافي للاشتراك في مكاتب وكالات الأنباء. كنت أراه يقرب المذياع من أذنه لسماع الأخبار من جهاز الراديو الألماني (Telefunken)... وتطير يده وقلمه وهو يكتب الأخبار ويعيد صياغتها في الوقت نفسه. كانت جريدتنا من أحسن الجرائد في الأخبار الخارجية، فمن دونه ليس لنا جريدة. حين حل موعد اجتماعنا جلس الجميع - كنت معهم - كلنا ينتظر ما سيصدره أبو رامز من أوامر. لأول مرة شعرت وكأنني في صالة المحكمة وأنتظر حكم القاضي، كانت لحظات حرجة. بدأ أبو رامز بالقول بأنه لا يحتاج إلى أي راتب ما دام بإمكان المحاسب أن يدبر دفع إيجار بيته الشهري. وقال نصار بأنه لا يستطيع الإستغناء عن العمل فهذا هو دخله الوحيد. أما أنا فقلت "بأني لا أستغني عن العمل ولكني أستطيع الاستغناء عن الراتب". أما وائل السعيدي فقال بأنه يستطيع العمل مع جريدة أخرى من دون إهمال جريدتنا!!! ومرت العاصفة بسلام.

كانت علاقاتي بسكرتير جريدة البلاد، العراقي الرائع والصحفي اللامع "سليم البصون" جيدة جداً على الرغم من فارق العمر بيننا. نشأت بيننا وشائج قلبية ولا أشعر بحرج في طلب المشورة منه على الرغم من كونه صارم الوجه، لكني أجده رقيقاً وطيباً. أعلمته بأني لا أمانع من العمل في البلاد وأعدت على أسماعه بأني مستعد لقبول عرضه الذي اعتذرت عن قبوله سابقًا. كان نبيلاً وكريماً لكنه عابس الوجه على الرغم من أن سحنته السمراء تؤكد أصوله البابلية. له شعر كث مصفف بعناية واضحة، لم أكن أتصور بأنه من عائلة بغدادية يهودية ميسورة امتهنت التجارة. كان يكتم ميوله السياسية لكنه يبيح بها للمقربين منه فقط، ولم أكن منهم حينذاك، ولكني بعد العمل معه عرفته وطنياً عراقياً في قلبه وقالبه.

كانت الجريدة أكثر حداثة من جريدة اليقظة فآلاتها الطباعية حديثة وتطبع على "اللاينو" بينما كانت اليقظة تطبع بالطريقة القديمة في صف الحروف المنفردة، كان المحرر الرياضي حميد رشيد خفيف الروح، أبيض الوجه، كثير البشاشة وحسن الهندام لطيف المعشر، يساري النزعة وذا مهنية عالية في مجال عمله ومن الطراز الجدي. وكان للصحيفة رسامها الكاريكاتوري "غازي" الذي برع في اصطياد الأفكار من الأمثال والحكايات والقصص الشعبية ويودعها في لوحات يومية تزين الصفحة الأخيرة من الجريدة وينتظرها عشاقها بشغف وأنا منهم.

زرت "سليم البصون" في مقر جريدة البلاد الذي يقع في أحد ازقة بغداد الشعبية في بيت أُستخدم الطابق الثاني منه لإدارة التحرير بينما احتلت المطبعة طابقه الأول. أعلمني "سليم" بأن الأستاذ رفائيل بطي رحب بفكرة العمل بالجريدة وسألني عما حصل مع اليقظة، فقصصت عليه الواقعة كاملة. وعاد ليقول بأن الأستاذ "رفائيل" سمع بأن اليقظة في ضائقة مالية فعرض عليّ أن أستمر مع اليقظة على أن أشرف على الصفحة الأدبية معهم أيضاً وحين جاء موعد دفع الراتب الشهري دفعه إليّ كاملاً. كانت جريدة البلاد تصدر يومياً ورائجة، فضلاً عن إعلاناتها الجزيلة، وكانت صوت المثقف العراقي من دون أن تبالغ في خط سياسي أو أن تتبنى وجهة نظر معينة. في عام 1957 دُعيت للمشاركة في تحرير مجلة جديدة تصدرها دار الشعب للطباعة التي تُصدر جريدة "الشعب"، والتي يرأس تحريرها الاستاذ يحيى قاسم، والواقعة في محلة السنك. كانت جريدة الشعب من أكثر الصحف حداثة في الطباعة والإخراج. وكان سكرتير تحريرها الصحفي الموهوب والإذاعي المشهور لاحقاً "حافظ القباني". كان يحيى قاسم مثقفاً وأنيقاً وله سكرتير طيب بشوش، يرحب بزواره. وكان يحيى بشوشاً ايضا ومتواضعا، يقدم لهم الشاي بيده على الرغم من أن الساعي يأتي بالشاي إليه. كان يحيى قاسم من الوجوه الصحفية المعروفة،. كان من الشيوعيين العراقين الأوائل وعلمت فيما بعد عند تأليف كتابي عن الحركة الشيوعية العراقية بأنه أول ممثل للعراق في اجتماع المؤتمر الأول للأحزاب الشيوعية العالمية في موسكو عام 1935. كان دمث الأخلاق ومستمعاً جيداً، لا يطلق الكلام جزافاً. يعطيك من وقته الشيء الكثير ممزوجاً بأحترام لكل مايطرح من آراء. يُقال بأنه من حواري نوري السعيد على الصعيد

الشخصي. كان مقر المجلة الجديدة "الأسبوع" في السطح العالي لبناية جريدة الشعب وهناك غرفة واسعة واحدة، تغدو كفرن "الصمون" العراقي في فصل الصيف. يقوم بدر شاكر السياب بمقام سكرتير تحريرها الفعلي على الرغم من أن سكرتير تحريرها الرسمي هو حافظ القباني وذلك لأن بدر شاكر كان من المعارضين غير المرغوب فيهم عند السلطات الأمنية. تخرج بدر من دار المعلمين العالية في أوائل الخمسينات ولم يستطع الحصول على وثيقة حسن السلوك من مديرية التحقيقات الجنائية، وهي في لغة اليوم "مديرية الأمن العامة"، التي على أساسها تكتمل بها شروط التعين في وزارة المعارف. وافق يحيى قاسم على تعيين سميرة عزام القاصة الفلسطينية الشهيرة والأديبة اللامعة وقد فهمت من حافظ و بدر بأن يحيى قاسم قد أنشأ "الأسبوع" خصيصاً لسميرة. وكانت قد عملت مذيعة في إذاعة الشرق الأدنى التي أستهادار الإذاعة البريطانية "BBC"، وكانت تبث من قبرص للعالم العربي. إستقالت "سميرة" من عملها في الإذاعة البريطانية احتجاجاً على العدوان البريطاني على مصر وضحت براتبها المجزي وجاءت الى بغداد طلباً للعيش. أما أنا فقد كنت أحرر ما ينسبه سكرتير التحرير وأشرف على القسم الجامعي والطلابي أيضاً.

كان الشخص الآخر الذي اختاروه مشرفاً على القسم الأدبي تحت إمرة سميرة عزام هو "جميل الجبوري" الذي عمل لسنوات في وزارة الثقافة بعد ذلك. هكذا بدأت رحلة الصحافة مهنياً في حياتي.

في حزيران عام 1958 تخرجت من دار المعلمين العالية التي أصبحت الأن إحدى الكليات التابعة لجامعة بغداد وكان ترتيبي الاول مع مرتبة الشرف عند تخرجي في دورتها الاولى. وزع الملك فيصل الثاني الجوائز على المتفوقين وكنت على رأسهم. ولكني كنت ما أزال أصر على الذهاب إلى أمريكا لدراسة الماجستير والدكتوراه في فرع العلوم السياسية. راسلت بعض الجامعات الأميركية التي ساعدني على اختيارها الأستاذان المرموقان علي الوردي وزكي صالح كما أسلفت. وافقت جامعة أنديانا على انضمامي إليها ومنحتني مساعدة مالية، وأعتقد بأن الموافقة جاءت بناءً على توصية الأستاذين.

إنتهت مرحلة الدراسة وعليّ مواجهة حياة جديدة لا أعتقد أني كنت مرتاحاً لبدايتها... بل كنت خائفاً مما سأقدم عليه. في تلك السنة قررت وزارة الدفاع العراقية استدعاء خريجي الجامعة إلى كلية الإحتياط العسكرية فاستوجب ذلك أن ألتحق بها. قضيت كل شهر حزيران وبدايات تموز أعمل بدوام كامل في كلا الجريدتين. كان الأسبوع الأول والثاني من شهر تموز قائضاً وقد استأجرت غرفة في إحدى الفنادق القريبة من جسر الشهداء بجانب الرصافة أملاً في أن أستمر في العمل حتى يحين موعد الإنتساب إلى كلية الاحتياط أو الذهاب إلى الدراسة في الخارج. بدأ الوالد بأجراءات الحصول على قرض من مصرف الرهون الذي يمنح الموظفين قروضاً كما قامت الوالدة ببيع بعض مصوغاتها لتغطية نفقات سفري للدراسة.

كنت أقضي يومي موزعاً بين المجلة والجريدتين وقبل إقتراب الساعة من العاشرة مساءً، أذهب إلى العشاء في إحدى نوادي موظفي الدولة إذ يسبقني بعض الزملاء والأصدقاء ويبدأون أمسيتهم باحتساء المشروبات الكحولية. وكانت العادة أن يبدأ العشاء بعد جولة الشرب والسهر، ولما لم أكن من المحتسين للخمر، فاني ألتحق بهم وهم على أبواب التحضير للعشاء والمجموعة في غاية النشوة والسعادة.

كانت أمسية 13 تموز من عام 1958 كسابقاتها في روتينها ورتابتها وجوها القائظ. وكنت أشعر وكأني على أعتاب متغيرات في حياتي لا أدري إلى أين سوف تؤدي بي. فقد كان الجو السياسي مكفهراً ودوائر أمن واستخبارات النظام تضيق الخناق على الفعاليات كلها، حتى وإن كانت اجتماعية. وها هو نوري السعيد، هذا السياسي المخضرم، يعود إلى الحكم بشراسة وضراوة، أكثر من ذي قبل. ولا سيما بعد نجاح مباحثات الوحدة بين سوريا ومصر واعلان قيامها في شباط 1958. عدت إلى ملجأي بعد منتصف الليل ولم أستطع النوم بسهولة. وكانت تتناهبني المخاوف ويسيطر عليّ القلق والظاهر أني استسلمت بعدها للنوم.

مقدمات الحركة الوطنية العراقية

لا أريد الخوض في تاريخ الحركات الوطنية في العراق ولا في تفاصيلها، ولكي أضع هذه المذكرات في إطارها الواقعي لابد من ربطها بسياقها التاريخي. كانت الحركة الوطنية مسلسلاً له أصوله ومنابعه ولا يمكن فهم مضامينه إلا في خطوطه العامة وليس بتفاصيله. بعد تأسيس النظام الملكي تحت المظلة البريطانية في ظل نظام استعماري سموه بالانتداب وتنفيذ المعاهدات الغربية السرية قبل الحرب العالمية الأولى وفي اثنائها وانطلاق المقاومة الشرسة التي تتوجت بثورة العشرين. تم الاعلان عن قيام النظام الملكي وتأسيس الدولة الهاشمية في 23 أب عام 1921.

كانت ركيزة إدارتها تتكون من ضباط الدولة العثمانية بوصاية وإشراف الجيش البريطاني. وعلى الرغم من وجود دستور وعلم ومجلس أُمة فإن النظام السياسي هجين وليست له قواعد ثابتة لا في الفكر السياسي ولا في التطبيق الحكومي. وكان الملك فيصل الأول ركيزته الوطنية الذي استطاع في العقد الأول من توليه الحكم أن يدير دفة الدولة.

وعلى الرغم من صعوبة وحراجة الظروف التي مر بها الحاكم والمحكومون، فإن حكمة وشخصية الملك استطاعت أن تمسك بخيوط اللعبة السياسية وتحقق التوازن بين رغبات بريطانيا ومطالب شعبه وبناء دولة ذات كيان، على الأقل من الناحية النظرية. فقد سن دستور عام 1925 عراقياً عربياً. كتبه العالم المصري في القانون الدستوري (عبد الرزاق السنهوري) وعدد من رجال القانون في العراق. كان الدستور، في أسسه المبدئية المكتوبة ونصوصه وأطره النظرية ديموقراطياً مشابهاً للدستور البلجيكي. وعلى الرغم من وجود مآخذ على آلية التطبيق وظروف الممارسة، إلا أنه كان وثيقة دستورية متقدمة لم يستطع أي دستور لاحق مجاراته.

بوفاة الملك فيصل الأول عام 1933 وتسنم العرش ولي عهده غازي بدأت صراعات رجال العهد الجديد تطفو على السطح السياسي والتي عبرت عن نفسها في أول إنقلاب عسكري في العراق والعالم العربي بقيادة وكيل رئيس أركان الجيش

بكر صدقي عام 1936. وتسلم قادة الجيش زمام الحكم ولو بصورة غير مباشرة. إستلمت المجموعات السياسية الليبرالية بعض الوزارات ودوائر الدولة، إلا أن نتائج هذه الحركة سرعان ما انتكست وعادت الأمور الى ما كانت عليه وإلى عودة السيطرة البريطانية بعد اغتيال قائدها وأعوانه.

بعد أقل من ثلاث سنوات توفي الملك غازي في الثالث من نيسان عام 1939 في ظروف غامضة. و منذ ذلك التاريخ تسنم الأمير عبد الاله إبن عم الملك غازي وخال إبنه الرضيع فيصل وصاية العرش. كان معروفاً بعلاقته ببريطانيا وعمل بتواطؤ كامل مع رجال بريطانيا في العراق. شهدت ثلاثينيات القرن الماضي صراعاً بين أعوان بريطانيا من الضباط العراقيين في الجيش العثماني الذين اصبحوا العمود الفقري للدولة الجديدة بمساندة الطبقات غير الواضحة المعالم الصاعدة من الفئات التجارية الوليدة والإقطاعية المشرقية.

وقد ساعد إنتشار التعليم على الرغم من محدوديته واقتصاره على المدن الكبيرة لاسيما بغداد على ظهور حركات - وإن كانت محدودة وبدائية في أصولها - قومية ويسارية وماركسية وحتى شيوعية. أما في الجيش، فقد ظهرت تنظيمات من ضمنها "جمعية الضباط" التي تأسست عام 1934 وأثمرت عن حركة مايس عام 1941 ضد السيطرة البريطانية. وعلى الرغم من المساندة الشعبية للحركة عادت بريطانيا بعد شهر واحد لتحتل العراق عسكرياً وتعيد مقاليد الحكم لرجالها ليستمروا في سيطرتهم لاكثر من عقدا لاحق مما اثارت سخطا شعبيا خلق فجوة بين رجال بريطانيا والنظام بأجمعه وبدأت بوادر التصدع في كيانه. وتوافق هذا مع إنحسار النفوذ الإمبراطوري لبريطانيا في العالم. وبدأت إرهاصات الرفض الشعبي تطفو على سطح الساحة السياسية العراقية. و لكبح التذمر الشعبي و ربما أيضاً كَرد لتنامي نفوذ البعض من رجال بريطانيا الحاكمين في بغداد و ظهور بعض الشخصيات ضمن الطبقة الحاكمة تدعو الى بعض الإصلاحات الترقيعية مثل إطلاق بعض الحريات العامة. وكانت وزارة توفيق السويدي التي شكلت في شباط عام 1946 بداية لهذا الطريق. والمعروف عن السويدي أنه من أوائل المثقفين العراقيين الذين تدربوا في فرنسا وينحدر من عائلة بغدادية عريقة. و تسلم بعد عودته العديد من المناصب

القانونية والإدارية. وتولى فضلاً عن منصب رئيس الوزراء وزارة الخارجية وكالة وعهد وزارة الداخلية - المهمة في الشأن الوطني - الى سعد صالح الشخصية المعروفة بنزاهتها وصلابة موقفها التقدمي. وعلى الرغم من أن هذه الوزارة لم تدم لأكثر من ثلاثة أشهر إلا انها أطلقت حرية التعبير وأتاحت الفرصة على الرغم من محدوديتها للتنظيمات السرية بالعمل.

فبعد وصول السويدي إلى دفة الحكم بثلاثة أسابيع أجاز رسمياً خمسة أحزاب سياسية وهي: الأستقلال برئاسة محمد مهدي كبة ممثلاً للفصيل القومي المعتدل، وحزب الأحرار الذي يرأسه رئيس الوزراء ممثلاً للطبقة الحاكمة المتنورة بينما سمح للأحزاب اليسارية كالحزب الوطني الديمقراطي برئاسة كامل الجادرجي من المجموعة التقدمية الإشتراكية المستقلة بالعمل. ضمَ الحزب الوطني الديمقراطي الكثير من المثقفين والطبقات الصاعدة التي كانت تؤمن بمبادئ الإشتراكيه الفابية، وبنت رصيداً شعبياً منذ ثلاثينيات القرن العشرين بإسم مجموعة الأهالي كما اجاز الرئيس الجديد "حزب الإتحاد الوطني" برئاسة المثقف والإشتراكي الميول - على الرغم من إستقلاليته - عبد الفتاح إبراهيم الذي اكتسب احترام الفئات المثقفة التي لم تتقبل الأفكار الماركسية علناً وإن تعاطفت معها فكرياً. كما أجازت وزارة السويدي حزب "الشعب" برئاسة عزيز شريف الذي أقترن إسمه بقربه من الحزب الشيوعي العراقي ويرى البعض أنه كان واجهة له، وقد ضمَ الكثير من الشخصيات التي تبنت نوعاً من الماركسية على الرغم من أنها كانت غير واضحة الإيدولوجية وكان لكل من تلك الأحزاب صحفها اليومية. فصحيفة لواء الإستقلال مثلت حزب الإستقلال بينما كانت صحيفة "صوت الأحرار" ناطقة بإسم حزب رئيس الوزراء. أصدر الحزب الوطني الديمقراطي صحيفة "صوت الأهالي" كما اعتمد الإتحاد الوطني جريدة "السياسة"، وأنشأ حزب الشعب جريدة "الوطن". لم يمضِ عام واحد على ترخيص هذه الأحزاب الخمسة حتى ألغت الحكومة إجازة حزبي الإتحاد الوطني والشعب. كما أوقف حزب الاحرار نشاطه بعد أقل من عامين على تأسيسه واختفى نهائياً من الساحة السياسية. شجع هذا المناخ الديمقراطي الحزب الشيوعي العراقي المحظور على الظهور بشكل شبه علني على الساحة العراقية من خلال تقديم طلب رسمي لتأسيس "حزب التحرر الوطني" كغطاء قانوني لفعالياته العلنية. وعلى الرغم

من عدم منح الحزب إجازة رسمية إلا أنه بدأ بالظهور العلني!!.

أدى هذا الانفراج إلى تعبئة جماهيرية ونشاط ملحوظ لاسيما بين الطبقات الصاعدة من المثقفين وموظفي الحكومة وطلاب المدارس الثانوية والكليات، عبرت عن نفسها برفض القيادات التقليدية وبتحدي الطبقات الحاكمة. مما دفع الأحزاب المرخصة بكل إيدولوجياتها الى المطالبة والإصرار على الإصلاح الإجتماعي والإقتصادي، وخصص حزب الإستقلال القومي المتآلف مع الحزب الوطني الديمقراطي جزءاً كبيراً من برنامجهما لحل مشاكل الإقطاع وتوزيع الدخل والإهتمام بالمشاكل الإجتماعية الآنية لكنهما أختلفا فقط في عدائية حزب الأستقلال للتوجه اليساري، بينما كان الوطني الديمقراطي أكثر إنفتاحاً على اليسار وجرى بينهما تنسيق للتعامل مع الحزب الشيوعي العراقي، وإن كان حزب الإستقلال أقل حماساً لذلك. ساهم هذا الوضع بخلق ثقافة سياسية جماهيرية لم يشهدها البلد من قبل. كان النقد والرفض العام للنفوذ البريطاني في العراق أحد أبرز المشاهد السياسية المطالبة بثورة إصلاحية في مرافق الحياة السياسية والإجتماعية وأسسها الإقتصادية. ناهيك عن العلاقات الدوليه والإصرار على تغيير عام في قيادات الدولة التقليدية، مما أدى الى ردود فعل سلبية ازاءها لدى الطبقات الحاكمة.

بادرت القوى المحافظة بمحاربة وزارة السويدي في الوسائل المتوفرة كلها وانتهزت فرصة تقديم الوزارة ميزانيتها التي اعتاد مجلس الأعيان إعتمادها من دون مناقشة أو اعتراض في الوزارات السابقة، وأصرت على رفض تشريع قانون ميزانيتها المؤقتة. مما اضطر الحكومة الى الإستقالة، وبذلك أجهضت أول محاولة لتجربة ديمقراطية في تاريخ العراق الملكي. ثم تلتها حكومة أرشد العمري السياسي التقليدي المخضرم، وبدأ عهده بالتضييق على الحريات ولا سيما الصحفية. ففي الشهر الاول من عمل حكومته عطل ست صحف معارضة بضمنها صحافة الأحزاب اليسارية وبدأ في إعادة ترتيب الأمور السياسية إلى سابق عهدها. وفي أقل من ستة أشهر لتوليه الوزارة بدأت بوادر الرفض الشعبي لسياسة حكومته القمعية.

إزدادت المظاهرات الإحتجاجية وعاد ممثل الرجعية العجوز نوري السعيد للحكم الذي مهد - في أقل من أربعة أشهر - لعودة الهيمنة البريطانية للعراق فتشكلت وزارة

برئاسة بيروقراطي غير معروف يدعى "صالح جبر" ليقوم بما أراده منه نوري السعيد. وفي غضون الاشهر الستة التالية لتوليه الحكم حاول صالح جبر فرض معاهده جديدة بين العراق وبريطانيا لتحل محل معاهدة عام 1930 التي حان وقت تجديدها، ورأت فيها الأحزاب السياسية والطبقات الواعية إجحافا بحق إستقلال العراق وسيادته. وحاولت الحكومة إبرامها من دون استشارة الهيأت الوطنية والأحزاب، فاندلعت المظاهرات الشعبية احتجاجا على ما سمي بمعاهدة "بورتسموث" والتي عدتها الأحزاب الوطنية محاولة لعودة بريطانيا لحكم العراق من النافذة بعد أن كانت في معاهدة عام 1930 قد دخلته من الباب، أي أن هذه المعاهدة هي قناع جديد لاحتلال العراق تحت عنوان "معاهدة بين دولتين مستقلتين"!!.

هبت الجماهير بقيادة القوى الوطنية العراقية ضد المعاهدة وكانت تلك أولى علامات الحراك الشعبي المنظم الذي حشدت فيه الأحزاب كلها قواها لمجابهة النظام علناً. وقد لعب الحزب الشيوعي دوراً فعالاً – على الرغم من أنه لم يكن مجازاً رسمياً – في رص صفوف المعارضة وتوحيد قواها في الحراك الشعبي الذي أطلق عليه "وثبة كانون" عام 1948 وأجبرت الحكومة على الإستقالة وعدم تمرير تلك المعاهدة في البرلمان العراقي.

وهكذا جاءت حكومة تهدئة وطنية جديدة برئاسة رجل معروف بطيبته وماضيه الوطني ودوره في ثورة العشرين على الرغم من مهادنته نوري السعيد والعمل معه في اكثر من مجال سياسي. جاءت وزارة الشيخ "محمد الصدر" لتسيير أعمال البلد حتى يهدأ المد الشعبي.

كانت نهاية الاربعينيات من القرن الماضي مشحونة بالكثير من الهياج الشعبي الوطني والتحرري في البلاد العربية تجلت في الصحف الوطنية ونشرات الأحزاب السرية التي دعت الجماهير الى التضامن مع إشقائهم في سوريا ولبنان ومصر، لاسيما التعبئة العامة للجماهير في تأييد الشعب الفلسطيني ضد الحركة الصهيونية العالمية والتي كانت بريطانيا ربيبتها الأولى وإنتهت بولادة إسرائيل الحديثة على الرغم من مشاركة الحكومة العراقية بزج الجيش في معركة ما يسمى "تحرير فلسطين" التي كانت في حقيقتها محاولة تضليلية انتهت بفشل الجيش العراقي وعودته مكسوراً مع نضرائه

من الجيوش العربية الستة التي كونت النواة الرئيسية في التغييرات التي قادها الجيش في بقية البلدان العربية في السنوات اللاحقة.

ظهرت نتائج نجاح الصهيونية وحلفائها البريطانيين وأقرانهم الأمريكان والدول الغربية في إعلان ولادة دولة إسرائيل عام 1948، وبهذا كتبت وثيقة فشل العرب وحكوماتهم رسمياً. فاتسعت الفجوة بين الجماهير والطبقات الصاعدة، من جهة، والطبقة السياسية الحاكمة من جهة اخرى، مما دفع الاخيرة لمعالجة الغضب الجماهيري بالنار والحديد وهو ما عزز الحراك الشعبي وتصاعد نفوذ الحزب الشيوعي العراقي.

عاد نوري السعيد إلى الحكم في كانون الثاني عام 1949 ليعيد سيطرة الطبقات التقليدية الحاكمة. وبدأ عهده بإعدام أربعة من قادة الحزب الشيوعي في الشهر الثاني لتوليه الوزارة التي لم تصمد لأكثر من عام واحد. مما حدا به وبطاقم القيادات التقليدية الاخرى الى تنظيم صفوفهم بأحزاب سياسية. فأسس نوري السعيد حزب الإتحاد الدستوري الذي انضوت تحت لوائه الطبقات الأرستقراطية والعسكرية ورجال الأعمال الصاعدين والمخلصين له من شيوخ العشائر. وشجع الامير عبد الاله زميل نوري السعيد البيروقراطي وصنوه السياسي "صالح جبر" على خلق حزب الأمة الإشتراكي الذي مثل - أيضاً- مصالح الإقطاع والعشائر لاسيما في الجنوب والفرات الاوسط لمنافسة نوري السعيد ولتقليص هيمنته على المسرح السياسي. فكلاهما يمثلان النفوذ البريطاني في العراق ويعبران عن الطبقات التقليدية الحاكمة، في سياساتهما الإجتماعية والخارجية. وبعد عامين سمحا لزميل سياسي لهما كان قد اختفى عن المسرح السياسي في أوائل الاربعينيات وهو العميد طه الهاشمي المعروف بنزاهته ووطنيته بتشكيل حزب الجبهة الشعبية الذي ضم العديد من القيادات اللامنتمية حزبياً لكنها تؤمن بالإصلاح والعدل الإجتماعي مع رفض إصرار القيادات الحاكمة في التصدي لغضب جماهيرها.

كانت بغداد تموج بالنشاط السياسي لقوى المعارضة الوطنية التي بدأت بتنظم نفسها على أسس جديدة إستعداداً لمواجهة قادمة مع كهول القوى الحاكمة. وقد إنتهت المواجهة بعودة نوري السعيد للمرة الحادية عشرة إلى الوزارة في 16 ايلول عام 1950 بعد حكومتين في أقل من عام واحد وسيطرته على الوضع في العراق

والحكم بقبضة من حديد، مما زاد في صعوبة الوضع السياسي وتحدي احزاب المعارضة الثلاثة: الوطني الديمقراطي والإستقلال والجبهة الشعبية، التي بدأت تؤكد وجودها في الشارع وتنادي بضرورة إجراء إصلاحات عاجلة واطلاق الحريات العامة.

إشتدت المعارضة وساندتها المظاهرات الشعبية التي كان عمادها طلاب وطالبات المعاهد العليا والكليات. وفي تشرين الثاني 1952 حصل إضراب عام مسنود بمظاهرات شعبية في انحاء العراق كله نتج عنه الإصطدام مع الشرطة وأدى إلى وقوع خسائر في الارواح وتدخل الجيش وانتشر في معظم مناطق العاصمة وانتهت الإنتفاضة العارمة برفض معظم الساسة التقليديين تسنم الحكم، مما حدا بالوصي على العرش بتكليف رئيس أركان الجيش نورالدين محمود برئاسة الوزارة. حل رئيس الوزراء الجديد الأحزاب الثلاثة وأعلن الأحكام العرفية للسيطرة على الوضع العام. فكانت تلك بداية صراع علني بين الطبقات الحاكمة والجماهير الشعبية وقياداتها الواعية ذات التفكير الحديث الرامية إلى التغيير. وقامت الحكومة العسكرية بإجراء انتخابات مجلس النواب الجديد في 17 كانون الثاني 1953. وعلى الرغم من أن الأحزاب السياسية كانت منحلة، فقد اجرت الإنتخابات تحت ظل الأحكام العرفية، فإن حزب نوري السعيد حصل على 77 مقعداً بينما حصلت جماعة صالح جبر على 8 مقاعد وحصلت الجبهة الشعبية على 11 مقعداً. كانت الإنتخابات واضحة الزيف وظهر جلياً التدخل المباشر للحكومة فيها. فقد فاز 80 عضواً من أصل 138 نائباً بالتزكية. وبهذا عاد نوري السعيد إلى الحكم بطريقة دستورية وكان الجميع يعلم أن الدستور والانتخابات النابعة منه ليست إلا شكلية في المضمون والنتائج. وانتهت مهمة الوزارة العسكرية بعد أقل من ثلاثة اشهر مع استمرار الهياج الشعبي لاسيما بين طلبة المعاهد العليا. وعلى الرغم من تسنم حكومة مدنية سدة الحكم إلا أنها أعادت الحكم الى الطاقم القديم في وزارة ضمت نوري السعيد مع عدد من رؤساء الوزارات السابقين[1].

وفي الثاني من أيار من عام 1953 تسنم العرش فيصل الثاني وكان هناك تفاؤل

---

(1) جريدة الزمان البغدادية 18/ 19 كانون الثاني 1953.

وأمل نتيجة تعاطف الجماهير مع الملك اليتيم الذي اغتالت بريطانيا اباه الوطني غازي على وفق الشائعات التي أشارت إلى تورط بريطانيا وحلفائها بحادث السيارة الذي أودى بحياة الملك غازي وهو في مقتبل العمر. قامت هذه الوزارة بإعلان برنامج عملها الذي تضمن معالجة المشاكل العامة وعلى رأسها الإصلاح الإجتماعي فضلاً عن الوعد بإلغاء الأحكام العرفية والعودة إلى الحياة السياسية الطبيعية. ذلك كله لم يغير من طبيعة السلطة وسلوكها، بل استمرت تبعية البلد لبريطانيا وازداد التنكيل بالقوى الوطنية مما دفعها الى تنظيم نفسها بعد أن حلت الجبهة الشعبية نفسها في بداية 1953، فقامت بتوحيد جهودها في هيئة تنسيق شاملة لكل القوى الشعبية وعلى رأسها الأحزاب التقدمية اليسارية المنحلة والوطنية المتمثلة بالحزب الوطني الديمقراطي وحزب الإستقلال، كذلك منظمات النساء والشبيبة وأنصار السلام التي كانت واجهات للحزب الشيوعي العراقي وسميت "بالجبهة الوطنية الموحدة" معلنة منهاجها الإنتخابي لدورة المجلس النيابي في 12 أيار 1954 وحددت فيه مطالبها الوطنية وأهدافها السياسية وعلى رأسها إطلاق حريات التنظيم السياسي والنقابي واجراء إصلاحات جذرية ورفض معاهدة 1930 مع بريطانيا والإصرار على نبذ الأحلاف العسكرية كلها والمساعدات الامريكية مع التأييد الكامل لحركات التحرر العربية. وفي نفس العام تشكلت النواة الاولى لتنظيم الضباط الاحرار الذي تمخض عنه انقلابا عسكريا بعد اربعة سنوات تقريبا.

أسفرت نتائج الإنتخابات التي صاحبها التدخل الحكومي المباشر فوز احد عشر نائباً من أصل سبعة وثلاثين مرشحاً عن الجبهة الوطنية الموحدة. وكان من النتائج المهمة لهذه الانتخابات عودة نوري لرئاسة الحكومة نتيجة فوز حزبه بأغلبية ساحقة.[1] [2]

قررت الوزارة الجديدة بعد يوم واحد من افتتاح البرلمان حله وإجراء انتخابات سبقتها حملة تنكيل لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق الملكي مع ضرب القوى الوطنية كلها والتضييق على الحريات العامة فضلاً عن وضوح برنامج جديد لربط العراق مع

(1) صالح زكي، مقدمة في تاريخ العراق المعاصر مطبعة الرابطة، بغداد 1954 ص 132-133.

(2) فاضل حسين، تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي 1946-1958 مطبعة الشعب، بغداد ص 350-360.

للعدوان الثلاثي على مصر في نهاية أكتوبر عام 1956 أثره الكبير في توجيه الرأي العام العراقي وتنامي الشعور العام ليتحول إلى مظاهرات عفوية عارمة وحتى صاخبة ليس في بغداد وحدها فحسب وإنما في المدن العراقية كلها من شمالها الى جنوبها. بدأت محاولات لجمع شمل الحركات الوطنية بوثيقة سياسية واحدة وتوحيد الشارع بمنظمة تجمع الأطراف الوطنية كلها وحتى الشخصيات المستقلة لاسيما وإن البطش السعيدي قد استفحل وتنامى، كانت وحدة الشعب العراقي في تحدي النظام واضحة، شكل عمودها الفقري طلاب الكليات والمعاهد العلمية في بغداد. فمنها تتمحور التنظيمات الطلابية وتخرج لتجتذب الجماهير في مظاهرات صاخبة وشعارات واضحة.

كانت التنظيمات اليسارية وعلى رأسها الحزب الشيوعي العراقي قلبها النابض على الرغم من وجود نواة لتنظيمات عراقية - عربية جديدة مثل حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الإشتراكي، إلا أن قيادة الشارع التنظيمي استمرت بيد الحزب الشيوعي. وكان لتطور وسائل الاتصال التكنولوجية ولا سيما "راديو الترانزستر" وتوافره بكثرة وبأسعار مقبولة فضلاً عن الإهتمام الذي أولته القيادة المصرية لوسائل إعلامها ونمو نفوذ محطة "صوت العرب" ورونق برامجها وشعبية معلقها الثوري "احمد سعيد" ساعدت جماهير العراق لاسيما مثقفيه وقيادات الرأي العام من أبنائه الخروج من القوقعة العراقية الى رحاب عالم أكبر ألحقته بركب حركات التحرر في الوطن العربي والعالم الثالث. وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر كان الغليان الشعبي قد بلغ ذروته. وكانت الجماهير معبأة بشكل واضح ضد السياسة السعيدية داخلياً وخارجياً مما زاد في النقمة الشعبية وتلاقي العواطف الجماهيرية في موقفها من العدوان شاملا الفئات الواعية جميعها في مناطق البلد كلها. وكانت الطبقة المتنورة والمثقفة في مقدمة الجماهير تنظم المظاهرات بينما كان طلبة الكليات والمعاهد العليا من أكثر الفئات فعالية وأهمها في مواجهة حملة النظام البوليسية.

على الرغم من أن ردة فعل الجماهير كانت في الأيام الأولى للعدوان عفوية إلا أن وحشية النظام دفعت الفئات الرافضة الى تنظيم نفسها وترتيب أمورها للمواجهة، فتشكلت لجان فئوية في محاولة التصدي للحكومة و أجهزتها القمعية، فكانت هناك لجان للمعلمين والمحامين والنساء والطلبة للتنسيق والتحضير للعمل الجماهيري؟

وكنت أنا في لجنة طلبة الكليات محسوباً على الفئات التقدمية وليس من المنتمين حزبياً على الرغم من أني كنت أصنف نفسي في صف اليسار والقوى التقدمية. وكنت افتخر بأني من الفئات اللامنتمية مع العلم أني كنت مقبولاً من تلك اللجان وأصبحت نشطاً في اللجان الطلابية ومحل ثقة بعض القيادات التقدمية من مجاميع الحزب الوطني الديمقراطي والمنظمات المحسوبة على الحزب الشيوعي العراقي.

في الوقت نفسه دخلت الهيئات التدريسية في الكليات الرئيسية والمعاهد العالية بأساتذتها وطلابها في العمل الجماهيري بصورة علنية لاسيما كليات الحقوق والتجارة والآداب والعلوم ودار المعلمين العالية.

جابهت الحكومة هذا التيار الشعبي ببطش لم يسبق له مثيل. فقامت وزارة الداخلية بقيادة وزيرها الجديد سعيد قزاز بحملة اعتقالات شرسة طالت كل الفئات. وأصدر مجلس الوزراء قراراً بغلق الكليات وأمر وزارة المعارف بفصل الكثير من الهيئات التدريسية، منهم على سبيل المثال، عميد كلية الحقوق الدكتور عبد الرحمن البزاز والدكتور خالد الهاشمي عميد دار المعلمين العالية والدكتور جابر عمر الذي أصبح أول وزير للمعارف في حكومة الجمهورية الأولى بعد الثورة، وإبراهيم كبة أول وزير للإقتصاد في وزارة الثورة، وكان من الناشطين في كلية التجارة مع زميله في كلية الآداب فيصل السامر الذي استوزر أيضاً في الحكومة الثانية لعبد الكريم قاسم، فضلاً عن طلعت علي الشيباني الذي عين وزيراً للإعمار في التعديل الثاني لحكومة الثورة. وقد إنتقل الكفاح الشعبي إلى مرحلة أكثر تنظيماً وبدأت بوادر نوع جديد من التنسيق والتخطيط بين الفئات المعارضة كلها هي بدايات عمل سياسي ذي ستراتيجية واضحة بالظهور. وأعلنت الحكومة منع التجوال في اغلب مدن العراق الرئيسية، بضمنها العاصمة بغداد وأعلنت الأحكام العرفية وجرت أعتقالات بدون أي اعتبار للأصول القانونية وامتلأت السجون واستدعي الجيش لمساعدة الشرطة في السيطرة على حركة الجماهير الثائرة. ومما زاد في نقمة الجماهير على الحكومة موقفها من العدوان الثلاثي على مصر ومساندتها المعنوية للعدو. فقد كانت إذاعة بغداد تطلق الأهازيج والأغاني بينما كانت مصر والقاهرة بصورة خاصة تعاني من قصف دول العدوان، وكانت لهجة التشفي التي تطلقها إذاعة بغداد تغذي روح الغضب الجماهيري.

بعد شهور من ذلك بدأ العمل على خلق جبهة وطنية لتعمل وبتخطيط والتزام عاليين لتغيير النظام بطرائق تنظيمية ثورية جديدة. وما أن تم إعلان الجمهورية العربية المتحدة بالوحدة بين سوريا ومصر في شباط عام 1958 حتى بدأت القوى الوطنية العراقية تساند هذه النواة التقدمية. انقسم العالم العربي الى شطرين، أحدهما تقوده الجمهورية العربية المتحدة والذي يمثل الجناح الجماهيري التحرري بينما بدا وكأن العراق أصبح الوجه الآخر المتمثل بقبول السيطرة الاستعمارية. وكرد فعل للحراك العربي التقدمي وتشكيل الجمهورية العربية المتحدة تم الإعلان عن تشكيل الإتحاد الهاشمي بين مملكتي العراق والأردن. وبدأت حرب باردة تدخل المنطقة العربية بقوة إذ قاد العراق المعسكر الغربي ممثلاً بحلف بغداد الذي كان لولبه العراق وعضوية ايران وتركيا بينما أصبحت مصر مساندة للإتحاد السوفياتي وتحت لوائها الجبهة الرافضة للأحلاف الاستعمارية الغربية.

أصبح تقويض احد الطرفين مهماً من اجل السيطرة على المنطقة وباتت سوريا هي بؤرة هذا الصدام. فإن انفصلت سوريا وانفرط عقد الجمهورية العربية المتحدة فإن انضمام لبنان سيكون واقعياً وبذلك سيصبح الإتحاد الهاشمي البنيان المرصوص للحلف الغربي على حدود الإتحاد السوفياتي الجنوبية والذي تلعب فيه تركيا وايران دوراً مهماً، فضلاً عن دخول باكستان مباشرة بحكم عضويتها في حلف جنوب شرق آسيا، كذلك تركيا لأنها عضو في حلف شمال الأطلسي وعضو في حلف بغداد في الوقت نفسه.

منذ ذلك الحين انتقلت حلبة التنافس الدولي للحرب الباردة إلى المنطقة العربية وبدأ النظام الإقليمي في الشرق الأوسط بالزحزحة والتشرذم وأصبحت المنطقة العربية في قلب الحرب الباردة وفي صلبها. في الوقت نفسه بدأت القوى السياسية العراقية الوطنية بالتخطيط الجدي لمنع التدخل الخارجي في شؤونها الداخلية والحد من تعسف السلطة الحاكمة في العراق والوقوف بوجه الطغيان ومواجهة نوري السعيد وأعوانه. وهكذا ولدت جبهة الإتحاد الوطني في 9 اذار عام 1957 وتمخضت عنه اللبنات الأولى من العمل المنسق و ان لم يكن منظماً بالمعنى العام. لكن الجبهة ربطت بين الشعور العام الوطني والعفوي ووجهته وإن كانت غير كاملة السيطرة

على مفاصله كلها وأتاحت لقوى التجديد والرفض جميعها فرصة العمل المشترك في حده الأدنى وأنتجت بذرة التغيير في العام التالي. وشجعت هذه القوى لتقوم بعمل ثوري وإن كان بدائياً لكنه كان عملاً جباراً انهى السيطرة الإستعمارية الغربية لا في العراق فحسب بل و تحداها في المنطقة كلها، واذن بتحريره من قبضة حكام المنطقة الذين رعتهم بريطانيا أولاً ومن ثم الغرب ثانياً بعد بروز الحرب الباردة الدولية. لعل سهولة المخاض في الإتفاق المبدئي لميثاق الجبهة شاهد آخر على نضوج الحركة الجماهيرية وترجمة آمالها دليل واضح على دخول العمل السياسي مرحلة جديدة عنوانه التغيير الشامل. كما بدأت أيضاً أسس تنظيمية من العمل بانتخاب "اللجنة الوطنية العليا" للإشراف على سير الكفاح الشعبي وبدأت اللجنة باجتماعات دورية للتخطيط استراتيجياً. كما دخلت العمل السياسي نخبة جديدة من المثقفين والاكاديميين.

دعت اللجنة العليا ولأول مرة في 29 اذار عام 1957 في بيانها الأول إلغاء النظام الملكي وضرب الإقطاع ورفض النظام السياسي القائم وفضح الإنتخابات المزيفة والحث على مواجهة الطغمة السياسية الحاكمة وطالبت بخروج العراق من حلف بغداد واللحاق بالركب العربي المتحرر. وكان الطاقم القيادي الجديد مكوناً من مجموعة سياسية مثقفة ومنفتحة غذت الحركة الوطنية بأفكار جديدة وسبل حديثة للعمل السياسي. ولم تستغرق كتابة البيان أكثر من يومين بضمنها الموافقة على البنود المعلنة من كل الجهات الحزبية السياسية والشخصيات المستقلة على الرغم من ظهور بعض الخلافات وحتى رفض العديد من المشاركين بعض نصوصه وطالبوا بتعديلات ثانوية فقط - على حد تعبير محرر البيان الأول ابراهيم كبة - لان بعضها غير مألوف في ثوريته في نظر العديد من القيادات الوطنية التقليدية المنضوية تحت لواء الجبهة[1].

إشتملت ردود فعل الطبقة الحاكمة على زيادة البطش و الاستمرار في الإلتزام بحلف بغداد وإعلان الحرب على قوى التحرر العربي المتمثلة بجمهورية مصر. وعلى الرغم من أن هذا التنظيم الجديد مبني على الأسس العامة للجبهة الوطنية الموحدة قبل ثلاث سنوات إلا أن ثوريته وشجاعـــة قادته واتفاقهم على بنود الإعلان وتغلغل التنظيمات السرية لاسيما فـــي الجيش والغليان الشعبي أعطت زخماً جديداً لحركة

(1) مقابلة شخصية مع الدكتور إبراهيم كبة في بغداد بتاريخ 20/ 12/ 1973.

التغيير، هكذا كان صيف 1958 في هذا الجو الخانق من البطش واستكلاب الفئة الحاكمة نشأ خندق واسع بين معظم فئات الشعب وبين الحكومة.

جندت القوى المطالبة بالتغيير فئات الشعب باتجاه الضغط على الفئات الرافضة له والمتمثلة بالطغمة المسيطرة على الدولة وحلفائها. وكانت قوى الإقطاع وحليفتها المؤسسة الدينية بشقيها الطائفيين، الركيزة الأولى للنظام القائم وسنده الدولي. ولما كانت ثورة مصر وتحررها مثالاً للخلاص اتجهت انظار الكثير من قوى التغيير الى المؤسسة العسكرية. ومن ناحية اخرى كانت بعض القيادات المتوسطة في الجيش ترنو للتغير - أيضاً - اما لقناعتها بعدم إمكانية النظام حماية نفسه أو لشعورها بأن النظام لا يعي مطالب الشعب وهو ما أدى الى توجه بعض الشباب من الضباط وحتى المخضرمين منهم الى جبهة التغيير ورفض مؤازرة النظام والإنقلاب عليه، ربما تيمناً بما حصل في مصر أو تقليداً لقيادته.

في هذا الجو الحار استقبلنا صيف 1958 و كان الشباب أكثر حماساً واستعداداً لمجابهة النظام الحاكم لاسيما طلبة الكليات والمعاهد العليا الذي تركز معظمه في بغداد وضواحيها وقد منحهم ذلك الحضور التمثيل الرسمي في قيادة جبهة الإتحاد الوطني وصوتاً في صنع القرار السياسي واعترافاً بدورهم في الحركة الوطنية العراقية.

المناخ السياسي في عراق الخمسينيات

كان صيف 1958 حاراً كالعادة واكثر كآبة مما سبقه، أوهكذا بدا لي، أكثر هماً وأثقل وطأة. لست أدرى هل هذا هو الجو العام أو شعوري الشخصي أو ربما حساسيتي بضغوط الجو السياسي العام. شعرت وكأن كابوساً قد جثم على صدري ولابد من القيام بشيء لتخفيف عبئه عَليَّ.

فبعد التخرج من الجامعة بَدت لي وكأن الطرق كلها مغلقة في وجهي حتى خلتُ أن جبهة الإتحاد الوطني سوف تصل إلى طريقها الطبيعي: إما الإنهزام أمام ضربات النظام أو تنهدم كياناتها تحت وطأة الفرقة السياسية. وجدت نفسي بطيئاً في حضور جلسات الجبهة على الرغم من أني لم أكن في أي مركز فيها، إن لم أقل حتى مركز رمزي كأحد ممثلي الشباب والطلبة، فالقيادات الحزبية لم تأخذ - غالباً - رأينا بجدية. كنت أتوجس خيفة وأنا أرفع بعض الملاحظات ولا أقول اقتراحات أمام أساتذتي الذين هم الآن ممثلون في قياداتها. كان أكثر الناس احتراماً لآرائي هو أستاذنا الكبير إبراهيم كبة سكرتير الجبهة. كان بأبتسامته المعهودة، يمنحني بعض الوقت للتعقيب أو المشاركة في المناقشات. وفي بعض الأحيان يضيف على ما أقول مؤكداً مساندته لما اطرحه حتى وإن كان الباقون لا يجدون فيما أقوله أهمية، بل كان البعض منهم يبدي نوعاً من التسفيه لبعض مداخلاتي.

بعد تخرجي من الجامعة بدأتُ أقضي وقتي كله صباحاً في جريدة اليقظه ومساءً في جريدة الشعب أعمل بجدية ومثابرة. شعر الوالد أن التحقيقات الجنائية "الهيئة المخيفة من دوائر البوليس السري" بدأت بتضييق الخناق عليه فهو ضابط في بوليس الدولة وهو المعيل الرئيس لعائلة تتكون من أكثر من عشرة أفراد. أقنعني أن أترك العيش مع العائلة وأنتقل إلى إحدى الفنادق الحديثة القريبة من أماكن عملي لاسيما وإن بعض أصدقائه في دوائر البوليس أبلغوه بضرورة أن يهيئ العائلة لزيارات محتملة بعد منتصف الليل من لدن التحقيقات الجنائية التي كانت -غالباً- مروعة، لاسيما وإن معظم أخواني وأخواتي كانوا صغاراً، وأن أخي خالد "الذي يصغرني بنحو عام

ونصف" كان قد حكم عليه بالسجن لمدة عام، وقضاء عام بعدها بالأبعاد الى بدرة بعد انتهاء محكوميته في سجن بعقوبة بتهمة الإنتماء إلى الحزب الشيوعي العراقي وحيازته وتوزيعه منشورات حزبية. كان الوالد - رحمه الله - كسير القلب على ما حل بخالد ويؤكد بأن دوري على الطريق. فقرر بمساعدة جدتي الكردية أن يدفعوا إيجار الفندق على أن أغادر البيت وأعود بين فترة وأخرى لغسل وتبديل ملابسي. كما تبرعت جدتي من أمي بأن تؤمن لي مساعدة شهريه تفي بنفقات الطعام. إنتقلت إلى أحد الفنادق الصغيرة والنظيفة والجديدة في صوب الرصافة قريبا من جسر الاحرار الذي كان يعرف بجسر مود - تيمناً باسم فاتح بغداد الإنگليزي في الحرب العالمية الأولى - بينما كان الأهل في منطقة الكرخ. في الوقت نفسه كنت أُمني النفس بالسفر إلى أمريكا لأكمال دراستي العليا، حيث إستطعت الحصول على قبول من جامعه إنديانا العريقة لدراسة العلوم السياسية، لكن سفري يتطلب أولاً إنهاء خدمه الإحتياط العسكرية التي ستستغرق عاما كاملاً.

تخرجت بدرجات عالية من الجامعة وكنت الأول على فرع التاريخ وبدرجة الشرف الأولى. كنت أتشوق وأتذوق وأعشق الدراسة الأكاديمية بصورة عامة لكني كنت مولعاً بفرع جديد. حاولت - ايضا - أن أفقه السياسة وكنت معجباً بشخصيتين علميتين أثناء دراستي هما الدكتور فاضل حسين والدكتور صالح زكي وكلاهما من خريجي العلوم السياسة، الأول من جامعه إنديانا والثاني من جامعه كولومبيا العتيدة. ولعدم وجود فرع دراسي للعلوم السياسية في كليات بغداد في حينها، تم تعيينهم لتدريس التاريخ الحديث في دار المعلمين العالية. كنت معجباً بعلميتهما وثقافتهما والتزامهما، كما كان الدكتور طلعت علي الشيباني المثل الأعلى في تعامله مع الناس وأنا بضمنهم. شجعني على الذهاب والدراسة في جامعه إنديانا التي وصف لي المستوى العلمي لأساتذتها وحياة طلبتها وحرمها وجمال ورونق الجامعة اذ انهى دراسته فيها في بدايه الخمسينيات في قسم الإقتصاد السياسي. شعرت بقربي من تلك الجامعة وشوقي للدراسة فيها. أما كيف تقدمت إلى تلك الجامعة وكيف جرت معاملات التقديم فلها قصة طريفة بحد ذاتها أيضاً.

في الكليـة كنت متميزاً في الفعاليات الرياضية لاسيما في فريـق الكرة الطائرة. كان المسؤول عـن النشـاط الرياضي في الكلية الأسـتاذ حميـد الأعظمي المعروف بحميد وحشي. كان طيباً وذا قلب كبير، يشعر طلابه بعاطفته الأبوية، عكس المدرب الآخر الـذي كان في غايـة الجديـة و منتهى الصرامة "محمود المولى" الـذي كان يعامل الجميع بنوع من المهنية التي هي أقرب إلى الإبتعاد عن تلاميذه على الرغم من طيبته وأسلوبه المهذب. كان حميد مصارعاً مكافحاً قبل أن يذهب إلى أمريكا ويحصل على الماجستير في المصارعـة. في إحدى الأمسيات بعـد انتهاء التدريب ذهبنا إلى نـادي الطلبة في دار المعلمـين العاليـة وكان يحدثني عـن ضرورة زيادة أيام التدريب لأن ذلك سيمنحني حضـوراً اكثر في الحفـل الريـاضي السـنوي وربـما سيسـاعدني في التعيـين في إحدى الكليات كمدرب رياضي لاسـيما وأن درجاتي ممتازة على حد تعبيره. فبحتُ له عما في خاطري ورغبتي في إكمال الدراسـة العليا حال الإنتهاء من الخدمة العسكرية. حدثته بـأني آمـل أن ألتحق بجامعه إنديانا لأني سـمعت عـن هيبتها العلميـة وجمال محيطها. فضحـك وقـال "أوافقـك الـرأي تماماً عـلى وصفك للجامعـة فأنا خريجهـا" وأردف بـأن لديه اسـتمارات التقديـم إلى جامعة إنديانـا. أخذني إلى غرفته في الكلية وسـلمني الإسـتمارات. طُـرت فرحاً بذلك ولم أنم تلك الليلة. كنـت أمام مكتبه في صباح اليوم التالي ومعي الإسـتمارات مع بعض الإستفسارات. كان في غاية الرقة معي وقال بنوع من الفخر بأن أخانا الدكتور الشاعر المعروف عبد الحسن زلزلة قد عاد قبل سنتين من جامعه إنديانا وهو زميل دراسـة وصديق عزيـز ولا يجد مانعاً من تعريفي به وإنه على استعداد لمصاحبتي لزيارته. كان زلزله أستاذاً في كليه التجارة اذ يُدرّس الإقتصاد فيها كذلـك في كليه الآداب. ألححت عليه، بل حتى ضغطـت عليه وأبديت رغبتي للقيام بذلك فوراً إن كان لديه متسـع من الوقت لاسيما وإن كلية التجارة حينئذ كانت قريبة مـن دار المعلمـين العالية ولديه وسـيلة نقل. ركبنا سيارته وبعد أقل مـن عشر دقائق كنـا بمعيـة الدكتور عبد الحسـن!... أجاب بكل رحابة صدر على أسـئلتي كلها وقال لي إن هناك في قسـم العلوم السياسـية أسـاتذة ممتازون وإن أحدهم - ادورد بيورك - كان أسـتاذا في الجامعة الأمريكية في بيروت قبل انتسـابه إلى جامعه إنديانا، وهو مولع بأفكار على الوردي... فإن اسـتطعت الحصول على توصيه من "الوردي" وأخرى من

فاضل حسين سيسهم ذلك في قبولي في القسم، فضلاً عن أن الدكتور فاضل حسين من أحسن تلاميذه وله سمعة علمية ممتازة، وزودني بعنوان طالب عراقي آخر يدرس الدكتوراه إسمه جابر علي عباس وشجعني على مراسلته إن كنت جاداً.

ولما كنت في السنة النهائية فقد كنت وجلاً من التقديم قبل التخرج. إلا أن "عبد الحسن" شجعني على التقديم فوراً، لأن معظم الجامعات تبدأ بقبول استمارات التقديم للدراسات العليا قبل انتهاء المتقدمين من دراساتهم، فيمنحونهم قبولاً مبدئياً على أن يصبح نهائياً بعد أن ينهي المتقدمون دراساتهم الجامعية الأولية لاسيما إذا كان المتقدمون من الطلبة المتفوقين. شكرته هو والأستاذ حميد الأعظمي واستأذنته بلقاء اخر في الأسبوع القادم، فوافق. عُدت إلى الكلية وفي اليوم التالي تحدثت مع أستاذي على الوردي وفاضل حسين فشجعاني وأكدا استعدادهما لتزويدي بالتوصيات العلمية اللازمة في الأسبوع القادم. وبينما كنت أحدثهما دخل الغرفة الأستاذ صالح زكي - رئيس القسم - فغمزه الوردي مداعباً كعادته "تريد تدخل الجنة!"... فأجابه صالح وبلهجته المداعبة "هل تبيع صكوك الغفران!!" فأجابه الوردي باللهجة نفسها "ينعتوني بالكافر وأنت العالم المؤرخ تعترف بأني مفوض بإدخال الناس الجنة؟ هل تريد أن يرجموك؟!". شرح الوردي ما هم بصدده وعلى الفور قال صالح زكي "طارق يأخذ معي درس الشرف وانا أتوسم فيه الخير، وانا على استعداد لكتابة رسالة مؤازرة!". لقد كان ذلك مفاجأة لي، فصالح زكي جاد ومهني في معاملاته كلها مع الطلاب حتى مع زملائه. ما إن انقضى الأسبوع إلا وسلمني الجميع توصياتهم مطبوعة على الورق الرسمي لأقسامهم ومعنونه بطريقة أصولية إلى الجهات المعنية بالجامعة، ويعود الفضل في ذلك إلى الدكتور صالح زكي الذي جلس مع الجميع وكأنه في اجتماع مجلس القسم وكتب العنوان على اللوحة التي في غرفة الأساتذة!! حثهم وبطريقته الجدية المعهودة على تأكيد المضامين العامة ثم الإشارة إلى موضوع التوصية على أن تشتمل على تفاصيل مثل كيف عَرفت طارق وبأية طريقة تعرفت عليه؟ مساهماته العلمية في درسك كطريقة أبداء الراي، حصافه الرأي، تخصصه علمياً، فكره العلمي وأخيراً تبدي فيها رأيك وكيف سيستثمر جهوده مستقبلاً ولماذا؟. ختم حديثه بتأكيد على ترشيح الطالب للدراسة في ذلك القسم وأصر على أن لا تزيد عدد صفحات التوصية عن الصفحه الواحدة. داعبه الوردي

قائلا "هل تعتقد بأن علينا أن نعد الكلمات أيضا".. فأجابه المرحوم صالح زكي "أنت تريدهم يقرأون "جلجلوتيات"، فضحك الجميع. شعرت لأول مرة بأن أستاذتي هم أناس طيبون يهتمون بنا ويعاملوننا بلطف لا كما يتصرف البعض منهم بأنفة، لاسيما من تسلم منهم منصباً إدارياً. كانت تلك الإلتفاتات بصمات رئيسية في علاقاتي مع تلاميذي في حياتي العلمية كلها ولهؤلاء العظماء الفضل كله في رسم شخصيتي الأكاديمية التي أضاءت طريق حياتي بعد ان تركت العراق وانخرطت في الحياة الجامعية.

أكد صالح زكي أن لا أرى محتواها وسلمها لكاتب القسم طالباً ختم كل توصية بختم وإعطائها رقماً صادراً على أن ياتي الكاتب بوصل البريد المسجل وأكد ضرورة إعلام مسؤول البريد أن ترسل تلك الرسائل بالبريد الجوي المستعجل. كنت أعيش وانا أُمني النفس بحلم القبول في جامعه مرموقة. بدأت بجمع الوثائق لأطروحة الماجستير والدكتوراه عن الأحزاب السياسية في العراق!!. وفي الوقت نفسه بدأ الوالد ببيع ما لديه من أملاك وتصفية بعض ما لديه من ديون تحضيراً لإثبات قدرته المالية على إعانتي. كما أن السفارة الأمريكية كانت في ذلك الوقت تطلب توثيقاً لكل ذلك قبل البدء بمعاملات منح سمة الدخول "الفيزا" وكانت مديرية البعثات في وزارة المعارف تصر على استكمال تلك الترتيبات قبل بدء التقديم للحصول على سمة الدخول لأمريكا. كانت البيروقراطية في دائرة البعثات صارمة والتوثيق جدي لدرجة يصعب اللعب أو التحايل عليها فأولى العقبات التي وضعتها دائرة البعثات "لماذا تقدمت لدراسة العلوم السياسية؟.. وإن إعدادك العلمي وتحصيلك هو العلوم الإجتماعية؟؟ لماذا لا تتقدم للبعثات في العام القادم ما دامت درجاتك العلمية تؤهلك لذلك؟ والجامعة ليس لديها هذا التخصص وليست بحاجة إلى ذلك الفرع والعلوم السياسية لم يكن لها قسم علمي في الجامعة وبذلك فلا حاجة إليه ولن يكون لها حصة في البعثات العلمية الآن ولا في المستقبل". خلص أحد الملاحظين إلى نتيجة أن مديرية البعثات لا تشجع على المضي في هذا السبيل حتى وإن كنت أنوي الدراسة على نفقتي الخاصة. عُدت إلى أستاذي الوردي وأنا في غاية الإحباط. وبعد ساعات كان صالح زكي بقامته الطويلة وعينيه الخضراوين الواسعتين وملابسه الأنيقة يحث معاون العميد لشؤون الطلبة "عبد الهادي محبوبة" على ضرورة تثقيف إدارة البعثات، وإتهمها قائلاً

بـأن العلميـة ليس لها أن ترضخ للبيروقراطية. كان "عبد الهادي" محبوباً وذا شـخصية لطيفـة وهادئة ومهادنة لاسيما وأن الموضـوع كان متعلقاً بالتعامل مـع دوائر الدولة. هـدأ معـاون العميد من روع الأكاديمـي الثائر وطلب منه مهلـة لتدبير الأمور، وأكد بأنـه ملتـزم بحل الموضوع وبما يَسره في الغد!! كان ذلـك صباح يوم الخميس، والذي يعنـي الإنتظـار إلى يـوم الأحد لأن الأسـتاذ محبوبة يذهـب مرة كل أسـبوعين لزيارة أهلـه وذويـه في النجف وصادف سـوء حظي ذلك الأسـبوع. وعلى ذكـر عبد الهادي محبوبـة، لا بـد أن أصف الرجل ونبلـه في تعامله معي. فبعد انصراف الأسـتاذ الكبير طلـب مني معاون العميد وبلهجة نجفيـة رقيقة وبحنان أبوي وبلغة تمتزج فيها لهجته النجفيـة ببعـض التأثـيرات المصرية في تركيبة جملـه. كان من خريجي المـدارس الدينية التـي اسـتطاع معادلتها والحصول على بعثة دراسـية حكومية لدراسـة النحو في اللغة العربيـة في جامعـه فؤاد الأول والتي أصبحت في ما بعد جامعة القاهرة. عاصر الثورة المصريـة و إن لم يكـن قد تأثـر بها فكرياً ولا حتـى تعرف عليها، بـل حافظ على تراث وسـلوك أهل الدين في ذلك الوقت. ونحن معـاً رن الهاتف وكان المتحدث معه عبود زلزلة مفتش وزارة المعارف العام في حينه وكانا يعدان للسفر معاً إلى النجف في سيارة "زلزلة". بعد أن أنهى المكالمة وشارف الدوام على الإنتهاء، ختم الحديث بالتأكيد على أن يـترك الموضوع لديـه "وحينما نلتقي يوم الأحد سـيكون الموضوع تحت السـيطرة" عـلى وفـق كلام محبوبة. كانت تلك الأيـام الثلاثة ثقيلة لأنها قـد تنهي حلمي وتقضي على ولعي المهني. وحينما حل موعد لقائنا يوم الأحد، سـألني محبوبة وكانت "أوراقي الجامعيـة" - الملـف الجامعي - أمامه "لماذا لا تحاول التقديم إلى البعثـات العلمية في العـام القـادم فهناك ثلاث أو أربع بعثـات في فرع التربية تؤهلـك درجاتك في العلوم الاجتماعية للتقديم اليها. لماذا العلوم السياسـية التي لا تدرس في الجامعة ولا تريدها وزارة الخارجيـة ولا وزارة المعارف؟ كما إن أجور الدراسـة الجامعية في أمريكا باهظة وتكاليف المعشـية أغلى من أوربـا والبلاد العربية. كان محافظاً جـداً ويتظاهر بمغازلة ومحابـاة علنيـة للنظام في معاملاته كلها مـع الطلبة أو الإدارة. حاولـت أن أفهمه بأني مولـع بهـذا التخصص ولأن أمريـكا هي البلد الوحيـد الذي بـدأت جامعاتها تطوير هـذا العلم وكذلك الجامعات الأوربية. أكدت له بأني أريد دراسـة العلاقات الدولية

بالتحديد وليس العلوم السياسية بصورة عامة، وإن هذا الفرع في بداياته الأولى وإن تلك البدايات ستستثمر في العقد المقبل وأريد أن أبدأ دراستي مع البدايات الأولى لهذا التخصص العلمي. فأنبهر الرجل بما حدثته وقال لي في نهاية الحديث "سنرى ما يمكن عمله في الأسبوع القادم". كان على عجل وأنهى المقابلة ببيت من الشعر على عادة رجال الدين النجفيين قد "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن يا طارق!!". هنا دخل أستاذ آخر من قسم اللغة العربية والذي قادتني الصدفة للإصطدام به حينما حضرت إحدى محاضراته!! فخلتُ أن معاون العميد سوف يتأثر بتقييمات رفيقه وابن مدينته في الدراسة بالقاهرة وزميله في القسم العلمي!!.

كانت الأيام الأربعة التالية من أصعب الأيام ولم أعد إلى زيارة معاون العميد بعد ذلك، ولكنه أصر على مقابلتي. وحينما ذهبت للقائه كان في غاية اللطف وطلب مني الذهاب إلى وزارة المعارف ومقابله صديقه "عبود زلزلة" في مقر الوزارة وحثني على القيام بذلك في أقرب وقت. ذهبت لمقابلة المفتش العام، وكان شخصية طيبة ومهذبة، سمعت الكثير عن مهنيته والتزامه الأكاديمي. أدخلني مدير مكتبه فور وصولي، وإذا به يصرف ضيوفه ويقودني شخصياً إلى دائرة البعثات التي تقع في بناية ثانية قريبة من مقر الوزارة. دخل مباشرةً على مدير البعثات الذي وقف احتراماً للزائر فما كان مني إلا أن استاذنت بالخروج والأنتظار عند الباب الخارجي للوزارة. في اليوم التالي كنت في غرفة مدير البعثات الذي عدَّ مبادرتي في اختيار فرع جديد والإتصال بالجامعات الامريكية العريقة فاتحة جديدة، وأكد وعده بتيسير الإجراءات.

بدأت علاقة احترام متبادلة بيني وبين مدير البعثات الدكتور محمد ناصر استمرت لسنوات طويلة. كان هذا البصري البشرة واللهجة من ملاك دار المعلمين العالية، وقد أظهر إعجابه واحترامه الكامل لعلي الوردي وصالح زكي، لكنه وبطريقة مهذبة ذهب إلى التأكد من صدق المعلومات التي ادليت بها. طلب مني التفاصيل فاستأذنته بأن أفتح محفظتي وعرضت أمامه كل المخاطبات التي أرسلتها إلى الجامعات الأمريكية وبضمنها ملخص البحث الذي أشرف على كتابته صالح زكي، وكان باللغة الإنگليزية، فأطنب في إبداء إعجابه وإطرائه عليه لما سماه بالدقة وعلمية البحث!.

بسطتُ أمامه بعض من رسائلي إلى الجامعات الأميريكية وكتب متبادلة مع الأساتذة، فاندهش بتحضيراتي وأُعجب أكثر برسالة مطولة كنت قد أبرقتها إلى الأستاذ المشهور فـي جامعـــة هارفرد (Stanley Hoffman) والتي قدمت فيها نفسي واقتراحاتي إليـه طالباً إيضاحـات عن الدراسـة في قسـم (Government) وإمكانيـة "التتلمذ" على يديه أو من يرشحه هو لي. إكتشفت بعد ذلك أن الدكتور محمد ناصر قد خدم لسنوات عديدة ملحقاً ثقافياً في واشنطن، وهو الذي لفت نظري إلى وجود عدد من الزمالات الدراسية في مؤسسة فولبرايت التي لا تحدد الفرع بل تمنح فقط أجور السفر إلى الجامعة والعودة منها إلى العراق. تمنى عليَّ أن أنظر اليها بعين الإحترام لا الريبة كما اتضح من نقاشي وإصراري على الإبتعاد عن الوقوع في شرك الحكومات.

إنتهت العقبـة البيروقراطيـة الأولى وتـم فتح "الملف" وجهزني بكتـاب أولي من مديريـة البعثات إلى الملحقية الثقافيـة الأمريكية كخطوة أولى. والخطـوة الثانية كانت زيـارة الملحقية الثقافية الأمريكية في كرادة مريم وكان الملحق طيباً، واعتقد أن خلفيته كانـت علميـة. شرح لي بهدوء وبلغـة متزنة وواضحـة الحياة العلميـة والإجتماعية في أمريـكا وتصنيـف الجامعات الأمريكيـة. لم يذم أيـاً منها بل ذكرها باحـترام يصل الى تبجيل بعض منها. بعد المقدمة المستفيضة أستأذنته بطرح بعض الاسئلة، كان أولها استفسـاري عـن الوقت الـذي رصده لهذه المقابلة فأجاب بابتسامة بإنه سيمنحني الوقت كله للأجابة عما سـأطرحه من أسئلة، فإنه يعلم بأن عليّ أن أقرر طريقة حياتي وأن واجبه هو أن يعبد لي هذا الطريق فأجبته فوراً بأني سأقدر ضغوط الوظيفة. كانت السـاعة قد شـارفت عـلى الحادية عشر والنصـف صباحـاً. فوعدته بـأن لا أتجاوز على وقـت الغداء، لأننـي أعرف بأن الأمريـكان يفضلون السـاعة الثانية عـشرة للطعام، فضحـك، ولم أتوان في طرح الاسئلة عن الحياة والدراسـة في الجامعـات الأمريكية. كنت قد كتبت ملاحظاتي بلغة أنگليزية واضحة في ورقة خاصة أخرجتها من محفظتي الجلدية الأنيقة. ســـألته قبـــل أن تـــدق السـاعة الثانية عشر بدقائق ماالذي علـيّ أن أفعلـه الآن؟ قـــال بأن علـيّ أولاً أن أكمل المعامـلات ونصحني بالتحضير لامتحـان الكفـاءة الانگليزيه (TOFEL) الذي يشرف عليـه المركز الثقافي البريطاني. فتـح درج مكتبه وناولنـي محفظة فيها معلومـات عامة عن المتطلبـات المتوقعة للطلبه

المتقدمين والتعليمات لهذا الغرض. قبل أن أهمَ بالمغادرة فهمت منه إن عمله معي قد انتهى الآن، و ستكون علاقتي من تلك اللحظة مع الدائرة القنصيلة.

وهكذا وفي فصل الخريف من سنتي الرابعة بالكلية بدأت بمراجعة القنصيلة. كانت أولى المتطلبات الإستعداد لخوض امتحان الكفاءة الإنكليزية(TOFEL). وأنهيته بنجاح. وحصلت على الموافقة المبدئية على منحي الفيزا بعد حصولي على القبول النهائي اثر تخرجي من الجامعة بعد سبعة أشهر. وإستقر رأيي على الذهاب إلى إنديانا. وبدأت بمراسلة طالب الدكتوراه في قسم العلوم السياسية بالجامعه جابر علي عباس بناءً على توصية أستاذي حميد الأعظمي وحسن زلزلة. جاءت إجابة الأخ طيب الذكر "جابر" مشجعة وخلال أسبوعين وكان رحمه الله في غاية اللطف ووعدني أن يتابع الموضوع مع مسؤول الدراسات العليا في القسم حال إنهاء المعاملات الرسمية التي تقوم بها لجان علمية من أساتذة القسم بحيادية واستقلالية تامة وحسب معاييرها الواضحة. بدأت جهودي المحمومة في السعي لإنهاء العام الدراسي الحالي والذي أصر الملحق الثقافي على أهمية إتمام أجراءات قبولي وهو الكلام نفسه الذي أكده أسأتذتي ومدير البعثات الدكتور محمد ناصر.

كانت عزيمتي تدفعني الى مضاعفة جهودي بالإتجاه العلمي فضلاً عن الإستمرار في تنظيم حياتي والتزاماتي الصحفية. لم أكن من الذين يهوون اللهو ولا من الذين يترددون على أماكن خارج تلك الدائرتين. كانت سعادة المرحوم والدي بهذه الإتجاه واضحة وفي غاية التشجيع لاسيما وإن الإتجاه إلى العمل الوطني كان يقلقه، وإن إكمال الدراسات العليا سيكون الحل الامثل. كان رحمه الله فخوراً وسعيداً بهذا الاتجاه. وأكد لي مراراً وتكراراً تعهده بتوفير النفقات الكاملة لدراستي على الرغم من أن عدد أفراد عائلته بلغت العشرة. وقياساً على التجربة العائلية فإن عددها قد يصل "الدرزن" في اللهجة البغدادية. لقد كنت ألاحظ الضغط النفسي الذي يعاني منه والدي جراء ما حصل لاخي خالد (الشاعر والصحفي الذي هجر العراق واستوطن بريطانيا منذ 40 عاما).

أقبل عام 1958 وكنت أعمل ليلاً ونهاراً باتجاه الإستعداد لحياة جديدة. كنت موقناً بأني سأواجه الكثير من التحديات لانتقالي إلى عالم أوسع وأقل ضماناً وربما أكثر توتراً

واقل استقراراً. كنت أختلف عن الكثير من زملائي، فلم أكن من هواة التدخين، ولم اذق حتماً طعم الخمر ولم أستمتع بالفعاليات الأخرى. كنت أتتبع ما يكتب في العلوم السياسية بصورة عامة وحقل العلاقات الدولية الجديد بصورة خاصة. كانت المكتبة العربية محدودة جداً في هذا المجال ولهذا ركزت على ما يكتب باللغات الأجنبية. كنت ازور مكتبة "ماكنزي Mackenzie" التي كان يديرها الكردي الطيب والقدير كريم مكنزي وكان "أسماً على مسمى". في الوقت نفسه كنت أجمع الوثائق والمعلومات عن الحركة الوطنية العراقية وعلى رأسها الحركة اليسارية والشيوعية بصورة خاصة. تجمعت عندي الكثير من كنوزها والتي كانت تُعدُّ مستمسكات جرمية يمكن أن تؤدي حيازتها إلى تطبيق المادة (89 أ) من قانون العقوبات البغدادي والذي قد يودعني السجن لسنوات. كنت أجمع تلك الوثائق والمنشورات وأودعها عند أحد الأقارب لأخذها بين الفينة والإخرى لحفظها لاحقاً في بيت جدي لأمي في أربيل. كنت أستقل في الغالب قطار غربي بغداد في عطلة نهاية الأسبوع متحاشياً السفر بالسيارات لاحتمال التفتيش من عملاء التحقيقات الجنائية. وعلى الرغم من احترامي لوطنية الأحزاب اليسارية بصورة عامة والحزب الشيوعي العراقي بصورة خاصة فأني لم أنتسب لإية منظمة أو حزب. كنت أرفض الأحزاب الرجعية بصورة عامة وأمقت الأحزاب التي ترتكز على العرقية أو الأسس الدينية لأنها جميعاً إما مهادنة للنظام أو من حاضنته. كان ولعي بالحركة الشيوعية نابع من محاولات تفهم أسسها الأيدلوجية. كنت أتمنى كتابة أطروحة الماجستير عنها ومن ثم الدكتوراه، إلا أن الحرب الباردة جعلت العمل العلمي والبحث صعبي المنال. وعلى الرغم من أني كتبت لاحقا كتباً عدة عن اليسار العربي بضمنها اليسار الجديد والأحزاب الشيوعية العربية بضمنها الحزب الشيوعي العراقي طبعت باللغة الإنگليزية ونشرت في مطابع جامعية مشهورة ذات سمعة علمية مرموقة، إلا أني لم أحاول الدخول في معمعة السجال باللغة العربية عن أي منها أو حولها. كانت القبلية السياسية أحد أسباب هذا الإحجام حتى أصدرت كتابي:

(The rise and fall of the Iraqi communist party)

بعد خمسين عاماً والذي نشرته جامعة (Cambridge) المعروفة عام 2007. على

الصعيد الإجتماعي وفي نهايه الخمسينيات، كنت ملازماً لحلقات الفكر والأدب التي كانت لها صالوناتها الخاصة والعامة ولها روادها وندماؤها. كنت اقضي مساء الخميس وصباح الجمعة في تلك الحلقات، التقي فيها بقيادات الفكر والادب الضالعة والشابة الصاعدة وكنت أختلف عن الكثير من شبابها من أقراني. كنت أتذوق المقام البغدادي لاسيما أداء مدرسة استأذنا الكبير محمد القبنجي التي كانت تضم الرقيق الطيب المهذب ناظم الغزالي وكذلك المبدع يوسف عمر وزميلهم عبد الرحمن خضر في خان القبانجي في شارع النهر الشهير (الصوره رقم-2). لهذه المدرسة خصوصيتها وروادها والشخصية الأخرى التي لم تكن من هذه المجموعة وإن كانت من مدرستها فهو حسن خيوكة يجيد ببراعه مقام الدشت والصبا وهو أحب المقامات إلى قلبي والتي تهز وجداني. كنت أتابع هذا الفنان على الرغم من أن الجهات المثقفة تتهرب من اللقاء أو الإتصال به لأنه كان يعمل في دائرة التحقيقات الجنائية. ويرى الكثير من أصحابي بأن ذلك يُعد عيباً في الخُلق والوطنية. كنت أنتظر الساعات لملاقاة أصحاب وقراء المقام الذين كانت لهم مفاهيمهم الخاصة في "مقهى البلدية" في منطقة الميدان على حدود محلة نجيب حسن باشا القريبة من مدرسة المأمونية الابتدائية العتيدة. كذلك مقهى "الزهاوي" الذي يقع في شارع الرشيد على رأس الشارع المؤدي لمديرية الشرطة العامة حينذاك. ويكون ألملتقى في بعض الأحيان في مقهى "حسن عجمي" الواقعة في منتصف شارع الرشيد القريب من جامع الحيدرخانة الشهير، والقريبة من مقهى البرلمان ملتقاهم الآخر.

كانت حلقات الأدب تُعقد في أماكن لها ذوقها الخاص وحتى آدابها الإجتماعية وروادها. فإذا تطفل أحد من غير أهل الحلقة، فإنه سيشعر بمقاطعة واضحة وتجاهل مقصود. كانت الحلقات تتمحور حول شخصية أدبية أو فنية وربما أيضاً شخصية سياسية تقدمية. كنت من رواد أدباء مقهى البرازيلية وفنانيها في المنطقة الواقعة في شارع الرشيد بقرب أقدم دور السينما في بغداد (الزوراء) والملاصقة لأقدم مطعم ساندويتش "عمو إلياس" والتي كنا نؤمها حين يصيبنا الملل من أكل "مقهى البرازيلية" او شربها. كان من نواة قياداتها الشاعر المجدد عبد الوهاب البياتي. كان نقطة الإتصال بالنسبة الي صديق العمر الشاعر بلند الحيدري الذي شملني برعايته وعطفه عشرات السنين على الرغم من أن فارق العمر بيننا كان كبيراً وكان الأقرب الى قلبي. وكانت

له الإبتسامة نفسها والكرم نفسه حتى ترك العراق إلى بيروت ومن ثم إلى لندن ليقيم فيها حتى وفاته عام 1998. لا تغيب عنه تلك الإبتسامة والرقة إلا حينما يتحدث عن تجربته اللاإنسانية مع "البعث" وزبانيته بعد انقلاب عام 1963 الدموي فتختفي تلك الإبتسامة ويكفهر الوجه ويظهر الألم في تقاسيم وجهه كلها.



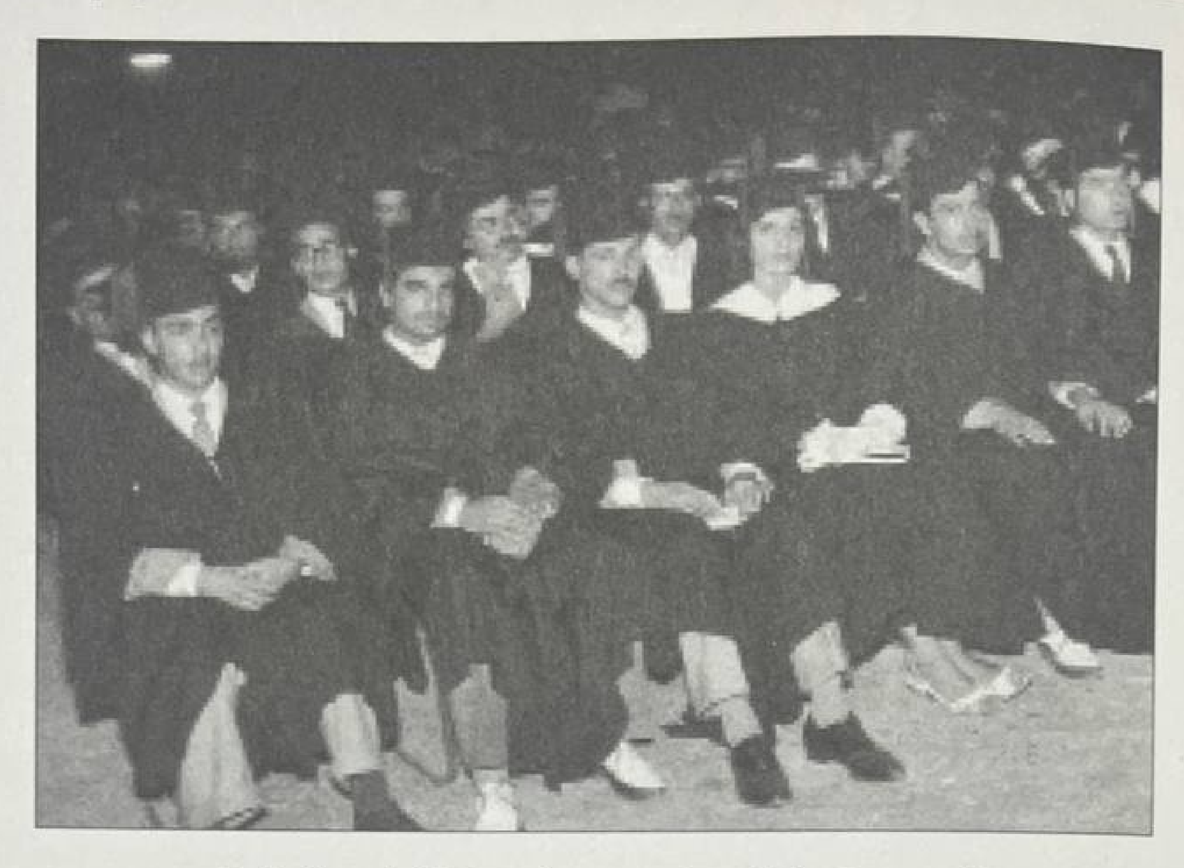
الصورة رقم (2): المؤلف مع محمد القبانجي في خان القبانجي في شارع النهرعام 1958

قدمني إلى الشعراء الشباب في ذلك الوقت بضمنهم الطيب القلب حسين مردان الذي كان يحلُ على بغداد قادماً من بعقوبة بضيافة بلند. وكان من رواد " البرازيلية " فؤاد التكرلي القاص المهذب والشهم. ومن روادها أيضاً أبو الفن العراقي حقي الشبلي وفنان الشعب يوسف العاني والأخ وصديق الغربة إبراهيم جلال. كنت احياناً أزور مطعم "شريف وحداد" حيث كان هذا مكان لقاء الوالد أيضا بزملائه من البغداديين قبل ان يستحوذ عليه العمل الوظيفي. كانت نوادي الهيئات المهنية هي أيضاً الأماكن التي كنت أرتادها بضيافة بعض الأدباء والموظفين من بينهم صديقي الطيب كبير القلب والجسم والإحساس عبد الرحمن الدايني الذي كان يستضيفني في نادي موظفي وزارة المالية. فضلاً عن ذلك كنت أحضر إلى نادي المهندسين بمعية بعض من اعضائه. كان طعامهم لاسيما عشاؤهم شهياً ومطبخهم

حديثاً وطهاتهم ماهرون وأسعارهم مناسبة. كنت أغادر الجريدة متأخراً والنوادي تبقى مفتوحة حتى ساعة متأخرة وأكثرها في منطقة الوزيرية حيث القسم الداخلي، فكانت الأقرب الى مقر إقامتي. هذه النوادي كلها كانت حكراً على الذكور (ما عدا جمعية المهندسين) التي يلجأ إليها "البغداديون" في فصل الصيف حيث الحدائق الغناء. لا أحب أرتيادها في فصل الشتاء لان نوافذها تغلق تجنبا لبرد بغداد القارص ولأن غرفها تمتلئ بالدخان والخليط من روائح المشروبات التي لا أستسيغها. كانت "البرازيلية" مكاني المفضل مساء الخميس في أوله وصباح الجمعة حتى مسائه. كل هذا وانا اقضي وقت الصباح اما في الدوام او الدراسة.. مكرساً ما تبقى من وقتي للتحضير للدراسة في الخارج. كانت ساعات النوم هي الضحية الأولى كذلك عدم انتظام الأكل. بدأت بفقدان الوزن تدريجياً وصاحبه كثرة الاصابة بالزكام. أهملت صحتي وراحتي ولكني على عادة شباب ذلك الوقت لم يوقفني ذلك عن الاعداد والتهيئة للدراسات العليا.

في نهاية العام الدراسي - في حزيران 1958 - وبعد تخرجي وصلني القبول الرسمي من جامعه انديانا وباشرت بمعاملة الفيزا على امل أن أستطيع الحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية التي يخضع لها خريجو الجامعات بعد 1954. وبعد انبثاق الثورة في 14 تموز أي بعد تخرجي من الجامعة بأقل من شهر تلاشت كل خططي واماني. لا انسى ما حييت شعوري وانا انتظر استلام الجوائز باعتباري احد الأوائل. وكانت جائزة الملك فيصل الثاني المقدمة لي قلم باركر 51 (الصورة رقم -3،4) بينما كانت جائزة نوري السعيد رئيس وزراء الاتحاد الهاشمي عشرة دنانير عراقية دفعوها من رواتبهم الشخصية.

شعرت بوجل وخوف من المستقبل. ولا أخفي سراً أن قلت بأني بكيت ولا أدري لماذا أني سوى سأواجه العالم وحيداً ولا أعلم إلى أين سيقودني قدري.. وأي مجهول سينتظرني. وجدت نفسي في طريق جديد، حيث قذفتني الظروف في عالم الثورة صدفة دون تخطيط أو توقع.



الصورة رقم (3): حفل تخرج طلبة دار المعلمين العالية،
حزيران عام 1958



الصورة رقم (4): تكريم الملك فيصل الثاني للطالب الاول
على الدفعة (المؤلف)، جامعة بغداد/دار المعلمين العاليـة،
حزيران عام 1958

الباب الثالث

14 تموز: من الانقلاب إلى الثورة

في خضم ثورة 14 تموز عام 1958

بدأ صباح 14 تموز الباكر كغيره من أيام العقد الخامس من القرن الماضي. كانت الشائعات تملأ زوايا وخلايا السياسة والأدب والمجتمع كلها. فالكل يتوقع أن نوري السعيد يَعد ليبطش من جديد على الرغم من انه ترك رئاسة وزارة العراق ليغدو رئيساً لوزارة الاتحاد العربي الهاشمي الوليد واسناد الوزارة لأحد أخلص مريدية وهوعبد الوهاب مرجان. إلا أنه ما يزال طباخ السياسة العراقية التي تسير الى نهج جديد من العنف وربما المذابح. فرجل السياسة العراقية العجوز عنيد وهذه هي فرصته الجديدة "لتنظيف " البلد مما يعدها بؤراً شيوعية بلباس جديد. فالايدولوجيات التي اكتسحت وسيطرت على عقول الفئات الشابة هي السرطان الذي لابد من استئصاله، حسب رأيه. وكان هناك هياج شعبي ممزوج بالقلق والريبة وتوقعات ببطش مبرمج لاسيما وأن حلف بغداد اصبح واقعاً وغدا نوري السعيد لولبه الرئيس.

وفي يوم الأحد 13 تموز، تركت جريدة اليقظة بعد منتصف الليل بعد أن قضيت معظم صباح ذلك اليوم في إدارة "مجلة الأسبوع" نتداول في التحضير لعددها القادم. كان أكثرنا عبوسا وهلعا سكرتير تحرير المجلة ورئيسنا الفعلي بدر شاكر السياب. كان متشائماً وأكثرنا توقعاً لبطش جديد قد يلفنا جميعاً بعباءته البوليسية. كان يؤمن أيماناً مطلقا بأن الشهور القادمة ستلد حكماً " قبيحاً " كما كان يحلو له أن يصفه.

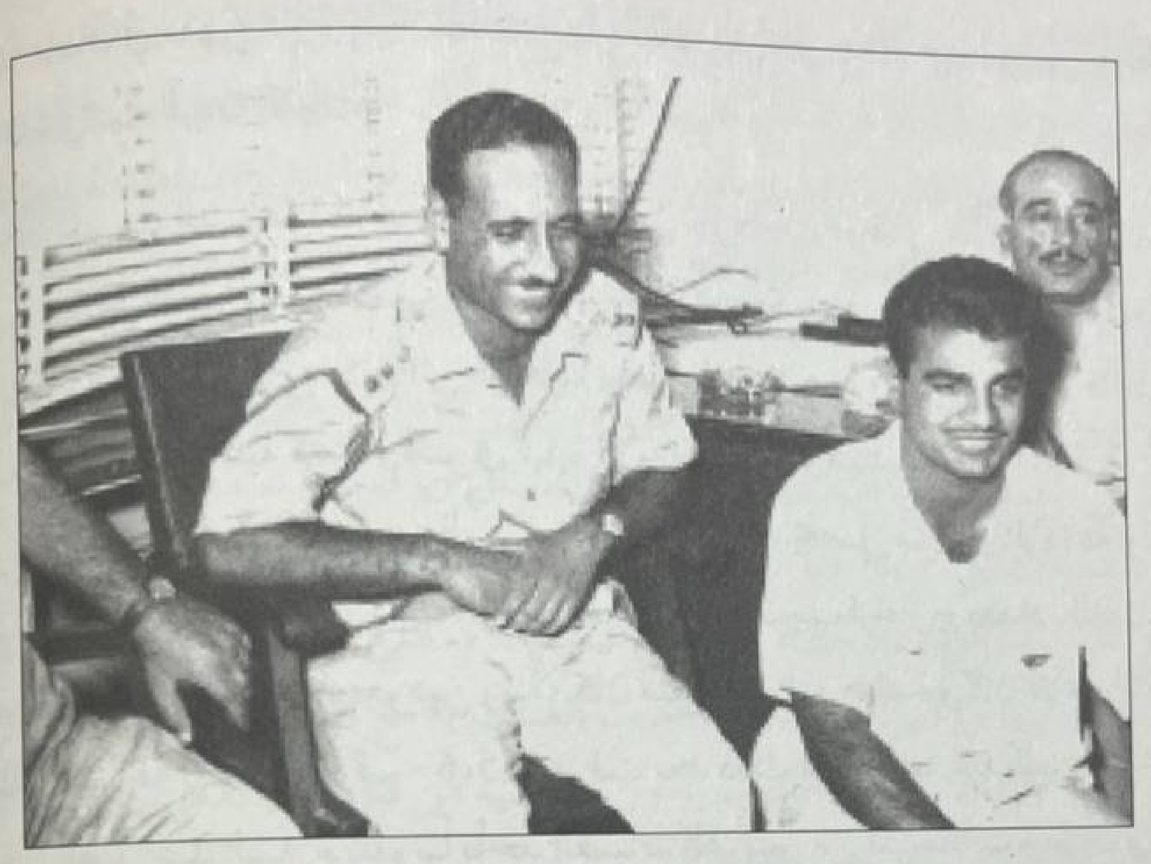
عدت الى غرفتي الكئيبة في فندقي الصغير وأنا في غاية الإرهاق النفسي. كنت جائعاً ولم أحاول حتى إيجاد أي شيئ من الطعام. فألقيت بنفسي على سريري من دون أن أغسل أسناني، فقد كنت كئيباً وتعباً. كان الجو قائضاً ومرعباً وكأن وضع الشاعر بدر النفسي قد انتقل الي بثقله كله، فاستغرقت في نوم عميق ولم أفق إلا على قرع شديد على باب غرفتي. واذا بالطارق هو أحد أصدقائي من الضباط ذوي الرتبة العسكرية الصغيرة، ومن المعجبين بكتاباتي وكان يرى أن قصصي الأدبية تعكس الواقع. كان ذلك الصديق هو "عبد الكريم جاسم" وهو برتبة ملازم أول في أوائل الثلاثينيات من عمره. خلته يريد قضاء ليلة في غرفتي في الفندق التي

كانت تحتوي على سريرين والتي غالبا ما يستغلها الأصدقاء لا سيما الذين يقيمون خارج بغداد وكنت أعرف أن كريم كان منسوباً إلى لواء في منصورية الجبل. دعوته للدخول وبينما كنت أهم بمحاولة تدبير بجامة له فإذا بـه يقول بلهجة فيها خليط من التقريع ونفاد الصبر: گوم البس، شتسوي!". نظرت إلى الساعة وكانت تقارب الرابعة صباحا، ولكن ما الذي جاء به هذه الساعة؟ لم استطع ان اجد تفسيرا لذلك. ارتبكت وبحركة لا ارادية، بعد تبديل ملابسي، تناولت حقيبتي اليدوية التي تحوي لوازمي الصحفية ووضعت فيها فرشاة اسناني ووقفت مشدوها نصف نائم ولا أعرف ماذا أفعل. وبدا عبد الكريم وكأنه لاحظ ذهولي فقال مداعبا: لا تحتاج لأي من هذا.. ولم تغير ملاحظته من حالي شيئا!!. ولكني أعرف ان صديقي لا يضمر لي شرا. نزلت وركبت معه سيارة الجيب العسكرية مع أثنين من الجنود. على الرغم من أني لم اتحدث مع عبد الكريم بأمور سياسية من قبل فأن تذمري وتذمر الكثير من الشباب كان واضحاً في لقاءاتنا.

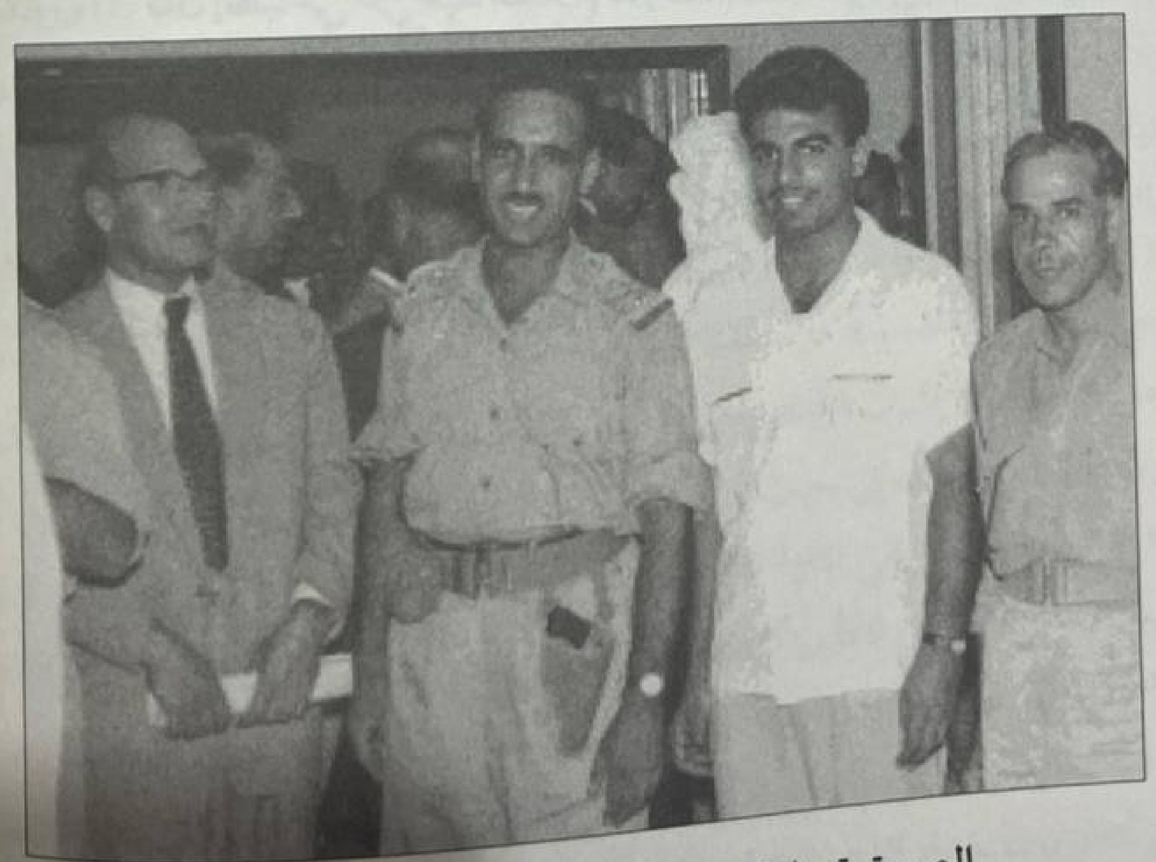
وبدأت أصحو تدريجيا وحينما وصلنا جسر الأحرار وهو الاسم الذي اطلقه "البغداديون" بعد الثورة على جسر - مود (Maude) - حتى استعدت وعيي كاملا ورأيته يعج بالقوات العسكرية بكل تحضيراتها وأسلحتها. وهنا استدار الي عبد الكريم وقال: هذه ثورة يا زعيم!. انتابتني الكثير من الهواجس وخلت اني أعيش كابوسا. لم أعر أهتماما لكريم وهو يحاول تهدئة خواطري. ولم اكن صاغياً له ولا متابعاً وهو مستمر في الحديث. وصلنا الى الصالحية واتجهنا منها إلى دار الإذاعة وعندها ترجل كريم وفتح الباب الخلفي من السيارة العسكرية وهو يضحك قائلا: تفضل يا طارق بيك!!. مشيت إلى حيث أومأ كريم وكانت وجهتي باب الاذاعة الرئيس. تجمع في غرفه رئيس ملاحظي إدارة الإذاعة والتلفزيون القريبة من الباب عدد من الضباط برتب مختلفة، بادروني قائلين كيف نبدأ بتشغيل أدوات البث. لست ادري لماذا اعتقد صاحبي بأني من القادرين على ذلك وبأي طريقة إستدل على قدرتي تلك؟. علمت بعد ذلك بأشهر أن كريم سمع مني مرة عن علاقتي الشخصية بعدنان أحمد راسم أول مدير لتلفزيون بغداد الذي عاد قريباً من أمريكا بعد أن تخصص في (audio-visual) ودرس في جامعه انديانا التي كنت انوي الدراسة فيها. كريم كان حاضراً معي حينما

قابلت عدنان في مقهى البرازيلية. فأستنتج من ذلك بأني على علاقه ببعض من بأمكانه المساعدة في بث البيان الأول.

ما أن اقاربت الساعة الخامسة والنصف حتى جاء أحد موظفي الإذاعة للتحضير لبدايه البث في الساعة السادسة صباحا!. تحدثت معه بلطف واستنجدت بنخوته العراقية والتزامه الوطني. كان الرجل طيباً وبدا بالاستجابة ولكن بحذر.. فالظاهر أن له التزامات عائليه كثيرة وهو في نهاية الأربعينيات وهيئته يعلوها الجدية. كان سلوكه وأجابته ينمان عن نوع من الرهبه، فأفاد بأن البث يحصل من دار الإذاعة ولكن المرسلات التي تنقل البث في ذلك الوقت تقع في (أبو غريب) خارج بغداد. التفت إلى عقيد ركن يبدو انه أعلى الموجودين رتبةً، كان متوتراً ويشع حماسة وكان الأمر الناهي في تلك الساعة (الصورة رقم -5،6). عرفت بعد ذلك أن أسمه عبد السلام محمد عارف. أتصل عبد السلام تلفونياً بأحد الضباط القريبين من المرسلات وما أن وصل المهندس المختص إلا وكان الضابط في انتظاره ومن ذلك الوقت صارت الإذاعة تحت أمرة الثورة!!. كان إنطباعي عن عبد السلام عارف، العقيد الركن بأنه هو محرك الثورة ووجدته أول الأمر طيباً ومتواضعاً وحتى ذكياً بالفطرة وأن لم يكن مصقول القدرة. كان يميل إلى البساطة وعدم التكلف، فنشأت بيننا بعض الألفة وأعطاني وظيفتي الأولى بأن وقع لي العديد من تراخيص الإستثناء من منع التجول في مساء ذلك اليوم بعد سريانه وترك لي حرية اختيار الاسماء.



الصورة رقم (5): المؤلف مع العقيد عبد السلام عارف
في دار الإذاعة يوم 18 تموز عام 1958



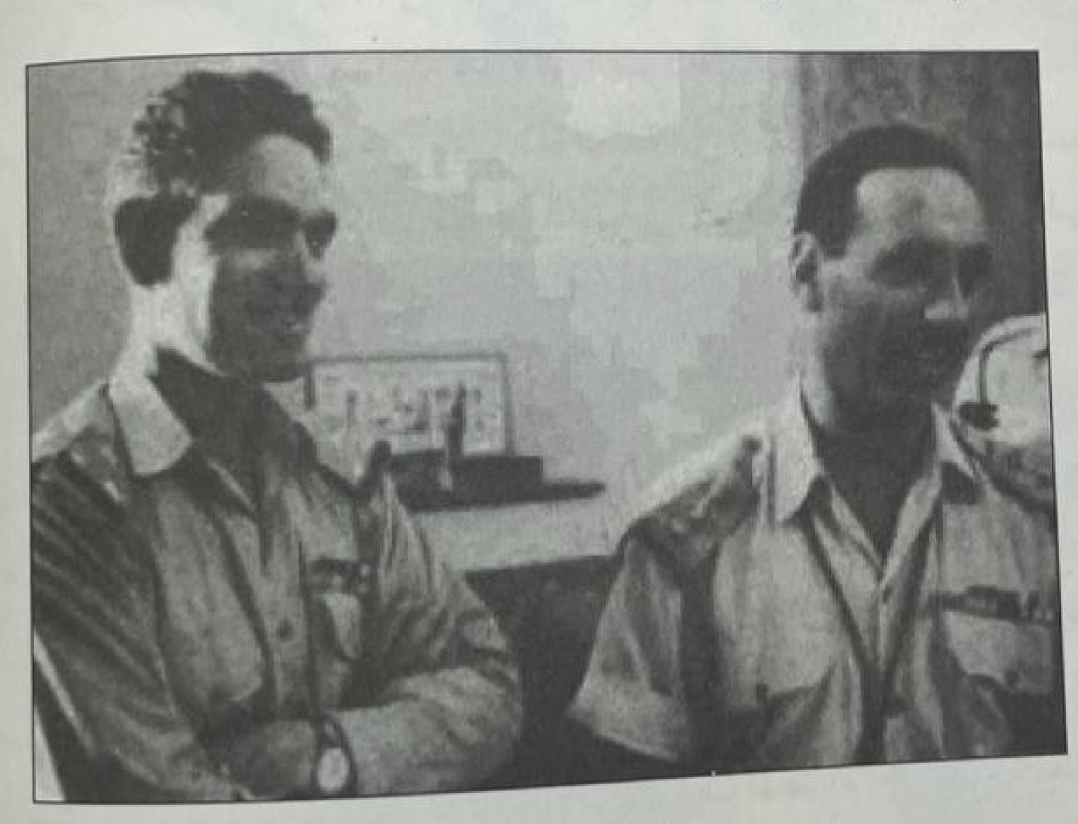
الصورة رقم (6): المؤلف مع العقيد عبد السلام عارف
في دار الإذاعة يوم 18 تموز عام 1958

وجدت نفسي من حيث أدري ولا أدري جزءاً من ماكنة الأنقلاب. أعتقد بأن أسباب ذلك تعود بالدرجة الأولى لثقته ومعرفة بعض شباب ضباط الثورة لي كالملازم كريم نتيجة نشاطاتي الأدبية والصحفية. ومن دون أي موعد مع التاريخ أو التخطيط له أصبحت في معمعة التغير شاهداً على حقيقة جديدة من تأريخ بلدي.

أُذيع البيان الأول للثورة بصوت العقيد الركن عبد السلام عارف. ولا أخفي القارىء سراً أن قلت بأن وقوعي المفاجئ في زحمة الأحداث لم يساعدني على فهمها أو سبر غورها، ولكن جموع الناس التي تجمهرت حول دار الإذاعة والحماس الذي ألهب الجميع وبضمنهم صانعي الأنقلاب شغلت الجميع عما يحدث في الخارج. بحسي الصحفي وعواطفي الهائجة قررت بعد إنتصاف النهار الخروج من الإذاعة لأرى ما يحدث. كان التعاطف واضحاً في كل شبر من المنطقة. مشيت من دار الإذاعة في الصالحية نحو تمثال مود الواقع أمام السفارة البريطانية التي حفت بها ثلة كبيرة من الجنود لحمايتها ثم إلى محلة الشواكه ومنها إلى جسر المأمون. رأيت جثة الوصي عبد الاله معلقة على أحد أعمدة الفنادق الشعبية في الشارع المؤدي اليه. كان ذلك المنظر مهولاً بالنسبة لي. كما هالني ذلك الفوران الجماهيري الذي لن انساه حتى بعد أكثر من خمسين عاماً وأنا أراجع ذاتي وأتساءل؛ هل أن طائفية اليوم وانعدام إنسانيتها هي النتيجة الطبيعية لما بدأ في ذلك اليوم؟.

عُدت إلى دار الإذاعة التي غدت مركز "الانقلاب" وأنا أشعر بأسى ممزوج بالخوف. لأول مرة في حياتي شعرت بأن فقدان الطمأنينة قد يكون ديدن هذا البلد. بينما كنت واقفا دخل " الزعيم عبد الكريم قاسم " وكان وجهه ينم عن القلق والتعب وعلامات الجدية والصرامة مرسومة على هيأته وسلوكه العام. حياه عبد السلام عارف الذي كان لغاية تلك الساعة الوجه المكشوف للنظام الجديد. وتلقف القادم بالأحضان والقُبل ولم يجب وأنا القريب على بعد خطوات سوى بكلمة واحدة: أشكرك. كان بارداً في رد فعله اتجاه عبد السلام وبدا وكأنه شارد الذهن، ربما لهول الحدث أو الخوف مما يخبئه القدر أو ربما هلعاً لأن نوري السعيد ما يزال طليقاً. أو ان ذكريات ما حصل في مايس 1941 ما زالت تراود ذهن هذا الرجل الذي كان يبدو في تلك اللحظات أنه القائد والعقل المدبر للعملية. لم يأبه لوجودي ولم يلتفت

إلي (الصورة رقم - 7). أُعلنت الوزارة الجديدة وأصبح رئيسها الزعيم قاسم والقائد العام للقوات المسلحة فضلاً عن تسنمه وزارة الدفاع. غدا عبد السلام عارف نائباً له ووزيراً للداخلية. كانت قائمة الوزراء الجدد من الوجوه الوطنية المعروفة ومن أساتذة الجامعة للوزارات المهنية كالمعارف التي تسلمها المربي المشهور وأستاذ التربية في دار المعلمين العالية الدكتور جابر عمر ووزارة الاقتصاد التي ترأسها سكرتير جبهة الاتحاد الوطني الدكتور إبراهيم كبه كما اصبحت الشخصية الوطنية الدكتور عبد الجبار الجومرد من أقطاب حزب الجبهة الشعبية وزيراً للخارجية كما أُستوزر محمد صديق شنشل سكرتير عام حزب الاستقلال وترأس وزارة الإرشاد المستحدثة بعد الثورة على غرار ما حصل في ثورة مصر وغدا الاقتصادي المعروف ونائب رئيس الحزب الوطني الديمقراطي محمد حديد وزير المالية الجديد.



الصورة رقم (7): الزعيم عبد الكريم قاسم
والعقيد عبد السلام عارف في الأيام الأولى لثورة 1958

أنيطت وزارة الزراعة بأحد اعضاء الحزب الوطني الديمقراطي المحامي هديب الحاج حمود المعروف بنزاهته ووطنيته على الرغم من انحداره من عائلة "أقطاعية" في منطقة الشامية بالفرات الأوسط. جاءت التشكيلة الوزارية ممثلة الفئات الوطنية

والاتجاهات السياسية كلها وكانت أعمار أعضائها تتراوح بين الخمسينات ونهاية العشرينات، اصغرهم فؤاد الركابي الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي اذ كان في نهاية العشرينيات وأكبرهم بدالي عبد الجبار الجومرد وجابر عمر في نهاية الخمسينات من اعمارهم. الجميع تم استيزارهم لأول مرة عدا محمد حديد وصديق شنشل، جميعهم كانوا أما اكاديميين أو مهنيين مع خبرة طويلة بأستثناء المهندس الشاب فؤاد الركابي الذي عينته الثورة وزيرا للأعمار. لست ادري لماذا وكيف أصبحت قريباً من النظام الجديد الذي تمخض عن حركة الجيش الانقلابية.

فوضني عبد السلام عارف صلاحية إصدار تراخيص الأستثناء من منع التجوال الذي أصبح نافذ المفعول بدءاً من الساعة السادسة من مساء اليوم الأول للثورة. كان الاستثناء يشمل موظفي الإذاعة والتلفزيون ورجال الأعلام والصحافة فقط. قام عبد السلام عارف بتوقيع مجموعة من التراخيص مقدماً وأناط بي مهمة ملء التراخيص على أن أكون على استعداد لبيان أسباب أصدارها. نسب ليّ كاتباً من كادر الإذاعة للمساعدة في هذه المهمة التي أخذتها بجدية تامة وقد اوضحت لكل تصريح أصدرته أسباب المنح في سجل خاص. وفي الحالات التي كنت اتردد في اصدار الترخيص الجأ لأستشارة المسؤول العسكري الذي كان في ذلك الوقت أما الرئيس الأول خليل إبراهيم حسين الزوبعي أو المقدم نعمان ماهر الكنعاني. والظاهر أن عبد السلام عارف عد ذلك عملاً ذكياً كما وصفه لي قائلا بعد أن استجوبني في اليوم التالي.

كانت مجموعة من صحفيٌ العالم العربي والغربي بانتظار مدير الدعاية العام الجديد غربي الحاج احمد وهو من أقطاب حزب الاستقلال ومن مؤيدي وزير الأرشاد الجديد محمد صديق شنشل - معتمد حزبه في الموصل - في طريقة إلى بغداد ليقوم بأول أعماله وهو إيضاح سياسة الثورة ويكون وجها رسميا لصانعي القرار. وبسبب اعيائه وضعف لغته الانكليزية ومحدودية المامه الصحفي فقد أنيطت بي إدارة المؤتمر الصحفي (الصورة رقم - 8) التي تقبلتها برحابة صدر وكنت اعتقد أن ذلك لا يتعدى الترحيب بالزملاء وترتيب مهمات جلوسهم.



الصورة رقم (8): دانا أدم سميث مندوب (Time New York) ومدير الدعاية العام

حصلت المفاجأة عند دخول المدير العام إلى قاعة الاجتماع المكتظة بالصحفين وهمس في اذني طالباً النجدة وكنت قد التقيته صدفه قبل الثورة بثلاثة أسابيع حين زار جريدة اليقظة ووجدتني أجيب على الأسئلة الأجنبية بالإنجليزية حتى تخيل البعض بأني المتحدث الرسمي للنظام الجديد. حضر الزوبعي والكنعاني المؤتمر الصحفي الذي حاولت فيه الإجابة عن أسئلة الصحفيين لاسيما ممثلي الصحافة الغربية والعربية وعلى رأسهم المصرية ناسباً ما أقوله إلى توجيهات المدير العام الجديد الذي كان يعاني من زكام وصداع رهيب - على حد وصفه - وعدم نومه منذ بدأيه الثورة إلى ساعة انعقاد المؤتمر. كان كريماً معي حتى أخذ على عاتقه مسؤولية الخطأ الذي وقعت انا فيه حينما نَسبت إلى الحكومة التزامها في سياستها الخارجية بمبادئ مؤتمر باندونج محاولاً إبعادي عن الاصطدام مع عبد السلام عارف..

ثارت ثائرة عبد السلام حينما قرأ الملخص الذي قدمه له موظف وزارة الخارجية الذي وصل مكتبه لاحقاً لكن الوزير الجديد عبدالجبار الجومرد كان في غاية الكرم اذ شكرني على ما قمت به وهدأ من روع عبد السلام الذي نسي الألفة التي نشأت بيننا بسرعه. ربما لان مظاهر الفخفخة التي أحاطت بمنصبه الجديد منحته صلاحيات

عسكرية جديدة على الرغم من انه الأن بمنصب مدني، فهو لا يزال يرتدي بزته العسكرية. عاد لاحقا ليداعبني ويقول لي بالحرف الواحد: "إحسبها عليّ فأنا عمك".. قالها باللهجة البغدادية أي: لا تكترث فأنا عمك وهذه حقوقي عليك!! والذي فهمته لاحقاً أن الزوبعي والكناني اللذين حضرا المؤتمر أشادا بي لعارف حينما استفسر منهم عن المحتويات الخاصة بمؤتمر باندونج. فقد كان الرجل شكاكاً ولايثق بأحد!!.

بدأ الإعلاميون وبضمنهم موظفو الإذاعة والصحفيين الذين تقاطروا على دار الإذاعة الذي أصبح مركزاً للثورة يلجأون إليّ للأجابه عن أسئلتهم وتلبيه مطالبهم. وبذلك صرت حلقة الوصل بين الصحافة ورجال الحُكم الجدد المشغولين بإدارة الدولة. فرحت لمنحي هذه المهمة التي قمت بها بسعادة وفخر أن لم أقل بنوع من المهارة. وفي يوم 16/ 7/ 1958 عقد مؤتمر صحفي اخر قابلت الصحافة الدولية فيه الزعيم عبد الكريم قاسم لاول مرة كقائد للثورة (الصورة رقم - 9).

في اليوم الرابع ذهب عبد السلام الى البصرة وذهبت معه في الطائرة نفسها وكان برفقته ولي عهد اليمن الأمير البدر الذي وصل الى بغداد ليقدم التهاني للقيادة الجديدة. في أول لقاء مع الجماهير التي إحتشدت في مطار البصرة لتحيته وكان عددها يزيد على



الصورة رقم (9): المؤتمر الصحفي الاول لقائد الثورة يوم 16 تموز عام 1958

العشرين الفاً وفق تقديري. بدأ عبد السلام خطابه بالآية الكريمة ((وأذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)).

كنت أراقب وجه الأمير الذي أوضح عدم ارتياحه. كما اعقبها عبد السلام بجمل جوفاء عن الثورة وختمها بجمل بدائية مثل؛ ماكو ثلاجات بعد، وماكو رجعية. كان برفقتي المسؤول عن التسجيل آنذاك رئيس المذيعين قاسم نعمان السعدي الذي كان يخطب ود رئيسنا الجديد عبد السلام والذي ظن الجميع بأنه المدبر الرئيس للثورة على غرار عبد الناصر ودوره في الثورة المصرية. كان عبد السلام يتصرف على هذا الغرار.

سحبت الشريط وناديت الفني المسؤول وطلبت منه تنقيح الخطاب ليبدو لائقاً لغوياً وحذف بعض ماهو ساذج في محتواه ونتيجة لهذا تأخر بثه. اتصل عبد السلام بأحد كبار الضباط مستفسراً عن سبب عدم إذاعة الخطاب في نشرة الساعة السادسة حال عودتنا لبغداد ولم يكن الضابط على معرفة بالتفاصيل ولم يكن واضحاً من هو المنسب لهذه الوظيفة فقد نسي الكل بان الإذاعة بحاجة إلى مدير أو شخص مسؤول وجاء الزخم باتجاهي على الرغم من أني لست من الطاقم الإذاعي..!!. علم الجميع أن عبد السلام عارف غاضب وعدّوا ذلك مسؤوليتي!! ومسؤوليتي وحدي. ولست ادري لماذا!. أُعيدت دبلجة الشريط وأذيع في مقدمة نشرة أخبار الثامنة كما أردت.

في ظهر اليوم التالي ذهب عبد السلام للصلاة في جامع الأمام الأعظم في الأعظمية وكان بصحبته طاقم الإذاعة وبثت الإذاعة الصلاة بأكملها على الهواء. كنت غير راضٍ عما حدث ولكن من أنا وباي صفة أتدخل.. لهذا أحجمت عن العودة لدار الإذاعة. والظاهر أن الوزير محمد صديق شنشل أراد فهم ما يحصل فأرسل مدير مكتبه للبحث عني والتقينا بعد ساعات - مساء يوم الجمعة -. كنت قد عدت الى مكتبي في "مجلة الأسبوع" لأجمع حوائجي الشخصية بعد سيطرة سعدون حمادي على جريدة الشعب وتغيير اسمها إلى جريدة الجمهورية التي صدرت في 17 تموز. كانت عندي بعض الصور في مكتبي أردت أن احتفظ بها وهي خاصة بأساطين المقام - بعضها منشور في هذا الكتاب -. كان سائق الوزير ومدير مكتبه بإنتظاري وأخذاني شبه مخفور إلى وزارة

الدفاع. كان الوزير في اجتماع مع رئيس الوزراء الجديد الذي تذكرني من مقابله واحدة له في مطعم "شريف وحداد" قبل اكثر من عام حينما سألت رشيد مطلگ صاحب تلك المؤسسة أن كان والدي سيكون معهم قريبا؟! وهنا سأله العسكري ذو الرتبة العالية والجالس انئذ معه من هو والده فأجابه رشيد بضحكته المعهودة قائلاً.. هذا ابن يوسف إسماعيل فرد عليه عبد الكريم قاسم: ماكنت اعرف بأن ليوسف ولد بهذا العمر. علق رشيد قائلاً: لو أنت كنت متزوجاً من بنت الحلال التي نعرفها لكان لك ولد بالعمر نفسه. كان الوالد وعبد الكريم بالعمر نفسه. ضحك عبد الكريم ولكن بوقار وصرفني قائلاً.. ما شاء الله!! ودعتهم بأدب وقتها وانصرفت.

بعد مرور اكثر من ساعتين وقد تجاوزت الساعة العاشرة مساءً، وكنت اضرب أخماسا بأسداس وبينما أنا غارق في تلك الهواجس، أنفتح باب مكتب رئيس الوزراء وخرج محمد صديق شنشل ليناديني ويطلب مني الدخول إلى المكتب. فوجئت ولكني لم أتردد ووجدتني للمرة الثالثة أمام مدبر الثورة وقائدها فقال؛ أقعد أبني! لم أجلس وإنما بقيت متسمراً أمام الكرسي الذي دعاني للجلوس عليه.. وبادرني قائلا: اتذكرك انت عدنان بن يوسف اسماعيل وكانت المفاجأة التي الجمتني فلم اجب ولم اصحح له حتى اسمي!، ماهي حكاية الإذاعة؟ ولم ادرِ بماذا أُجيب؟ وكيف أجيب!! ولاحظ قاسم ترددي وأرتباكي.. وقال لي: ما حكاية المجابهة مع نائب رئيس الوزراء أمس؟ ولماذا خرجت أنت من جامع الامام الأعظم وبعصبية واضحة؟ حاولت تعليل خروجي لأسباب وهمية ولكني عرجت على التفاصيل وما حصل في البصرة في المساء السابق. قلت بكل أدب وبصراحة وإصرار: أن خطبة العقيد كانت طويلة وبحاجة الى مونتاج لاعدادها، وهنا قال الوزير: يا طارق لا يحق لاحد أن يقوم بمراقبه مسؤول كبير في الثورة ويصدر حكماً كهذا فأجبت فوراً وبدون تكلف: استاذي الكريم..أنا لست موظفاً في الاذاعة وعملي تطوعي وللمساعدة فقط.

قاربت الساعة العاشرة. شعرت بالتعب ولكني أستجمعت شجاعتي وبأدب وأحترام عاودت الإجابة على السؤال بعد ان عادت الطمانينة الى نفسي قلت؛ أولا أنا

الـذي طلبت من الموظف الفنـي عمل المونتاج وكان ذلك بإشرافي وانا الذي سمعته مرتـين قبـل الأذن بإذاعتـه وقد طلـب الموظف المختـص توقيعي على الأمـر بالإذاعة وفعلـت مـا طلب. قـال لي الوزير؛ لسـت كما تقول مسـؤولاً في الإذاعـة فيكف تقوم بأمـر مثل هذا وبهذه الحساسية فأجبـت على الفور. هذا صحيح جـداً وأنا أعتذر عن ذلـك ولهذا أنسـحبت مـن الإذاعة في اليوم التالي ولم أعد ولكن هل يسـمح لي السيد الوزير أن اسـأل كيف وبأي سـلطة أنا غير مسـؤول وقد وقعت على أوامر وتصاريح إسـتثناءات منع التجوال والتحـدث للصحافة الدولية!!. تدخل عبـد الكريم وقال؛ مـن أعطـاك هذا التخويـل فأجبت بإصرار انه العقيد عبد السـلام عارف نفسـه، فهو الـذي وافـق على المسـودة التي كتبتها وكتـب عليها عبارة؛ "موافق عـلى الطبع" وأن أسـمه وتوقيعه موجودان على تلك الوثيقة وأنا أقوم لوحدي بأدراج الأسـماء في تلك الوثائـق. وافقني السـيد الوزير على الفور وبدون تردد قال: نعم أنا شـاهد على ذلك. وأضـاف؛ أن المؤتمـر الصحفـي الأول للثـورة كان ناجحا وكان اسـهامك واضحا في ذلـك.. بعد ذلك عرجت على أسـباب خروجـي من جامع الأمـام الأعظم إذ لاحظ البعض إمتعاضي، فقلت موجها كلامي للزعيم قاسـم وللوزير: انا أعرف ان الوضع الطائفي في بلادنا حساس وهذا أمر قد يثير الحساسية الطائفية.

لم اتدخـل ولم أقـل شـيئا فبعـد تجربـة الأمـس قـررت أن أتأنى في تـصرفي تجنبا للمشاكل. لا سيما واني على أبواب سفر لاكمال دراستي وكررت القول: أنا لم أتعد حدودي وانما انسحبت بهدوء ولم أقل شيئا. واذن الزعيم لي بعد ذلك بالأنصراف. وبينـما أنـا في طريقـي مغـادراً وزارة الدفاع التقيـت بوزير الخارجيـة د. عبد الجبار الجومـرد فحييتـه بأحـترام ورد التحيـة بهدوئه المعهـود وصرامتـه الطبيعية وكنت أحترم الرجل وأجله.

وصلـت الى بيـت أهلي وقـد أخذ مني التعـب مأخذاً وبينـما أنا في الطريـق أوقفتني دوريـة عسـكرية وطالبني ضابطها بتصريح الاسـتثناء من منع التجوال، ولسـوء الحظ فإني قد غفلت عن إعطاء نفسي التصريح المنشود!. كان الضابط في غاية الأدب وطلبت

منه مصاحبتي لوزارة الدفاع لإيضاح الموقف. ولما كنت اخشى أن تتعقد الأمور فقد طلبت من الضابط الخفر في الوزارة والذي يعرفني أن يتدبر الأمر ويمنحني الترخيص؛ فأجابني بان هذا ليس من صلاحيته!! وحينما اتصل بمكتب رئيس الوزراء عاد الضابط ضاحكاً وقال أنت ياطارق المسؤول المخول الوحيد الذي يحق له إصدار التصريح المطلوب. وهنا وفي وسط دهشة الجميع فتحت المحفظة التي في يدي وأخرجت تلك التصاريح ووقعته مانحاً نفسي التصريح المطلوب وكانت الدورية بإنتظارنا.

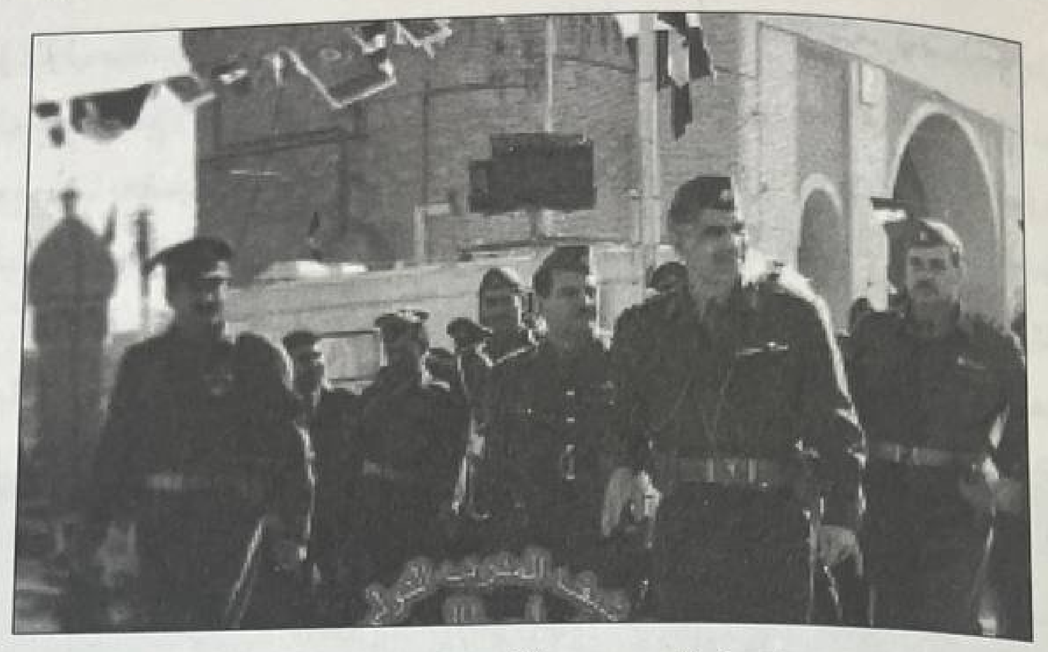
عدتُ إلى بيت إهلي محاطا بكل الحفاوة وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحاً. أصرت الوالدة على أن يدخل الجميع لتناول الشاي ولم أقم بأي من واجبات ضيافة الدورية، بل رميت نفسي على أول سرير لمحته عيناي وغططت في نوم عميق ولم أفق إلا على صوت الأذان لصلاة الظهر والطرقُ على باب الدار وكان بإنتظاري على الباب ضابط وعدد من الجنود يطلبون مني مرافقتهم. بدأت اشعر باني سأكون من الضحايا الأُول لعدم نضوجي السياسي. بينما أنا برفقتهم وانا في طريقي إلى المجهول! اتجهت السيارة نحو وزارة الدفاع، وبعد دخولنا.. طلبوا مني بل قل سلموني بوصل لإدارة الانضباط العسكري!!.

في هذا الجو المشحون والمخيف عشت ساعات رهيبة مخيفة.. ومما هدأ من روعي أن أمر الانضباط العسكري المرحوم العقيد عبد الكريم الجده (الصورة رقم - 10) عندما حياني قال: أننا لم ننساك!! ومطلوب مني أن أتعامل مع عدد كبير من الضباط المعتقلين وقال؛ ما رأيك أن تأتي عندي لتناول طعام العشاء!. عرجت إلى مكتبه وأنا بغايه الفرح الذي ظهر على ملامحي بوضوح، فقد أعادت التفاتته هذه إلي الثقة بنفسي. قضيت بمعية أمر الانضباط وفي مكتبه إلى ما بعد منتصف الليل. تغير جو معاملتي من كل منتسبي آمرية الأنضباط وأخيراً إستجمعت شجاعتي وسألت مساعد الأمر أن كان بالإمكان ان أعود أدراجي إلي بيتنا وهل يأمر لي بوسيله نقل وانا قد خرقت منع التجوال. رد المساعد: لست أنا الذي يعرف شيئا عن "قضيتك" بل أن الموضوع مع سعادة الآمر! وهكذا بدد هذا الرد آمالي كلها. أتخذت موقعاً على احد الكراسي في زاوية من زوايا مكتب المساعد. في حدود الساعة الثانية صباحاً عاد الآمر وطلب

مني مرافقته إلى الطابق الثاني من البناية الرئيسية لوزارة الدفاع إذ يقع مكتب الرئيس الجديد وكان مجلس الوزراء في اجتماع مصغر. تركني الآمر في مكتب المرافقين الذين كانو مشغولين بالكثير من الفعاليات حتى بدأت اشعر بأني عبء عليهم وكلما انشغلوا - وكان المكتب كخليه نحل - أعود إلى أحلامي المرعبة. أنا تعب ومرهق نفسياً وجسدياً وأستمر سقاة الشاي من الجنود في تقديم الشاي.

وفي نحو الساعة الرابعة انفتحت بوابة المكتب وبدا الزعيم على وشك المغادرة وكان الوزير شنشل برفقته، وقال من دون النظر إلي؛ لماذا لا تذهب إلى مكتب الوزير غدا.عقب الوزير قائلا ان لديه بعض المهام يريد تكليفي بها. وما أن خرجا حتى كنت في طريقي الى داري. ومع ساعات الفجر الأولى. وصلت واستقليت على أول سرير فارغ فوق سطح الدار ولم استيقظ إلا بفعل حرارة الشمس الساطعة في ذلك الشهر القائظ. وفي اليوم التالي اتصلت بمكتب صديق شنشل وحولني سكرتيره إلى مكتب رئيس الوزراء واعلمني المقدم وصفي طاهر (الصورة - 11) بضرورة التواجد في مكتبه صباح اليوم التالي وكان ذلك يوم الجمعة في الساعة الثانية عشرة. هذا الذي حصل!! والأن أصبحتُ متميزاً. فحال ولوجي دائرة الاستعلامات الأولى للوزارة يفتح الطريق ويؤذن لسيارتي بالدخول وبعدها أترجل إلى مكتب الأستعلامات في مقر وزارة الدفاع في الطابق الأرضي من الوزارة والذي يشرف على سلم يقود إلى الطابق الثاني حيث مقر الوزير المؤقت ورئيس مجلس الوزراء، ولم يكن هناك اكثر من ضابط وفي بعض الأحيان اثنين وعدد من الجنود.

كانت غرفة الاستعلامات بسيطة في أثاثها على الرغم من كونها واسعة وكانت مبردة وفيها ثلاجة من الحجم المتوسط تحتوي على قنان مملوءة بالماء البارد التي كانت أصلاً قناني مشروبات فارغة من الزجاج قبل ان تدخل المشروبات الغازية البلد. قادني الضابط المسؤول إلى السلم وقال بانه لا يرى سببا لمرافقتي لأني اعرف إلى اين أنا ذاهب وبإيماءة من يديه ذهبت إلى مكتب رئيس الوزراء وهناك قابلت المقدم عبد الغني (وفاتني اسمه الأخير بعد هذه السنين كلها) وهالتني مهنيته وجديته وان كانت علامات الإجهاد بادية على وجهه. قادني مباشرة إلى الرئيس الذي كان معه



الصورة رقم (10): الزعيم عبد الكريم يحيط به وصفي طاهر وآمر الانضباط العسكري عبد الكريم الجدة في مدخل وزارة الدفاع



الصورة رقم (11): من اليمين، وصفي الطاهر وفاضل المهداوي وماجد محمد أمين في الساعات الاولى للثورة

وزير الإرشاد وشخص قصير القامة في نهاية الأربعينيات من العمر أنيق ووسيم الملامح تبدو سحنته وكأنه أوربي وكانت إنطباعاتي الأولى انه قد يكون مسؤولا أجنبياً. عرفت بعد ذلك انه العراقي الأصيل المقدم الركن المتقاعد سليم الفخري والذي قابلته ذلك

اليوم ولأول مرة. كنت سمعت عنه كمثقف يساري أُتهم بالشيوعية وحكم عليه مع زميل له هو المقدم ركن غضبان السعد بسنوات من السجن وانهوا خدمتهم في الجيش وكنت معجبا بغضبان على الرغم من اني لم التق به فقد كانت له سمعة كمثقفٍ وناشطٍ فذ. أصدر غضبان السعد كتاباً عن حركة التحرير الكورية بعنوان "كوريا في موكب الحرية ". كان ذلك الكتاب السياسي هو الكتاب الثاني الذي قرأته بعد كتاب "تشريح المكارثية" لإبراهيم كبة اللذين شكلا عندي القاعدة الثقافية الأولى لفكري السياسي التحليلي كما اسلفت وكانت اللبنات الأولى لفكري السياسي النقدي على الرغم من إصراري على استقلاليتي الفكرية التي لم اتخل عنها طيلة حياتي العلمية. سمعت عن ثقافة الفخري ولم اره إلا في تلك اللحظة فقد اختفى الرجل بعد خروجه من السجن لتدبير أمور حياته ولم يظهر للملأ الثقافي أو السياسي إلا بعد حين من الثورة.

حال الأنتهاء من القائي التحية على الحاضرين، أشار إلي الزعيم قاسم بالجلوس وبدأ الحديث فوراً مؤكداً "بأنه ووزير الأعلام كانا مشغولين بالأمور الأنية للبلد واتضح للحاضرين اهمية أن يكون للأعلام سياسة واضحة ليصبح الأساس التثقيفي الشعبي ويجب ان تكون له إستراتيجه حديثة للتنوير"!. قال أن الإذاعة هي الوسيلة الوحيدة التي ورثناها، وأنه والوزير يريان أنها مؤسسة باليه وأكد: نريد أن تكون واجهة التثقيف الجديدة ولابد ان تكون لها مؤشرات عمل واضحه واستراتيجية حديثة وعلميه!!. وقال بأنه والوزير ارتأوا تشكيل لجنة مستقله لهذا الغرض مهمتها الرئيسة رسم تلك السياسيه التي يجب ان تكون مستقله الكيان لا علاقة لها بالهيكل الإداري التي يترأسها فعليا الوزير وتكون تابعة لمجلس الوزراء. ولما كنت أول من كان قد ابدى رد فعل واضح.. ألتفت إلي وقال: طارق هل لديك سؤال؟ فأجبت بتردد وبنوع من الأرتباك ياسيدي أنا لست موظفاً ولست من الذين إستلموا مهمه بعد تخرجي من الجامعة قبل أربعة أسابيع فأنا لا ادري كيف سأتصرف فأجاب فوراً: ستتعلم من البقية وصرف حديثي وكأنه نوع من الهراء!!. إستمر قائلاً: أنتم ترسمون السياسة وتعكفون بجدية على دراسة الوضع الإعلامي في البلد وتقدمون تقريراً بإقتراحاتكم للسيد الوزير.. ونريد من هذه اللجنة أن تكون مستقلة تماماً عن سيطرة الإدارة الحكومية... وسيجتمع بكم الوزير لأنهاء التفاصيل قريباً قبل البدء بعملكم واردف: أننا سنستضيف وفوداً

دوليـة وعربيـة كثيرة في الأسـبوعين القادمين وقال "بـأن مؤتمرا دوليـاً عربياً للمحامين العرب سـيعقد في بغـداد لأول مـرة آمل أن تسـتطيعوا اسـتغلاله لإيصـال صوتنا إلى الأشـقاء العرب!!. وإشار الينا بطرح الأسئلة أن كان لدينا أي استفسار (الصورة رقم - 12). طرح سـيلم الفخري الكثير من الأسئلة أما أنا فلم أنبس ببنت شفة. علينا الأن أن نُحشـد جهودنـا كلها لإنجاح هذا المؤتمـر الدولي. بقيت آخر كلـمات الزعيم ترن في أُذني وهو يؤكد اهمية تبيان وجه الثورة الحقيقي ومبادئها وتعبئة الجهود كلها لهذا المؤتمر.

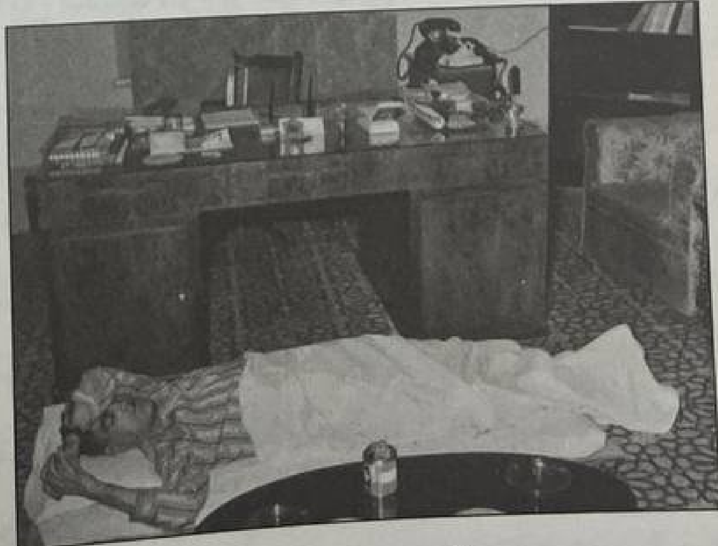


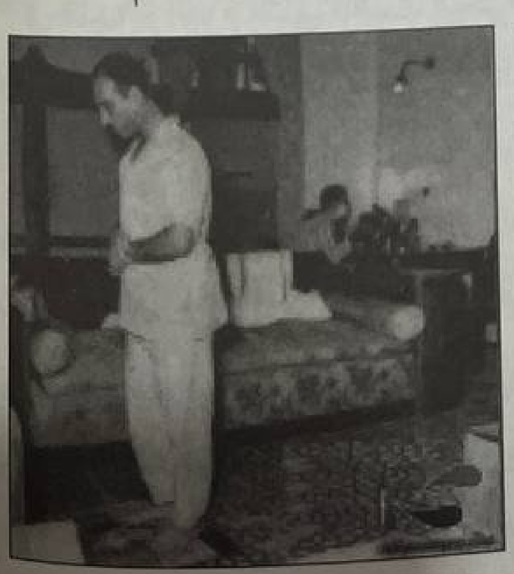
الصورة رقم (12): مكتب وزير الدفاع يوم 28 تموز 1958، تشكيل اللجنة العليا للارشاد، وزير الارشاد محمد صديق شنشل والزعيم عبد الكريم قاسم والمقدم المتقاعد سليم الفخري

في صباح اليوم التالي ذهبت مبكراً إلى مكتب الوزير المؤقت في دار الاذاعة، لأن وزارة الإرشـاد اسـتحداث جديد من إبتـداع الثورة. فاجأني مديـر المكتب المعين حديثـاً بقوله: أن برنامـج الوزيـر اليومـي يضعه صبـاح كل يوم وغالبـاً عبر الهاتف. وبينـما أنا في مكتب السـكرتير، رن جـرس الهاتـف وكان المتحـدث الوزير نفسـه لتحديد برنامـج ذلك اليوم وانتهـى الحديث. وإلتفت الي مدير المكتب وقال بأن الوزير سـوف يكون في مكتب رئيس الوزراء معظم اليوم ولم يذكر شيئاً عن إجتماع لجنتنا. توسمت في ذلك خيراً وعدت أدراجي إلى البيت وأنا أشـعر بنوع من الطمأنينة محاولاً إسـترجاع بعض الروتين الذي إفتقدته بعد الثـورة أو قل الأنقلاب أو سـمها "حركة الجيـش" التي لم تتبين هويتها بعـد!!. لقد قلبت لنـا الموازيـن كلها وغيرت كل ما أعتدنا عليه. هل سـيتغير جونا الاجتماعي الجديد أيضا؟

وماذا سيحل بالتجمعات الثقافية؟ ومن نحن ولأي منها ننتمي؟ كنت في حيره وفي دوامة من التفكير حينما أخذتني القيلولة بعد غداء أعدته الوالدة لاسيما وان الأسواق والحياه الطبيعية بدأت تأخذ مجراها الروتيني لأول مرة والهياج الشعبي بدا يخف وينتظم. ولم أفق إلا والوالدة تنادني وتطلب مني الرد على الهاتف الذي أيقظ الجميع وكنت في حاله ما بين اليقظة والكرى، واذا بموظف البدالة يقول: لديك اجتماع في الساعة الثامنة مساءً في مقر وزاره الدفاع وقلت: لماذا ومع من؟. طلب مني التأني وأكد بأن هذه هي الأوامر وليس لديه أكثر منها!!. قضيت مدة "شاي اليقظة" مع الأهل فقد كانت الوالدة تقدم الشاي والكعك "والبقصم أوالجرك" لنا جميعا في جلسة عائلية يترأسها الوالد في هيبتة وكأنه إجتماع عسكري!!. الوالد قليل الكلام - غالباً - والوالدة اقل منه حديثاً ايضاً. الكل يكون في مزاج هادي ولطيف فالقيلولة لها أثرها في تهدئه النفوس ولا تشجع على الثرثرة. كنت هادئاً واقل حماساً للحديث، فقد كنت ما أزال أترنح تحت تأثير المكالمة، وأتأرجح بين أمل العودة إلى خطط الدراسة والتفكير بمستقبلي كما كنت قد أعددت له.

كان الزعيم "كريم" كما كنا نسميه "والعقيد عبد السلام" كما كنا ننعته ينامان في مكتب وزير الدفاع. يأكلان ويشربان معاً في الأيام الأولى. كانت البساطة وعدم التكلف السمة الرئيسة للأثنين.. يفترشان الأرض او ينامان على أسرة "سفريه" تستعملها الشرطة أو الجيش وهي غير مريحه. كان عبد الكريم قاسم طويل القامة وكانت قدماه دائما خارج الفراش. وكان السرير قد كُسر يوماً ما، ففضل بعدها النوم على الأرض وعلى فراش في غاية البساطة!!. كان هذا روتين حياته في معظم شهور الصيف (الصورة رقم-13).





الصورة رقم (13): الايام الاولى لثورة 14 تموز عام 1958

بعد أن استقرت الأمور في بداية الخريف عاد إلى روتين حياته كما كانت قبل الثورة، لكن سلوك عبد السلام عارف بدأ يتغير منذ الأسبوع الأول من الثورة. فعلى الصعيد المحلي بدأ يتصرف كأنه الأمر الناهي - كما ورد ذلك في بعض الأمثلة التي ضربتها والتي كانت قليلا من كثير. كان عبد الكريم يتجاهلها ولا يسمح لأحد أن ينتقد نائبه أو ينال منه ويمتعض من أي فرد حينما يستشف منه بعض الضيق من سلوك عبد السلام. نبهني مرة حينما طرحت بعض التساؤلات عن صلاحيات بعض الضباط وقال بعد أن نهرني: أتقصد نائب رئيس الوزراء؟ فأجبت بنوع من الإعتذار: السؤال عام. وتجاهل ما قلته.

وأدى سلوك عبد السلام عارف وفرديته فضلاً عن فوضويته وحبه لذاته وإيثاره الثرثرة على التعقل إلى خلق هوة بينه وبين عبد الكريم قاسم. وحينما كنت أبدي بعض الأمتعاض من تصريحات العقيدعبد السلام عارف كان يوبخني بلطف وقال لي الزعيم مرة وبحضور سليم الفخري وصديق شنشل أنه يعرف عبد السلام قبل أن أولد. وكانت المناسبة هي اني رأيت بأن مصادرة بناية ومطبعة ومكاتب جريدة "الشعب" وإصدار جريدة الجمهورية وتعيين الدكتور سعدون حمادي رئيسا لتحريرها بعد يومين من الثورة لتصدر في 17 تموز عمل غير مطمئن. وبالفعل صدرت الجريدة معلنة أن عبد السلام عارف صاحب الامتياز. كان الجميع يعرف بأن حزب البعث يدير الجريدة وأن معظم آرائها وكتاباتها تنطلق من ايدلوجية الحزب وتعبر عن اتجاهاته من دون محاولة إخفاء تلك العلاقة مادامت الجريدة تطبل وتزمر لعبد السلام عارف. وكانت تصرفات عارف الأرتجالية تدفع الكثيرين إلى الأستنتاج برعونة وعدم مسؤولية بعض خطواته. فعندما ذهب بعد خمسة أيام من الثورة لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر في دمشق حاول أثاره موضوع الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة وفي الوقت نفسه نسب إلى نفسه نجاح الثورة والتخطيط لها وقد حملت جريدته "الجمهورية" في اليوم التالي تلك الخطب والتصريحات التي كانت محاولة فاشله لتقليد أسلوب الرئيس المصري جمال عبد الناصر مع فارق كبير في الأسلوب اللغوي والوضوح الأيدلوجي ورصانته. ناهيك عن جمال الألقاء. وغدا واضحاً بأن عارف حاول الأيحاء بأنه القائد الحقيقي للثورة وأن عبد الكريم رئيس صوري، تماما كما كان اللواء محمد نجيب قائدا رمزيا للثورة المصرية ولا يختلف الوضع عن ذلك في ثورة العراق.

وبعد اقل من شهرين خسر عارف مناصبه كلها وكذلك إنحسر رصيده الشعبي وكان من أول نتائج تهور الرجل أنه شقّ الثورة الى جناحين متناحرين احدهما ذو صبغة دينية واتجاه قومي مساند من الجهات الرجعية كلها التي رأت في الثورة أنها يسارية تقترب من البلشفية بينما كانت القوى الأخرى التقدمية كلها وعلى رأسها اليسارية تلتف حول عبد الكريم قاسم. وهنا بدأت العقلية السياسية التي أسهمت الى حد كبير في "شخصنة" السياسة العراقية، أذ أصبح الشخص رمزاً وحكماً وممارسة إلى أن وصلت الى الحضيض في عراق صدام حسين. وكانت تلك بداية الطائفية السياسية في العراق. كان عبد السلام عارف يبدأ كل خطاباته ببعض الآيات القرآنية ثم يعرج الى الغث من الحديث الذي لا رابط له ولا فحوى له بل كان لغواً من دون محتوى سوى تمجيد دوره وإطلاق شعارات غير واضحة - مثلاً- "لا أقطاع بعد اليوم.. لا طبقات.. لا قوميات فنحن قومية واحدة "!!. وفي مباحثاته مع الرئيس عبد الناصر في 19 تموز عام 1958 رفض قراءة الخطاب الذي أعده له وزير الإرشاد، السياسي المخضرم صديق شنشل وأقره وزير الخارجية الدكتور عبد الجبار الجومرد - ورأيت بعيني نسخه منه- كان في غاية الروعة الخطابية والمضمون السياسي موضحاً فيه خطوط سياسة العراق الداخلية والإقليمية والدولية بذكاء وتأنٍ اعده اذكى وأكفأ شخصية في وزارة الثورة (الصورة رقم - 14).



الصورة رقم (14): زيارة العقيد عبد السلام عارف الى جمهورية مصر العربية ولقاء الرئيس جمال عبد الناصر

تجاهل عبد السلام ذلك الخطاب المكتوب ليقوم بألقاء كلمة ارتجالية لاتنم إلا عن بلبله فكرية غير واضحة المعاني او المضامين.. وقد اجاب عبد الجبار الجومرد حينما عاتبه عبد الكريم قاسم بما مضمونه- وبطريقته المؤدبة وحنكته السياسية وتجاربه في العمل من دون أي تحامل او انتقاد وبوضوح- ؛ بأن عبد السلام عارف رفض حتى القاء نظرة على مضمون الخطاب وقال لعبد الكريم قاسم مقتبسا نص كلمات عارف: أنا فاتح بغداد ولا أقرأ من ورقة!. أكد ذلك لنا صديق شنشل بطريقته المهذبة والوقور في أخر اجتماع كنت معه وبصورة عفوية لاإرادية. تركت بيت الأهل وتوجهت الى وزارة الدفاع، مقر الزعيم، وحال وصولي وجدت شنشل والفخري قد سبقاني اليه. وبدأ الزعيم حديثه مؤكدا ان يكون مرجعنا الرئيس الذي يرسم خطط عملنا هو وزير الإرشاد السيد شنشل ولا أحد غيره ثم ركز على أهمية الاعلام المنظم (الصورة رقم -15). وتولى الوزير الحديث بعده مؤكداً - ايضاً- ثلاث نقاط رئيسه أتذكر البعض منها والتي تتمحور حول ضرورة إطلاع العالم العربي على البرامج الرئيسة للثورة وإيضاح الخطوات التي ستقوم بها كما أصر على ضرورة اطلاع المواطن العراقي على مشاكلنا التي تراكمت طيلة أيام العهد الملكي وأفهامه بخطط الثورة أولاً بأول وأصر بأن نكون صادقين بكل ما نقوم به في هذا المجال وبذلك نحصل على ثقة الشعب، وأن لاتضخم الآمال فنخسر بذلك ثقته أن لم تحدث التغيرات والوعود التي قطعناها لهم بالسرعة المتوقعة. تدخل الزعيم مرتين مؤكداً أننا بحاجة إلى كسب الثقة وليس الدعاية ولنبدأ من هذه الساعة وليس غداً



الصورة رقم (15): الزعيم عبد الكريم قاسم مع وصفي طاهر وفاضل المهداوي

. طرح سليم الفخري بعض الأسئلة المهمة كانت تتعلق بعلاقتنا مع مدير الدعاية العام والتشكيلة الإدارية في الوزارة وهنا طلب من الوزير إيضاح ذلك ولدينا لجنة تابعة مباشرة للوزير وليس لنا أي صفه أدارية وإنما صفه استشارية وأصر على أننا سنكون حلقه الوصل بين الشعب والثورة. سأل سليم الفخري؛ هل هذا يعني بأن أعُاد إلى الجيش وأُنسب الى وزارة الإرشاد؟ فرد الزعيم هذا موضوع مهم ولابد ان يأخذ مجراه الطبيعي وفق قوانين وزراة الدفاع وستتبع الإجراءات المطلوبة كلها وعلى وفق القانون. تشجعت وطلبت السماح لي بالحديث بأن رفعت يدي "كما اعتدنا عليه أيام الدراسة" فضحك عبد الكريم وقال: تحدث يا طارق من دون "رفع اليد" فقلت نوع من الوجل: أنا لست موظفاً في الدولة فكيف يحق لي أن أمارس وظيفه من دون موافقه مجلس الخدمة!!. تدخل الوزير وقال: سنجد لموضوعك حلاً والأن أنت عضو في لجنه وزارية شكلها مجلس الوزراء برئاستي وسنلتقي غداً في وزارة الإرشاد في مكتب الوزير ونتحدث بالتفصيل فأن أجتماع مجلس الوزراء على وشك الأنعقاد. دخل في هذه اللحظة المقدم وصفي طاهر منبهاً إلى أن الوزراء معظمهم بالأنتظار وخرج سليم وتبعته أنا.

كانت أولى واجباتنا التنسيق للقاء الزعيم مع قيادات مؤتمر المحامين العرب الذي سيعقد في بغداد في الاسبوع التالي (الصورة رقم – 16). بعد انتهاء المؤتمر نادى الزعيم قاسم، سليم ودعانا لمكتبه وسألنا أن كانت لدينا أية ملاحظات فلم أنبس بكلمة. وكان سليم بارعاً في إجاباته ومدح شنشل على حسن أدارته. كنت أقلد وبنوع من الاحترام والحذر خطوات سليم فقد كان الرجل ناضجاً من جميع الجوانب، فضلاً عن كونه مهذباً ومثقفاً وذا شخصية جذابة وأنيق الهندام ولايمالئ او يحابي احداً ومنذ لقائنا الأول فرض الرجل احترامه علي وعلى الجميع. كان يسارياً لكنه لم يكن منقاداً للحزب الشيوعي الذي أُدين بتهمة الأنتماء له وحكم عليه بالسجن وطرد أثرها من الجيش. ولا استطيع الجزم بأنه انتمى إلى هذا الحزب. أصبحت كما قلت مؤمناً بسليم وكان الرجل يحدثني دوما "كَند" له على الرغم من صغر سني وقلة تجربتي فقد كان رحمه الله أنساناً بكل ما للكلمه من معنى. لم يرتد بزته العسكرية الا بعد أن أعيد رسمياً إلى الجيش وأُستكملت الأجراءات الإدارية كافة. رأيت في سلوكه العام حتى قبل

ارتداء الزي العسكري غايه الأنضباط واحترام الناس والميل الى البساطة والعفوية. شعرت ومنذ اليوم الأول للقائنا بمكانة خاصة لهذا الرجل، فهو لايتوانى عن مناقشة الأمور بعمق ولايخشى أن يرفض فكرة مهما كان مصدرها او قبول فكرة أخرى أن اقتنع بها. أصبح مثلي الفكري ولا يمانع عند رفض ما يقترحه بل العكس لايفرض عَلى رأيه. حتى عندما كنا نختلف كان يحاول إيضاح أسباب اتخاذه لبعض قرارته. كان ذلك ديدنه طيلة عملي معه حتى مغادرتي العراق.



الصورة رقم (16): مؤتمر المحامين العرب عام 1958 بعد اسبوع من قيام الثورة، يقف خلف الزعيم محمد صديق شنشل وزير الارشاد ونقيب المحامين العر اقيين عبد الوهاب محمود في باب وزارة الدفاع

كان الوزير صديق شنشل، رئيس اللجنة مشغولاً بإدارة وبناء هيكل الوزارة الجديدة فضلاً عن ظهور بدايات تصدع علاقاته التي انتهت بعد اقل من ستة أسابيع بمقاطعه جلسات مجلس الوزراء وبعدها بشهر أعيد تشكيل الوزارة من دون الوزراء القومين الذين ربطوا مستقبلهم السياسي بعبد السلام عارف. وعندما افل نجم عبد السلام اختفوا عن المسرح السياسي إذ جردهم قاسم من مسؤولياتهم كلها في 30 أيلول من عام 1958. اما أنا فان علاقتي بشنشل قد استمرت حتى مغادرتي العراق فقد احترمت الرجل لحصافته والتزامه وتواضعه. كانت الأسابيع العشرة الأولى من

عمر الثورة مهمة جداً. ففي الأسبوعين الأولين أُعد وأُصدر الدستور المؤقت الذي احتوى على إصلاحات اجتماعية واقتصادية جذرية وكانت تدريجية وبدون عنف لبناء مجتمع العدل الاجتماعي ودولـــة الرفـــاه (Welfare State) على أساس مبدأ الاشتراكيه الفابيه (Fabian Society) التي نادى بها الحزب الوطني الديمقراطي وكان على رأس ذلك التصدي للإقطاع وتفتيت قواعده. بدأت الاصلاحات بالغاء نظام دعاوى العشائر وأعقبها إصدار قانون الإصلاح الزراعي في اليوم نفسه الذي ازاح فيه عبد الكريم قاسم القوميين من وزارته والذي غدا فيه وزير المالية محمد حديد وزيراً للأعمار وكالةً واصبح هديب الحاج حمود وزير الزراعة وزيراً للمعارف وكالةً أيضاً وبعد ذلك جاء حسين جميل وزيراً للإرشاد خلفاً لصديق شنشل. وأصبح أقطاب الحزب الوطني الديمقراطي أهم عناصر الوزارة القاسمية وبمعنى أخر فان الانقلاب العسكري الذي قام به الجيش في 14 تموز أصبح ثورة اجتماعية واقتصادية شاملة في مرافق البلاد كلها. وبأعتكاف الوزير الكفوء صديق شنشل ثم استقالته ماتت لجنتنا أو لجنة الإرشاد الوطني - كما سميت لاحقا - ودفنت إلى الأبد!.

بدأت اشعر بأن الزعيم قاسم يعمل بطريقة مبرمجة وله أفكار واضحة. رأيت المقدم الركن سليم الفخري ببزته العسكرية بعد ذلك. أستقال حسين جميل أو أقيل في غضون شهر ليتسلم وزارة الإرشاد بعده المؤرخ التقدمي والأستاذ الجامعي فيصل جري السامر صاحب كتاب "ثورة الزنج" الشهير لدى الفئات المتنورة. نظم في عهده هيكل الوزارة. أما أنا فأنتسبت إلى دورة الضباط الاحتياط وواظبت - بعد التدريبات العسكرية - على العمل مع سليم الفخري - حين نسبه الزعيم كريم مديراً للإذاعة - مساعداً أو نائباً له فخريا على الرغم من أني لم استلم كما يقول العراقيون حينذاك "فلساً احمرا" كأجورعن هذه المهام لان التعليمات الماليه - في ذلك الوقت - والتي التزمت بها حكومة الثورة لا تسمح لي بالعمل في مؤسسات الدولة مالم أنه الخدمة العسكرية. كما كنت ملتزماً بعقد مع وزارة المعارف بالعمل في المدارس الثانوية. كنت أعتاش بما يتفضل به عليّ الوالد وعلى ما يدره علي البرنامج التلفزيوني الذي كنت اعده وأقدمه بعنوان "أراء ومقابلات" وهو دينار واحد كل أسبوع، لو قدمت حلقتين في الأسبوع، حيث أن المكافأة لكل حلقة منه هي نصف دينار فقط!!. كنت اعمل في الإذاعة والتلفزيون اكثر من عشر ساعات

يوميا دون أجر، أقوم بأعمال مدير قسم الأحاديث والبرامج ايضاً. كانت تلك اهم وأجمل فترة في حياتي. وفي منتصف ايلول من نفس العام دعيت الى الالتحاق بالخدمة العسكرية في دورة ضباط الاحتياط الثالثة عشر. وهنا اصر سليم الفخري على ضرورة استمراري في العمل معه فضلا عن التزامي بالتدريب في دورة ضباط الاحتياط الذي كان شاقا. عطف عليّ سليم الفخري مدير الإذاعة وبعد موافقة مدير الدعاية العام الجديد الروائي التقدمي المعروف ذنون ايوب بالمساعدة في نقلي الى المعسكر بعد انتهاء مهامي في الإذاعة بسيارة رسمية مع سائق الوزارة والعودة في اليوم التالي بعد أنهاء التدريبات العسكرية اليومية في كلية الضباط الاحتياط.

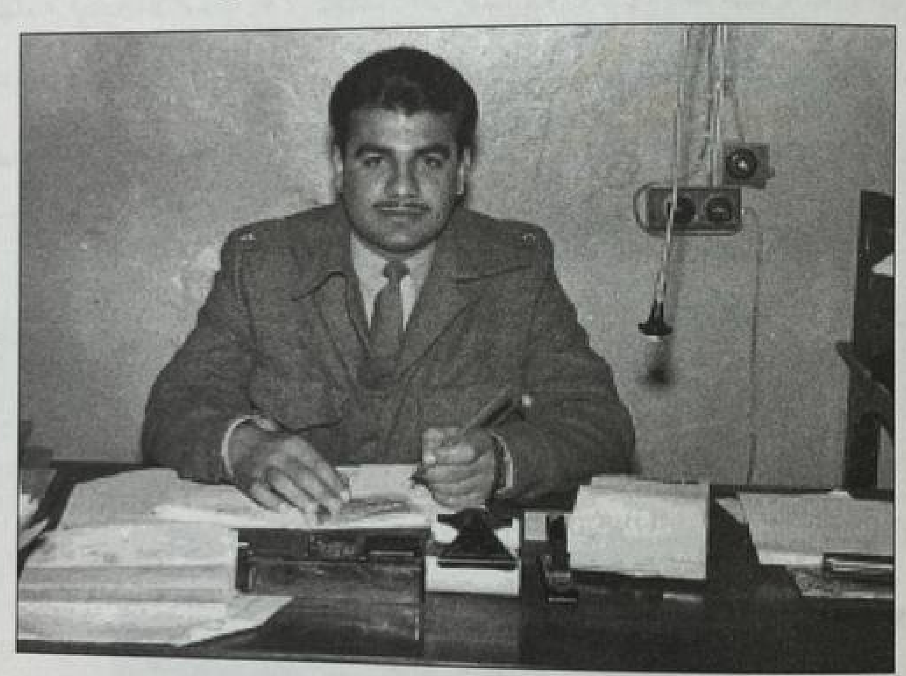
ساءت صحتي وتردت كما بدأت افقد الوزن وبسرعة، مما جعل الوالدة تلح علي بضرورة مراجعتي الأطباء. حضر إلى الإذاعة صديقنا الدكتور العسكري رافد صبحي باban واصطحبني إلى طبابة الجيش مرغماً واجرى لي الفحوصات الطبية كلها وتحدث مع سليم الفخري. علمت بعد ذلك من اخينا الطيب فنان الشعب يوسف العاني انه كان وراء ذلك. فقد لاحظ هزالي وشرود ذهني وعدم تركيزي لمدة تزيد على الشهر فهاله ذلك - كما اخبرني بذلك بعد سنوات في صيف عام 1972 ببيروت. وبالتدريج قل بقائي في كلية الاحتياط إذ احضر التدريبات العسكرية الأساسية وأغادر بعدها إلى دار الإذاعة، حتى أني لم اكن في صفوف زملائي المتخرجين من كليه الاحتياط بل كنت خلف الزعيم قاسم وهو يوزع الشهادات على المتخرجين وانا بملابسي المدنية اشرف على طاقم الإذاعة والتلفزيون الذي حضر لتغطيه تلك المناسبة. كان ضباط وآمرو المعسكر يعاملوني معاملة خاصة ويعملون ما يمكن لتيسير مهامي الإضافية إلا انهم لم يتوانوا عن التأكد من أدائي التدريبات الأساسية مع فصيلي في الكلية. لم أحاول أن أقصر في واجباتي العسكرية والشيء الوحيد الذي تساهلت فيه الكلية هو مبيتي خارجها في الشهر الأخير من الدورة. كانت تلك المدة من أصعب مراحل حياتي، فقد وجدت نفسي في دوامة عمل وواجبات اكثر مما يتحمله وضعي الصحي والبدني. وحال تخرجي من كلية الاحتياط عُينت برتبه ملازم ثان في كتيبه الدروع ببغداد التي تُعد احدى اهم معاقل مؤيدي قاسم في جيش الثورة. وجاء قرار تنسيبي إلى مكتب وزير الدفاع فوراً وفي قسم الاستعلامات وليس في مكاتب السكرتارية. في الأسبوع

الثاني من الثورة ظهرت على السطح نقاشات في مكتب الرئيس الجديد حول ضرورة استحداث دائرة رسميه ملحقة بمكتب قاسم تتولى التعامل مع الأمور المدنية وتكون حلقة الوصل بين مكتب رئيس الوزراء ووزير الدفاع وبقية مرافق الدولة المدنية.

كان مكتب رئيس الوزراء في بناية تقع في القشله - وهو مقر الوالي العثماني - على شط نهر دجلة المحاذي لسوق السراي تتواجد فيه معظم دوائر الحكومة المهمة بضمنها المحاكم ووزارة المعارف. يشتمل على جناح واحد فيه مقر لمكتب رئيس الوزراء وطاقمه الإداري. فحينما انتقل مكتب رئيس الوزراء الفعلي إلى مقر وزير الدفاع نشأت الحاجه لضرورة التعامل مع جزء من فعاليات رئيس الوزراء غير العسكرية. اقترح على العقيد عبد الغني استحداث تغيير في مكتب استعلامات وزارة الدفاع لتكون وظيفته الرئيسة التعامل مع مختلف الأمور المدنية كالأمور الدبلوماسية التي تكون بأشراف وزارة الخارجية وفق مراسيمهم الدولية وأصول التعامل الدولي، على أن يتم استقبال سفراء الدول - في العهد الجديد - في مقر وزارة الدفاع. كذلك المقابلات الصحفية التي تدار من وزارة الارشاد الجديدة لكنها لا تقع ضمن مسؤوليات مكتب وزير الدفاع مع ضرورة استمرار طاقم مكتب رئيس الوزراء في مقره الرسمي في بناية القشلة ويكون حلقه الاتصال المقدم عبد الغني الذي سيقوم مقام ضابط اتصال مع إدارة رئيس الوزراء ويعمل كسكرتير لشؤون مجلس الوزراء. كنت اسمع عن تلك المحادثات ولم اكن اعرف عنها شيئاً. عملت مترجماً متبرعاً في بعض المقابلات الدبلوماسية لذلك كان المطلوب مني أن أكون مستعداً دائماً.

حال تخرجي من كلية الاحتياط حصل التنسيب وليس لي رأي أو تأثير فيه فان العسكري ينفذ الأوامر ولا يسأل!. أصبحت مساعداً للرئيس طارق عباس حلمي المسؤول عن مكتب استعلامات وزارة الدفاع (الصورة رقم-17). تولدت علاقات كثيرة مع العديد من الضباط والمراتب وأقربهم الى قلبي الملازم الاول كنعان خليل ابراهيم حداد الذي كان يعمل في دائرة الانضباط العسكري ومرافقا لآمرها عبد الكريم الجدة، فقد كان عسكريا منضبطا ولكنه كان وديعا ورقيقا ايضا ومازالت ابتسامته الدائمة ماثلة امامي بعد كل هذه الاعوام. كان دوما على استعداد لمساعدة الجميع لاسيما من امثالي ضباط الاحتياط ربما لتقارب اعمارنا، وقد توثقت أواصر علاقتنا مع

الايام. وكغيره من الطيبين استشهد في شباط عام 1963 مع الزعيم عبد الكريم قاسم وآمره عبد الكريم الجدة رغم أني توقعت ومنذ اللحظات الاولى للانقلاب باستشهاده لشجاعته وإخلاصه (الصورة رقم-18). وجدت نفسي في موقع غريب فأني أتعامل مع الناس كمدني والمتوقع ان أكون متحضراً في معاملاتي ولكن رؤسائي يعاملونني كعسكري... أسمع وأطيع ولا أسأل وإنما أجيب فقط!!! . لابد ان اعترف بأني أيضا شعرت بنوع من السعادة لأني في خضم أحداث مهمة من تأريخ بلدي وأنا في واجهة القيادة الوطنية وأعمل بالقرب من رجل أحببته. عاملني الزعيم بدون تكلف وتحدث معي بشفافية وربما بعفويه وحتى أنه لم ينهرني حين أتطفل فيما لا يعنيني وربما انتهزت هذا اللطف ولم يعزوه لدافع شيطاني وأنما لحب الأستطلاع ليس إلا.



الصورة رقم (17): المؤلف في مكتب استعلامات الزعيم في وزارة الدفاع عام 1959

وأعترف هنا بصراحة بأني أحببت الرجل وأخلصت له ولم أخن ذكراه ولم أنتقص من إنسانيته. كان عراقياً أصيلاً ذا قيم نبيله ويد نظيفة ونفس عفيفة. كان مجمل مايمتلكه هذا الأنسان عند اغتياله يوم 9 شباط 1963 مبلغ من المال لايزيد عن "خمسين" ديناراً بعد خدمة ثلاثين عاما في الدولة وصل في أخرها إلى اعلى الوظائف وأكثرها سلطة (الصورة رقم – 19). أحتفظ بخلق أولاد محلة المهدية ومحلة قنبر علي التي ولد ونشأ فيها من عائلة فقيرة حتى بمقاييس ذلك الزمان لذا لقب "ابن الشعب البار" وكان هذا اللقب من اقرب النعوت إلى قلبه. كان إلى أخر لحظة من حياته –

التي شارفت على نهاية الأربعينيات- كما وصفه شاعر العراق العظيم محمد مهدي الجواهري "الرجل الرجل"، فقد عاش كريماً شهماً ومات شجاعاً نقياً.

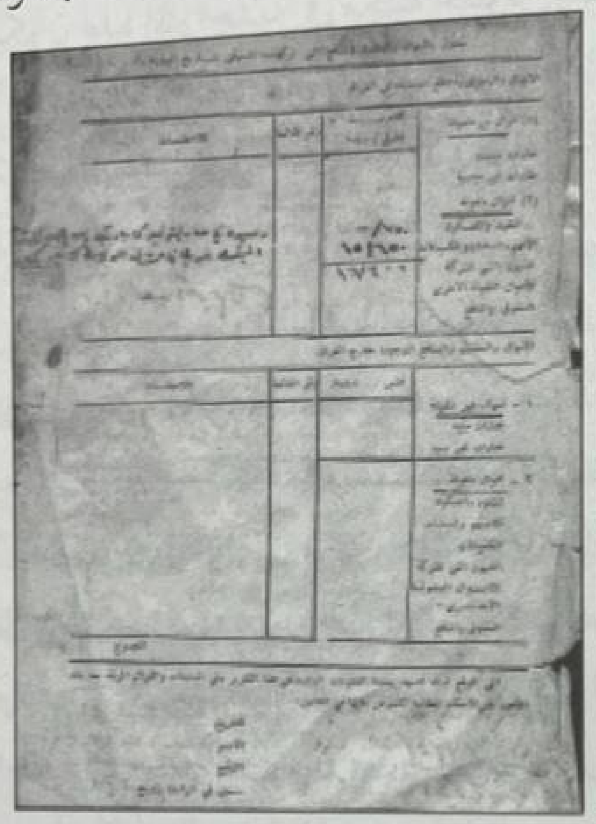
كنت مشغولاً لدرجة أنني لم استطع الاستمرار في مساعدة سليم الفخري إلا نادراً على الرغم من أني كنت أتشوق إلى عملي وإسهاماتي لاسيما في التلفزيون لكثرة الواجبات التي لا تسمح بذلك. كان العمل مع طاقم الزعيم مزدحماً وليس محدداً بزمان أو مكان. فأنت هناك طيلة النهار ومعظم المساء وغالباً ما تنام في المكتب. وعلى الرغم من أني كنت في قسم الاستعلامات فأن واجباتي كانت في الكثير من الأحيان تتطلب القيام بواجبات مكتب السكرتارية ومرافقة الزعيم في بعض المناسبات لاسيما ليلاً وفي عطلة نهاية الأسبوع والعطل الرسمية لكوني اعزب وكان الزعيم يشجع المتزوجين على الذهاب إلى عوائلهم وانا اغدو أكثرهم عرضه للقيام بأعمال ليس من المفروض أن تكون جزءاً من واجباتي. لا اخفي القارئ سراً باني كنت أتلذذ بتلك الواجبات اذ إنها تعني القيام بأعمال في مكتب "الزعيم" او أكون قريباً منه. كان الرجل كريماً في تعامله مع الناس متواضعاً مع كل من عمل معهم، يعاملهم باللطف والإحسان، بسيط في معالم حياته كلها وفي مأكله وملبسه. كان رئيسي في مكتب الاستعلامات الشهم والكريم النفس الرئيس برتبه ذلك الزمان - رائد بلغة اليوم - طارق عباس حلمي الذي عاملني بلطف. وفي الكثير من الأحيان يحاول بكل جهده تسهيل إعمال المكتب في الصباح. كان يشعر أن قاسم يرتاح لي ويلاطفني اكثر من الأخرين، فيرجوني أن أكون في المكتب لاسيما في المساء. كنت اسعد بذلك كثيراً.

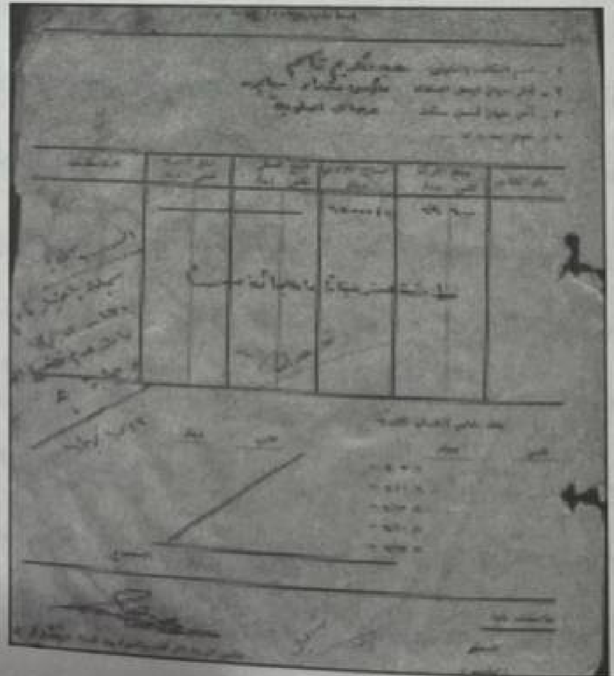


الصورة رقم (18): المؤلف والملازم الاول كنعان حداد في محكمة الشعب عام 1959

كان الزعيم يطلبني للقيام ببعض المهام وكان يقول لي بأني "مخربط" أي غير ملتزم في الأمور العسكرية ولكني في غاية الأنضباط في الأمور الإدارية والثقافية ويعتقد بأني أقول الحقيقة كما أراها من دون خوف او رتوش على الرغم من محاولتي ان أكون في الكثير من الأوقات قليل الحديث ولا أحشر نفسي في أمور ليس لها علاقة مباشرة







الصورة رقم (19): وثيقة رسمية لمجمل رصيد الزعيم عبد الكريم قاسم حين استشهاده

بعملي، وكنت استمتع بالقيام بكل ما يطلبه لان ذلك يمنحني وقتاً أطول معه وأستغله - أحياناً - أن كان مزاجه جيداً لاطرح عليه بعض الأسئلة التي لا يمكن طرحها أن كان مع أخرين. مع الأشارة الى أني الأدنى رتبه والأصغر عمراً بين العاملين في طاقمه وبهذا فان تسلسلي في السلم العسكري هو الأوطأ. في الساعات المتأخرة من المساء، يكون عدد المتواجدين في مكتبه محدوداً جداً وهم مشغولون بأشياء رسمية فلا يمانعون أن قمت بألاعمال الروتينية أو غير المهمة إدارياً. يرغب الزعيم -غالباً- التجوال بعد منتصف الليل أو في الساعات الأولى من الفجر بسيارته العسكرية التي كانت مخصصه له يوم كان امراً للواء التاسع عشر.

كان سائقه برتبة عريف وكنت اجلس أنا مع السائق بينما يحتل قاسم المقعد الذي يقع خلفنا وغالباً ما يكون وحيداً. أتذكر مره خرج فجراً وكان يريد أن يُفطر على "القيمر" البلدي أو "القشطة" كما تسمى في بقيه البلاد العربية وكان يعجبه "الصمون" العراقي معها طازجاً وحاراً. توقفنا عند أحد الأفران وترجلت من السيارة وسلمت على عامل المخبز وكان يعلق صورة قاسم على احد جوانب "التنور" وكانت أطرافها قد اكلتها نيران "التنور" الذي يخبز فيه وطلبت منه ان يعطيني خمسه ارغفة لكنه ولسبب ما لم يكن العامل في مزاج رائق فقال: سأعطيك ما تطلبه ولكن بعد أن أكمل العجين الذي امامي كله، فقلت له بأني مستعجل وبكل أدب رجوته أن يعطيني مما خبزه فأجاب وبلهجه بغدادية: شنو مستعجل لأنك "دتمشي" امور الامة"، أي لماذا انت على استعجال هل أنك تدير "أمور الأمة".. فرددت عليه وبكل رقه وود بأني لست ذلك ولكن رئيسي هو الذي يعمل للأمه ومن يكون يقظاً في هذه الساعة من اليوم إلا من هو ملتزم بهذه الأمة فأجاب العامل: يعني انت ورئيسك من مكتب قاسم فرردت عليه بالإيجاب فقال: قل له أنا لا أريد ان أبيع للعسكر. كان كث الشارب وحجمها يوحي بأن الرجل كان يساريا وعلى الأكثر شيوعياً فداعبته وقلت: كم رائعاً يارفيق لو تفضلت عليّ وعلى الزعيم بخمسة أرغفة.. وأدار بوجهه نحوي ثم خرج ليجد الزعيم بشحمه ولحمه مترجلاً من السيارة، وهو يضحك ملء شدقيه!. فطار الخباز فرحاً وهم بتقبيل يديه لكن الزعيم سبقه بأن ضمه إلى صدره وقبله!!. سألت الرجل هل هناك محل استطيع ان احصل منه على "القيمر"، فركض إلى احد

الدكاكين التي كانت موصده وجاء صاحب الدكان يحمل صحنا من القيمر. رفض الاثنان استلام الثمن وأصر قاسم أن يفطر معهم وقد قام عامل الفرن بعمل الشاي لنا جميعا.. ولا أنسى وجه قاسم وسعادته مع هؤلاء الناس البسطاء وبدأ الليل ينجلي وعاد قاسم لوزارة الدفاع ولم ينم طيلة ذلك المساء أما انا فسلمت واجبي لاول زميل وصل وعدت لانام في منزل الوالد.

أتذكر مرة أخرى في دائرة الاستعلامات الأولى التي هي مدخل وزارة الدفاع إتصل بي الضابط المسؤول ليقول بانَّ هناك عجوزاً تتوسل وتريد السماح لها بالدخول إلى استعلامات الزعيم وقد حان وقت انتهاء الدوام جاءت مرات عديدة وأقسمت بأنها لن تغادر اليوم حتى تصل الينا. وبينما أنا في الحديث مع المسؤول توقف عبد الكريم قاسم في الاستعلامات - كما كان يحلو له في بعض الاحيان- فنهضت ووقفت بحالة الاستعداد العسكري وأغلقت الهاتف. أعاد الموظف الأتصال بي فطلب مني الزعيم ان أرد على الهاتف، وبينما أنا في جدال مع الموظف، فهم قاسم ما يدور فطلب من الموظف ان يأتي بالعجوز. وقف الزعيم على مدرج الباب الرئيس يحيط به المرافقون ومعهم أنا. وما أن رأت المرأة قاسم حتى ركضت متوجهة نحوه فسقطت عند أول الدرج فهرع قاسم ليساعدها على النهوض وكانت سيدة وقور في عقدها السابع تقريباً -على وفق تقديري-، فبادرها الزعيم بالقول: أمي على مهلك وأمرنا أن ندخل إلى مكتب الاستعلامات وهي ماسكة بيديه تبكي وتقول انتم ظلمتم إبني وهو معيل لأكثر من عشرة أشخاص وقد قبع في السجن منذ قرابة الشهر من دون ذنب اقترفه ويدعون بأنَّه شتم الزعيم. فطلب من دائرة الاستعلامات فوراً الحاكم العسكري الزعيم احمد صالح العبدي الذي حضر بلحمه وشحمه مستفسراً منه عن الموضوع وبادره الزعيم اذا كان شتمني هو السبب لتوقيف هذا الرجل فأعتقد بأننا ظلمناه.. وأن والدته على حق أن وصفتني بالظالم وهذا شيء لم يحدث حتى في العهد البائد. إلتفت إلى المرأة وقال يا أمي سامحيني وسامحي الذي جنى على ولدك وأعدك بشرفي ان الموضوع سوف يحسم ويعود ولدك إلى أهله ووظيفته غداً. طلب مني توفير واسطة نقل لإيصال المرأة العجوز. لم تكن لدينا اكثر من ثلاث سيارات في المقر فأستقر رأي الزعيم أن أقوم أنا بأخذها بسيارتي الخاصة وأخرج من جيبه بطاقه وكتب عليها بخط

يده رقم تليفون مكتبه الخاص لتتصل به ولا تتجشم مرة اخرى متاعب القدوم في هذا الفصل البارد والممطر من السنة ودس في يديها (20) ديناراً أخرجها من جيبه لكنها رمتها عليَّ وبأباء وشمم قالت له وبدموع وبكاء حار: أن وفيت بوعدك فسأدعو لك الله بطول العمر وان حنثت فسأترك قصاصك له.

أعدتُ المرأة إلى أهلها وطيبت خاطرها. في الطريق ظلت تلح لمعرفة هل هذا هو قاسم حقاً او هو احد الضباط فقد كانت تضع نظارات سميكه على عينها وعندما أكدت لها بأنه الزعيم نفسه عادت عليَّ السؤال قائله: هل تعتقد بأنه سينفذ ما وعد؟، فطمأنتها بأن الرئيس لايخلف وعده اذا كانت جريمة ولدك الوحيدة "سب قاسم". وفي صباح اليوم التالي كنت في منزلي أذ لم يحن بعد وقت عودتي لدوام ذلك اليوم. اتصل بي احد المرافقين- الرئيس قاسم الجنابي - وطلب حضوري بالسرعة الممكنة ويريد مني تقريراً كاملاً لما حدث يوم أمس!!. الغريب أن الزعيم قاسم لا ينام كثيراً فأن ثلاث أو اربع ساعات من الراحة يومياً كانت أقصى ما يقضيه في بيته - بعد أن استقرت أمور البلد- يعود بعدها إلى مزاولة عمله بمكتبه في وزارة الدفاع. أما مسكنه فهو في غايه البساطة فالرجل لايملك داراً وإنما مسكناً قديماً وبسيطاً مستأجراً من دائرة الأموال المجمدة ببدل أيجار زهيد وهو من البيوت البغدادية التي بنيت في أربعينيات القرن الماضي. يتألف من اربع غرف في منطقة الكراده وأثاثه في غاية البساطة!! وغرفة الاستقبال كانت من دون سجادة التي كانت عادة أهالي بغداد لاسيما الميسورين منهم يستعملونها في أيام الشتاء الباردة لتغطية بلاط منازلهم وغالباً ما يستعمل السجاد الإيراني. في بيت زعيم الدولة الجديد لا محل لهذه المستلزمات. وحينما كنت أُقدم مع السائق إلى مقر أقامته يصر علينا بالدخول والانتظار في غرفة الاستقبال التي كانت الى حد ما فارغة بأستثناء بعض الأثاث البسيط. كان يصر على تقديم الشاي لنا. وهناك مدفأة نفطية واحدة من علامة علاء الدين والتي كانت قديمة ومهملة وغالبا تكون المدفئة غير موقدة ادخاراً للوقود. كان عَلي القيام بإيقادها وإطفائها قبل مغادرته. ولما كنت لا أدخن السكاير فلا أحمل علبة كبريت معي. فكنت أستعين بالسائق الذي كان برتبة "عريف" وأسمه على ما اتذكر "كاظم" لإسعافي بها، فهو يحتفظ بعلبة كبريت معه على الرغم من انه لا يدخن آنذاك أذ أن كاظم اضطر الى الامتناع من التدخين

بعد أن تركه الزعيم والذي مارسه قبل شهور قليله من الثورة وأصبح مدمناً عليها في الشهور الأولى من عمر الثورة. كان لا يدخن في الأماكن العامة بل في مكتبه وداخل بيته. اضطر إلى ترك التدخين بناءاً على إصرار الأطباء اذ كانت تنتابه نوبات من السعال الحاد اقنعه على اثرها وزير الصحة في ثاني حكومة للثورة محمد الشواف بأن لديه حساسيه منها وكانت انداك بدايات الحديث عن علاقه التدخين بالكثير من الأمراض.

هرعت الى مكتبي لاجد زميلي الأقدم الرئيس طارق عباس حلمي وهو في حاله هلع يريد ان يعرف ماذا حصل البارحة؟!. طلب مني أن اذهب فوراً لمكتب الزعيم وهناك وجدت الجميع في وضع لم آلفه من قبل وكأني قد ارتكبت خطأً فادحاً. ادخلوني إلى مكتب الزعيم الذي بادرني فوراً بالسؤال عما حصل؟!. كان في مكتبه المقدم عبد الغني السكرتير المنسب لأعمال رئيس الوزراء فأحجمت عن الكلام لأن الرئيس كان يكتب ملخصاً لمحضر جلسة مجلس الوزراء لمساء امس!.. بقيت واقفا ولم انبس بشئ فرفع قاسم نظره وقال؛ هل أنت اطرش؟؟ فأجبت بهدوء لا يا سيدي.. وفهم قصدي بأني أريد ان اتحدث بعد أن ينهي أعماله مع المقدم عبد الغني.. وما ان انصرف سكرتيره حتى أجبت وبنوع من التأني: انا اصغر ضابط في مكتب الزعيم والأقل أهمية من أقسام الوزارة، كيف يتسنى لي التصرف مع الدوائر الأخرى من دون أن استلم أوامري وتوجيهاتي من المسؤول الأعلى،لاسيما وان القضية قانونية تتعلق بدائرة الحاكم العسكري العام. وأن الحدث قد حصل بعد الساعة الخامسة مساءً وقد أوصلت السيدة الى دارها وكانت قد تجاوزت الساعة السابعة مساءً!!. لم يقل الزعيم شيئاً ووقفت صامتاً أتوقع التأنيب وربما حتى التوبيخ... فاذا به يقول؛ حقك ياطارق فأني متألم جدا لوضع تلك العجوز. رفع سماعة الهاتف واتصل بالحاكم العسكري العام طالباً منه موافاته فوراً بتفاصيل القضية، وتساءل كيف ومتى اصبح شتم أي مسؤول في الدولة جريمة؟. نظر الي وكنت قد حضرت من دون حلاقه ذقني المتوقعة من الضباط وقال: متى ستكون عسكرياً يا طارق فأجبت على الفور: انا لست فوضوياً أيضاً يا سيدي ولو رأيت وضعي وهلعي حين اتصل بي المكتب ليبلغني ألاوامر لسامحتني على قيافتي هذه. فقد أبلغت فوراً لإجتماع مهم بعد ساعة. كنت أُمني النفس بالاستمتاع بيوم

الراحة الأسبوعي والذي أُبلغت به قبل ثلاثة أيام!. ابتسم الزعيم وقال هل تناولت وجبة الأفطار فأجبت بالنفي. طلب مني أن أبعث بفطور لنا نحن الاثنين من احد المطاعم القريبة من الوزارة وكان فطوره المفضل هو "سيخ "كباب واحد مع "كبابة " واحدة من مطعم شعبي كردي في مدخل سوق السراي. أندفعت مسرعا وعدت بعد نصف ساعة بالأفطار الموعود. كان في مكتبه ثلاثة أو أربعة ضباط من مكتب الحاكم العسكري العام واتضح بان ابن السيدة هو كان رهن التحقيق القضائي من المحكمة العرفية العسكرية وفقا للقوانين المرعية. لست أعلم اية تفاصيل عن القضية لكنه اصر على ذهابي الى بيت المرأة المسنه للاستفسار عن صحتها وقال من المفروض ان أطلق سراح ابنها لو كانت جريمته الوحيدة هي سب الزعيم او طارق إسماعيل!!. ضحك بعدها مشيراً الى البدء بالافطار وقد دعا احمد صالح العبدي الحاكم العسكري لمشاركتنا به. كان أفطارنا يشتمل على البيض المسلوق والشاي طبعاً ورفيق كل اكله يأكلها الزعيم وهي "الرشاد والكراث" وكذلك "الكرفس" الذي كنت لا احبه. قام الجندي في دائرة الاستعلامات المتخصص بعمل الشاي والذي نشبت بسببه مشادة بيني وبين طاقم مكتب الزعيم عندما أرادوا نقله الى مكتبهم لبراعته بأعداد الشاي. تدخل الزعيم في النزاع بأن اعطى الرأي النهائي "للجايجي " نفسه والذي فضل ان يكون مع طاقم الرئيس لا معنا في استعلامات الطابق الأول ووعدنا بالمواظبة على تزويدنا انا والرئيس طارق بالشاي في أي وقت نطلبه. وعلى الرغم من انه حاول جاهدا الوفاء بوعده الا ان كثرة الطلبات حالت دون تحقيق أمالنا. بعد اربع ساعات صرفني الزعيم وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة وطلب مني الذهاب الى دار المشتكية العجوز للتأكيد من ان مشكلتها قد انتهت. وطلب مني ايضاً اخذ بعض الحلويات لها ولأحفادها هدية منه. وختم ذلك اللقاء بأن قال لي: اعطني قائمه بحساباتك لأدفع لك استحقاقك يوم غد... حين نستلم رواتبنا. كانت هذه عادته فأنه لايحمل نقوداً معه وكان يطلب من اثنين فقط الدفع نيابة عنه وهم مرافقه الخاص حافظ علوان ورئيس مرافقيه وصفي طاهر وها أنذا تم اضافتي الى القائمة.

نُفذت أوامر الزعيم وأتضح ان المشكلة التي بسببها أوقف ابن المشتكية قد انتهت وأعيد الى وظيفته الحكومية، وتبين أيضا بان للأبن حسادٌ كثر، فقد كان - فضلا عن

عمله في الحكومة- له مشاريعه الخاصة التي زادت حساده. أبلغت الزعيم بذلك بعد عودتي ماحدث وسعد الجميع بذلك.

يأتي طعام الزعيم - غالبا - من بيت أخته أو بيت أخيه الأكبر حامد او من بيته الذي تديره امرأة أرمنية وغالباً ما يتكون من الأكل البغدادي العادي كالرز والخضراوات المطبوخة مع رغيف الخبز الذي كان يحبه ويتلذذ به. كان لايكثر من أكل اللحوم ويفضل السَلطة فضلاً عن "الرشاد والكراث والكرفس" العراقي مع وجباته كلها، واذا كانت هناك فواكه فانها تكون من ضمن وجباته وكان يحب اكل الرطب صيفاً. لم يكن في وزارة الدفاع مطبخاً او طاولة طعام في أي من الغرف التي كانت تستعمل كمكاتب، وكان الزعيم صارماً في ذلك. يأتي بطعامه اليومي سائقه ويوضع في اواني خاصه تسمى في لغة ذلك الوقت "السفرطاس" وهو مكون في الغالب من ثلاث او اربع اواني توضع بعضها فوق بعض يربطها رباط يجعل حملها سهلاً ويحافظ على محتوياتها. كانت الملاعق متوفرة في مكتب الزعيم يقوم بغسلها أما بنفسه او احد المساعدين. كان شديد التأكيد على نظافة الصحون التي يوضع الأكل فيها بعد تسخينه، باستعمال المدفئات النفطية في الشتاء او على نار الطباخات النفطية البدائية التي كانت تعرف "البريمز "في ذلك الزمان. كان رحمه الله يكره الأكل البارد. يدعو من هو بالقرب منه مشاركته في الأكل وكان يتأنى في مدة طعامه. كان يتأخر في مواعيد تناول طعامه إذ كان همه الأعمال اليومية التي كانت غالباً على حساب راحته وصحته.

كنت افضل البقاء في مكتبي مساءً. وبما أني الوحيد الذي كنت اعزبا بين زملائي فلا امانع في الخفارة الليلية والنوم في مكتبي. وكان هناك سبباً اخر وهو ان ساعات العمل الليلية اقل زحمه واقل ضغطاً فأشغل معظم وقتي بالقراءة والتحضير لدراستي العليا. كنت افترش الأرض وتحف بي الكتب والأوراق من كل جانب لاسيما بعد منتصف الليل شتاءً. وكان الزعيم في الغالب يعرج على مكتبي قبل ان يغادر او قبل ان ينام ليصدر التعليمات، ومن عادته ان ينام فجراً. كان - في الغالب- يخرج بسيارته العسكرية لتفقد شوارع بغداد وفي بعض الأحيان يطلب من المرافقين ان ينسقوا معي

لان أكون على استعداد للقيام بأعمالهم اذا لم يكونوا " خفراء ". لا يعود الى مكتبه حينما يكون تعباً واذا رجع ينام مفترشاً الأرض اوعلى "كنبة" في مكتبه. كان نظيفاً ويعتني بمأكله ومفرشه. كان هناك ومنذ أيام الملكية، حمام خاص في مكتب وزير الدفاع، يصر على نظافته ويؤكد على موظفي التنظيف أداء واجباتهم على احسن وجه. كنت امازح بعض المرافقين وأقول لهم: من المؤكد أن المرافق الصحية في الثكنات كلها التي كانت بأمرته قبل الثورة من انظف الأماكن. كان الجميع من الذين عملوا معه يؤكدون ذلك ويذكرون أفراطه في تأمين تلك الاحتياجات لجنوده. كان وفياً لكل من عمل معه او تحت امرته. كنت أُمني النفس بالحديث معه عن أمور لاتتعلق بالعمل وكان الوقت الوحيد الذي يصبح الحديث بيننا إنسانياً وليس وظيفياً هو في تلك المدة. كان صارماً ويصر على ان أكون دائماً في كامل قيافتي العسكرية وان لا أكون في ملابس النوم الا حينما تفرغ الوزارة من المسؤولين ونحن في وقت الاستراحة بعد منتصف الليل، على ان نكون متواجدين بملابسنا الرسيمة وقيافتنا العسكرية قبل الساعة السادسة صباحاً. والويل كل الويل ان حضر الزعيم الى مكتبه وكان بعضنا على غير ذلك. لقد كان منضبطاً وعسكرياً في غايه الصرامة والجدية. ويصر على أن يسري هذا النمط من السلوك على العاملين معه كلهم. وهو – في العادة– المثال الأعلى في سلوكه وقيافته وانتظامه. كنت اسعد بمرافقته في تلك الجولات وغالبا ما كان يقضي بعض الوقت معي في مكتبي يتحدث عن أمور لاعلاقه لها بالروتين ويسألني عن الاهل وحياتي وخططي المستقبلية وانا انتهز الفرصة بل واتحينها لأسأله عن رأيه في مشاكل عامه وأُعرج بسؤاله أيضا عن مسائل شخصيه ان وجدته منشرحا او مستعدا للإجابة على تطفلاتي. كان لا يمكث طويلاً في كثير من الأحيان وكنت على استعداد "لحالات الطوارئ". استطيع ان استشف من هيأته ان كان مقرراً البقاء او التجوال. كنت اسمع أصوات احذيه الضباط والجنود من الطابق العلوي حيث يقع مكتبه وهم يؤدون التحيه العسكرية اعلانا بمغادرته مقره، فأكون على استعداد لاستقباله. عند دخوله مكتبي يخلع غطاء رأسه "السدارة "العسكرية والذي اعدُّه إشارة بانه سيجلس معي. كان يبدي لي بعض النصائح ويسوق لي بعضاً من تجاربه أيام شبابه من دون ان ينزع التكلف الذي يتطلبه العمر والمنصب. وبالمقابل كنت اعرف حدودي وكان يعلم

جيداً ذلك. لم اطلب منه شيئاً ولم استغل طيبته او تواضعه، بل كنت حذرا في ذلك، فقد كان معي على سجيته وكنت اعتز بذلك وكان هو أيضاً يرتاح لعفويتي وفي بعض الأحيان لسذاجتي. ربما كانت تلك احد أسباب تسامحه معي. اقولها بصدق بأنني أحببت الرجل لأصالته ونبله ونقاء نفسه.. وها قد مضي على أغتياله اكثر من نصف قرن وتجاوزت انا السبعين من عمري أقول ذلك الوصف بكل امانه وبكل اعتزاز. لم يكن متكلفاً ولا ممن يحب الظهور بل العكس، كان متواضعاً خجولاً وشامخاً في صفاته الشخصية وتفانيه بحب بلده واهل بلده لاسيما الطبقات العامة من أبناء شعبه. اقول ذلك للتاريخ وانصافاً له كقائد فذ وأنسان مخلص لوطنه وشعبه.

ومن الذكريات التي ما زالت حاضرة في ذهني حادثة لها معناها ومغزاها، فقد اتصل ضابط استعلامات في مدخل الوزارة بعد نهاية الدوام المسائي للوزارة ليعلمني بأن عقيداً متقاعداً يريد مقابله الزعيم ولا يدري كيف يتصرف مع هذا الرجل وطلب عوني في الموضوع وختم حديثه مقترحا بقيامي بمقابلة الرجل قبل البت في الموضوع. اخذت برأيه وطلبت منه ان يرافق العقيد بنفسه احتراماً للرجل وعمره فضلا عن رتبته العسكرية. وفعلا حضر الضابط برفقة الرجل الذي كان في العقد السابع من عمره تقريباً، اذ ترك الخدمة العسكرية قبل اكثر من عشرين عاماً. كان في غايه الأناقة وتبدو عليه العافية فضلاً عن ثقته بنفسه. قدمه الضابط قائلاً: العقيد فلان فنهضت من مكتبي وقدمت له التحية العسكرية فرد بأحسن منها. وكان الجو بارداً فأمرت له بالشاي وطلبت من أحد الزائرين بالمغادرة ليسمح لنا بالحديث بأمور خاصة. وهكذا فعل الزائر وكان موظفاً في مكتب رئيس اركان الجيش جاء ليدعوني الى العشاء، فرأيت ان أهتم بالقادم الجديد واعتذرت من تلبيه الدعوة. بدأ الرجل الحديث بالقول انه كان عقيداً في موقع بغداد العسكري وانه يريد السفر خارج العراق لكن دائرة الجوازات تريد تأييدا من وزارة الدفاع للسماح له بمغادرة البلد. تعجبت من هذا الأجراء الغريب فرد على التساؤلات قائلا: ربما لأني من أصول يهودية. لقد فوجئت بذلك وقد لاحظ زائري ذلك وتابع: كنت في أيام احتفالات تأسيس الجيش العراقي أتقدم كل المستعرضين بكامل قيافتي ولياقتي العسكرية ولم أُعامل إلا بالاحترام الذي استحقه فأني أبن الجيش!!. كان الرجل انيقاً وينم هندامه عن اليسر والذوق وكان

نحيفا وتبدوا عليه علامات الصحة الجيدة، واردف قائلا: انتظرت اكثر من ثلاث ساعات لمراجعه القائد العام رئيس الوزراء وأحرجت الضابط المؤدب فأصررت على تحري الموضوع معكم. وأردف قائلا: اعتقد بان الزعيم قاسم يعرفني وأن رفض فأني سأترك أمري الى الله. لقد احرجني ذلك فقلت: سيدي أن الزعيم في أجتماع مع مجلس الوزراء ولا اعتقد أن بإمكانه رؤية أحدا اليوم. هَم بالنهوض مستأذنا بالمغادرة وأنا في غاية الحرج.. فحاول الرجل ان يطيب خاطري وأكد بأنه يفهم بأني أقوم بواجبي وقد قمت به على أحسن وجه كما قال وهو في طريقه الى الباب. هنا امسكت بيديه وقلت له: هل بالإمكان الانتظار لساعتين او ثلاث أخرى واعدك باني سأتشرف بمشاركتك عشائي واستمتع بوجودك فقد ينتهي الأجتماع مبكراً وانا بذلك اتقي شر غضب الزعيم اذ اني اعرف طباعه وسيعد ذلك تقصيراً مني. أبتسم الرجل وقال دعنا نجرب، وقضينا الوقت بتجاذب أطراف الحديث ونتسامر لأكثر من اربع ساعات وقد تجاوزت الساعة الحاديه عشرة ليلاً. وهنا قال ضيفي: الظاهر ان الجلسة طالت اكثر مما توقعت انت وحتى وأن انتهت الجلسة فأني لا أريد أن أثقل على الرجل المتعب. استأذنت من ضيفي وتسلقت الدرج بسرعة فائقة وسلمت أحد المرافقين قصاصه ورق موجهة الى الزعيم بينت فيها محنتي ولم تمض الا دقائق حتى سمعت أقدام تسرع قادمة الى الباب ولكم راعني ان أرى الزعيم منتصباً امام ضيفي وهو في حالة استعداد عسكري يقدم اعتذاره وبدأ يلومني لأني لم اخبره بقدوم ما أسماه الرعيل الأول من مؤسسي الجيش. لست انسى ماحييت ردة فعل الضيف الذي تقدم وقبل الزعيم كما مدحني امام الرئيس لأني قمت بواجبي كما قال "بدبلوماسية ومهنية". كانت تعلو وجهه ابتسامه الانتصار فقد اثبت الزعيم صحة ما قاله هذا الرجل الطيب وأن كل ما أراد الزعيم "كريم" - كما كنا نطلق عليه حين الحديث عنه - هو تقديم الاعتذار بنفسه وقطع جلسه مجلس الوزراء احتراماً واعتزازاً ليس إلا. وجهني الزعيم بأخذ كل المستمسكات والأوراق والقيام بالمعاملة القانونية لإصدار جواز سفر "خاص" له. في اليوم التالي ذهب مدير جوازات بغداد بنفسه ليقوم بالإجراءات في بيت العقيد المتقاعد، الذي اتصل بي قائلاً بأن علي تدبير كفيل كما تقتضي الأصول القانونية المرعية. في نهاية داوم ذلك اليوم سألني الزعيم ماذا حل بموضوع العقيد.. فأخبرته بما حصل

وقال: اتصل فوراً بمدير الجنسية واخبره بان يأتي بالأوراق كاملة وبضمنها النواقص وعلى رأسها استمارة الكفيل. جاء المدير بعد ساعتين وقد فزع حينما طلب الزعيم منه ان يحضر أمامه. أوضح المدير أسباب التأخير وان المتبقي هو فقط تدبير الكفيل ويدفع المتقدم رسوم الجواز. طلب الزعيم من المدير استمارة "الكفالة" وسأله: هل يحق لي أن أكون الشخص الضامن "الكفيل"؟. سأل مدير الجوازات رئيس الوزراء: كم هو راتبك وهل لديك أملاك؟... فأجابه الزعيم بأن راتبه هو راتب زعيم في الجيش ولا يملك دارا. قال المدير: أن راتبك كرئيس وزراء او وزير دفاع يكفي ويزيد وهنا أجاب الزعيم: انا فقط استلم راتبي العسكري ليس إلا وهنا تبرع مدير الجنسية العام وقال ان راتبه وراتب الزعيم يفي بالغرض. طلب من سكرتير وزير الدفاع وعلى ما أتذكر الرئيس جاسم كاظم العزاوي الأتيان بوثيقه راتبه الشهري التي اعتبرها مدير الجنسية تفي بالغرض القانوني ووقع الزعيم استمارة الشخص الضامن. قال المدير ان كل شيء سيكون جاهزاً وسيقوم بإصدار الجواز حال دفع رسوم الجواز البالغة خمسة دنانير. دفع الزعيم من جيبه المبلغ وطلب من المدير ان يكمل الجواز وان يبعث به مع أحد الموظفين الى بيت العقيد المتقاعد. فهمت بعد ذلك من مدير الجوازات أنه ذهب في صباح اليوم التالي وسلم الجواز بنفسه.

لم اسمع شيئا عن العقيد الا بعد ثلاثة أشهر حينما وصل لزيارتي وقدم لي هدية هي ربطة عنق من الحرير بعد عودته من لندن اذ كان قد قصدها لأجراء بعض الفحوص الطبية وكانت السبب لطلب جواز السفر. وهناك الكثير من القصص الإنسانية التي لو كتبتها كلها لضاع خيط أفكاري وضاع معها ما اردت ان اكتبه عن الزعيم الطيب حينما شاءت الاقدار ان أكون شاهداً على الأحداث أرويها دون رتوش وكما رأيتها بأم عيني والله على ما أقول شهيد. وهناك العشرات من الأمثلة التي أستطيع ان أسوقها في شهادتي هذه.. تلك الأمثلة التي تدل على نبل الزعيم وطيبته ووطنيته وان كنت على هامش تلك الأمثلة لكنها انعكاس صادق لواقع الرجل الإنساني والنظيف. كان عفيف اللسان لم يكن يملك حتى بدله مدنية واحده تليق بمنصبه. في احدى الزيارات لبيته حاول ان يلبس بدلة مدنية كان يحتفظ بها وطلب مني "تقريمها"، فقد كان اكثر سمنة حين "فصلها" قبل اكثر من خمس سنوات، فلما حاول ارتداءها لم استطيع كتمان

ابتسامتي فالتفت الي رحمه الله وقال: قديمة "الموديل"، لكن قماشها ممتاز؟! فاجبت: نعم سيدي صحيح، ولكنك تبدو اكثر اناقة في الزي العسكري!!. استشف من كلامي المؤدب انها غير لائقة... وهكذاعاش الرجل ومات ببدلته العسكرية!. كانت لديه ثلاث بدلات عسكرية صيفيه وثلاث شتائية وستة قمصان عسكرية. كنت اخذ تلك الملابس للمكوى اليدوي في ذلك الزمان حين يمرض السائق او يذهب لزيارة اهله او مدينته في الجنوب ولهذا اعرف عددها بدقة. وللتاريخ أقول أيضاً أن الرجل كان كريماً مع مراجعيه من المواطنين. كان يدفع إيجار بيته بداية كل شهر ويعطي ثلاثين دينار لمدبرة المنزل ويدفع أجور الهاتف لبيته كل ثلاثة شهور. سأكتفي بذلك فقط لأني لا أُريد ان تضيع الحقيقة التي لمستها وشاهدتها وعرفتها عن قرب اثناء تواجدي في مكتب الاستعلامات في مقر قاسم التي اعُدها تجربة خاصة أرويها لأول مرة بعد خمسن عاماً... وهكذا انتهى الفصل الأول من عمر الثورة.

عصيان الشواف

بإنتهاء عام 1958 كانت الأحداث تتلاحق داخلياً وخارجياً، فعلى الصعيد الداخلي كانت هناك إجراءات جادة وجذرية وضعت الأسس لبداية ثورة نقلت البلد وبوضوح من مرحلة الأنقلاب العسكري الى مرحلة الثورة. كان الدستور المؤقت أساسها وكذلك قانون الإصلاح الزراعي الذي قوض النظام الأقطاعي بأكمله فضلاً عن التخطيط للسير بخطى ثابتة نحو محو الأمية التي كانت متفشية في ثلثي سكان العراق. كما سعت لوضع الخطط الأساسية لتطوير الوضع الصحي في البلد لاسيما في المدن والقرى خارج العاصمة ومد شبكات الكهرباء والماء لها والأعتناء ببناء شبكة مواصلات حديثة وأصدار قانون الأحوال الشخصية الذي ألب القوى الرجعية وعلى رأسها الدينية والاقطاعية والتي منحت المرآة ولأول مرة في تاريخ العراق الحديث حقوقاً ثبتتها في القانون المدني.

وعلى الصعيد الدولي أعلنت حكومة الثورة إيمانها بسياسة الحياد الإيجابي وقوضت حلف بغداد الذي بات من الناحية العملية منتهياً وأنسحب العراق منه رسمياً في الرابع والعشرين من آذار عام 1959. كما بدأت الخطوات العملية لأنسحاب العراق من منظمة الأسترليني الذي انجز فعلياً في الرابع من حزيران عام 1959، وبذلك تحُرر الأقتصاد العراقي من التبعية الأقتصادية لبريطانيا والغرب.

لم يمضِ عام واحد على عمر الثورة حتى ألغيت رسمياً في الرابع عشر من مايس من عام 1959 إتفاقيتا المساعدات العسكرية التي عقدت مع الولايات المتحدة في العامين 1954 و 1955 واللتين انتهتا بضم العراق الى حلف النفوذ الأمريكي الذي وضع أسسه الرئيس الأميركي ايزنهاور ووقعه العراق عام 1957. كما أتجه الزعيم قاسم الى تحدي سيطرة شركة النفط البريطانية (BPC) في العراق وبدأ بالتفاوض معها بعد شهر واحد من الثورة تحديداً في العشرين من آب من عام 1958. كان حذراً جداً في تعامله معها، فقد كانت تجربة مصدق (في إيران) قبل خمس سنوات ماثلة أمام مهندسي تلك المفاوضات وكان مفكرها ومحركها هو الأقتصادي الوطني المعروف

"إبراهيم كبة". انتهت المفاوضات بعد ثلاث سنوات بأصدر قانون 80 لسنة 1961 الذي انتزعت بموجبه حكومة الثورة الوليدة "99,5٪" من الأراضي غير المستثمرة من الشركات الأجنبية في ذلك الوقت. وعُقدت بقيادة "إبراهيم كبة" وزير اقتصاد الثورة أتفاقيات تعاون إقتصادي مع المعسكر الأشتراكي حصل بموجبها العراق على مساعدات مالية واقتصادية لتطوير الأقتصاد والتنمية التي قادته الى طريق تحرير الأقتصاد العراقي من سيطرة النظام الرأسمالي الدولي في محيط الحرب الباردة.

أما على الصعيد العربي، فقد أتجه العراق في الشهر الأول للألتحاق بركب التحرر العربي، فأنسحب من الأتحاد العربي الهاشمي منذ اليوم الأول للثورة. وبذلك اختل التوازن الإقليمي لصالح الجمهورية العربية المتحدة التي آزرت العراق منذ انطلاقة ثورته وعقد العراق ومنذ الشهر الأول من عمر حكومته الجديدة أتفاقية التعاون العسكري مع أتفاقيات أخرى للتكامل الأقتصادي والثقافي معها. كما دخل العراق بكل ثقله لمساندة ثورة الجزائر ومنحها مساعدات مالية كبيرة فضلاً عن تدريب مقاتليها في معسكرات الجيش العراقي. ودعم - أيضاً - حركة التحرر الفلسطينية وقام بأنشاء وتدريب نواة جيش التحرير الفلسطيني، فضلاًعن مساندة حكومة الثورة معظم حركات التحرر الوطني في العالم وبخاصة حركات التحرر في القارة الأفريقية. واستقبلت وفود حركات التحرير من جميع انحاء العالم. وقد حفز ذلك كله القوى الخارجية على التحالف مع القوى الرجعية الداخلية لضرب هذه التجربة الجديدة.

بدت الثورة كما لو انها قد ثبتت أقدامها على طريق الأستقرار وبناء العراق الجمهوري لولا أن دب الخلاف ومنذ الساعات الاولى بين قائد الثورة عبد الكريم قاسم ونائبه عبد السلام محمد عارف. وتفاقم داخلياً وغدا جلياً بعد اقل من شهرين من عمر الثورة. فقد كانت شخصية وطموح وربما عاطفية وسذاجة عبد السلام عارف السياسية من بين الأسباب الدافعة لخلق جو من الريبة والشك وربما -أيضاً- التوتر بين قائدي الثورة. وكان حب الظهور لدى عارف أحد الأسباب الرئيسة لنفور الكثيرين منه. فبينما كان لطيف المعشر وبسيطاً في تعامله مع المحيطين به إلا أنه كان يبدو أكثر

عدائيه أذا لم تستجب لأوامره التي يطلقها بصرامة عسكرية وفضاضة غير مدنية. كان يتصرف كقائد عسكري وعلى البقية أن يأتمروا بأمره والرضوخ لـه. كان ذلك صعباً بالنسبة لجمع المحيطين به. كما طغت على سلوكه المزاجية وتغير بعـد أن أحس بنفور وملل الأخرين منه ومن أوامـره أو تنفيذها. وفي الأيام الأولى مـن الثورة كان يتصور بان ربط العراق بالجمهورية العربية المتحدة ورئيسـها الزعيم الوطني جمال عبد الناصر هـو الطريـق الطبيعي لأنجاز مهـام الثورة وأهدافها. لهذا تبنى شـعار الوحـدة العربية دون تمحيص أو فهم النتائج الداخلية والإقليمية والدولية المترتبة عليه. ونتيجة لذلك إنقسـمت القيـادة في أيامها الأولى بـين مؤيدين ومعارضين لهذا النهج. وأصبح شـعار الوحدة العربية الفورية الذي تبناه العقيد عبد السـلام عارف هو العامل الرئيسي لشـق وحدة الصف الوطني، فالتف القوميون حول عبد السـلام عارف بينما ألتف الأخرون حـول عبد الكريم قاسـم. وما أن حل شـهر أيلول مـن عـام 1958 إلا وكانت القوى القومية إما خارج التشـكيلة الوزارية او مجمدة في داخلها كذلك. بأنتهاء الشـهر الأول من الثورة جرد عبد السلام عارف من مناصبه العسكرية والمدنية جميعها. وكانت تلك بدايـة توسـع الهوه بين القـوى الوطنية القوميـة وحكومة الثورة وفسـح المجال للقوى الرجعية المتمثلة بالإقطاع ورجال الدين وايتام العهد البائد للأتحاد والتحضير لمواجهة عبـد الكريـم قاسـم وإصلاحاتـه الأجتماعيـة. ووجدت من أجـل زيادة هـذا الشرخ المخابـرات الغربية (لاسـيما البريطانيـة والأمريكية) فرصتها لتجهز عـلى الثورة وتحييد العراق إقليمياً لإعادة السـيطرة الأجنبية عليه. وكان حزب البعث ألتها التي استغلتها المخابـرات الأمريكية وإدارتها مبـاشرة كما تبين من الدراسـات الأكاديمية الجادة التي ظهـرت لاحقاً والمسـتندة الى وثائـق وزارة الخارجيـة الامريكية ودوائـر مخابراتها التي مهدت لحزب البعث لاستلام السلطة كما سيرد ذكره لاحقا.

بعد قرابة ستة أسابيع من عمرها توجهت قيادة الثورة للتعامل مع ترسبات القضية الكردية بضمنها التنمية الأجتماعية والأقتصادية، فأصدرت في الثالث من أيلول عفواً عاماً عن المشـاركين في الثورة البرزانيـة الثانية (1943-1945) التـي قادها مصطفى الـبرزاني ضد النظام الملكي وإنتهت بلجـوء الثائرين الأكراد أولاً الى إيران وعلى وجه الخصوص إلى جمهورية مهاباد التي لم تستطع الوقوف على قدميها لأكثر من عام واحد

فأضطر البرزانيون للهجرة الى الأتحاد السوفياتي. في الخامس من تشرين الثاني عادت القيادة البرزانية إلى بغداد واستقبل الزعيم عبد الكريم في مكتبه الزعيم الكردي الملا مصطفى البرزاني واخاه الأكبر أحمد بحفاوة. وخصصت الحكومة مرتباً شهرياً يعد عالياً ومجزياً بالقياس مع مرتبات ذلك الوقت للملا مصطفى وكان بحدود (500) دينار وهو أعلى من راتب الزعيم بل سجل أعلى راتب في الدولة العراقية حينئذ. كما خصص لأخيه الأكبر احمد راتباً ومقداره (150) دينار. كما خصصت له الحكومة بيت نوري السعيد عدوهم اللدود سكناً وجعلت سيارة "الوصي" عبد الأله تحت تصرفهم. وفي السادس عشر من نيسان عاد أتباع البرزاني مع عوائلهم الى الوطن وكنت من بين المستقبلين لهم في ميناء البصرة مع وفد بغداد الرسمي. نشأت علاقة حميمة بين الملا مصطفى والزعيم. كما بدأت حملة إعمار منطقة برزان وتزويدها بالكهرباء وتعبيد طرقها. وخصصت الحكومة رواتب شهرية للعائدين وبنت لهم المساكن (الصورة رقم - 20). وهذا كله حصل في اقل من ستة أشهر من عمر الثورة.

في الأسبوع الثاني من كانون الأول أحيل عارف الى محكمة الثورة بتهمة التحضير لأنقلاب عسكري. وما أن حل عام 1959 إلا وكان الشارع العراقي في غاية الأنقسام وبدأت إشارات التخبط من الرئيس الفعلي للبلاد تظهر بالتدريج وبدأت تسري إشاعات تتحدث عن مؤامرات تحاك في الخفاء وأن القوى المضادة تحضر للأنقضاض على الجمهورية.



الصورة رقم (20): في السفارة الصينية شتاء عام 1958، من اليمين، اركان السفارة والمؤلف وملا مصطفى البرزاني

كان الزعيم عبد الكريم قاسم يحاول أن لايكون محسوباً على أية جهة سياسية وخاصة اليسارية منها وبالتحديد الشيوعية. فهو - في رأيه - يمثل القوى الوطنية كلها وليس جزءا منها، لذا ابتدع شعار "فوق الميول والأتجاهات". ولكنه - كما أرى - كان يميل ويحترم أراء وأفكار الحزب الوطني الديمقراطي. في أحدى الأمسيات بمعرض حديثه مع أحد الوزراء- وبصورة عفوية - نيته تكليف حسين جميل تولي وزارة الأرشاد الشاغرة وذكر "بأن هذا الرجل من حزب تقدمي له رصيده الشعبي"، كما أن ميله لمحمد حديد وأحترامه لكامل الجادرجي رئيس الحزب كان واضحاً حينما طلب الجادرجي هاتفياً، وكنت في تلك الليلة ضابط الخفر. قمت بترتيب المكالمة بناءاً على طلب الزعيم على الرغم من اني لم اسمع ما دار بينهما ألا أني إستشعرت مقدار إعتزازه بالجادرجي. وكان يلاطف - أيضا - الوزير الشاب من الحزب "هديب الحاج حمود" ويفخر لكونه كان أحد تلاميذه عندما كان معلماً في الشامية مسقط رأس هديب. وبعد استقالة الوزراء المنقلبين او المتعاطفين مع التوجه القومي في الخامس والسادس من شباط عام 1959، أصبحت الوزارة حكراً للمحسوبين على الحزب الوطني الديمقراطي. وهكذا تم تشكيل الوزارة الثانية لقاسم في السابع من شباط.

أزداد شعوري بالقلق والخوف من المستقبل وزيادة شكوكي بتوجهات قاسم "الفردية" فالزعيم يعمل ليلاً ونهاراً يستشير الكثيرين ولكنه يفاجئ - في الكثير من الأحيان - الجميع حتى المقربين منه بقراراته. كنت أسمع - بحكم وجودي في مقره - همسات التذمر خافته وأرى علامات الحيرة لدى أقرب مستشاريه وكذلك الوزراء المقربين. كان ذلك ممكنا في تلك الأيام لعدم وجود الحواجز التي تحمي "الزعيم" ولبساطة شخصية الرجل ومحدودية خبرته في عمله الرسمي والإداري. كان يعمل ويتصرف بعقلية أمر اللواء التاسع عشر الذي كان يقوده قبل الثورة. كانت بعض الإشاعات تسبق مايصدر من رئيس الوزراء من قرارات وكان الكثير من هذه الإشاعات مدسوسة وغير صحيحة لكنها تنتشر بسرعه فائقة فتخلق البلبلة في البلد وتفي بغرض خلق الفوضى وتزيد من القلق لدى الرأي العام. كانت تلك من أهم دعائم هدم ثقة الجماهير العراقية بالثورة وقياداتها والتي كانت الأداة الرئيسة لنجاح الحرب النفسية التي أججتها الدول المعادية للنظام الجديد داخلياً وإقليمياً وحتى دولياً.

في ذلك الجو الخانق والمشحون بالكثير من التناقضات كانت حالتي النفسية تتدهور وأنا ذلك الشاب في مقتبل العمر ليس لديه القدرة ولا السلطة ناهيك عن الأهمية والتجربة لفهم مايحصل او التأثير فيه. كنت أفكر وألجأ - وان كنت حذراً- الى تسجيل خواطري كما كنت أفعل طيلة حياتي منذ الدراسة الثانوية. ففي تلك المدونات وتحت تأريخ التاسع عشر من شباط عام 1959 ، سجلت وبالحرف الواحد ومن دون أي تغيير: "هذا هو شهري الأول ينصرم كضابط أحتياط وهذه أول تجربة لي في الجيش وأول مسؤولية في حياتي فأشعر بأكتئاب شديد وأحباط نفسي، ولعل ذلك بسبب الجو البارد والممطر وربما لأن درجة الحرارة إنخفضت لدرجة أني أضطررت أن ألبس معطفي داخل دائرتي، هذا مكتب رئيس الوزراء". لأول مرة منذ قيام الثورة أشعر بنوع من الأجهاد والتعب الممزوج بالألم والخوف، ربما سكون الليل وهدوء المكتب لهما أثر في ذلك! وربما لشوقي ولتصميمي على أكمال الدراسات العليا كان عاملاً مساعداً في ذلك!. لا أدري، لا استطيع حتى الجلوس على مكتبي وعلي أن أكون في حالة التأهب الكامل وبكل قيافتي العسكرية فالزعيم ما يزال في مكتبه. قد ينام في مكتبه وغالباً ما يذهب الى النوم في بيته عند عطلة نهاية الأسبوع وهو يوم غد ولكـــن!!؟. الساعة الأن قد تجاوزت الثانية والنصف بعد منتصف الليل، ولا أثر للزعيم. أشعر بنوع من عدم الأستقرار والاحباط. أكاد أختنق من ضغوط العمل ومتطلباته وواجباته، فأنا في أدنى درجة في مكتب رئيس الوزراء ولهذا تنهمر علي الطلبات من كل جانب وما علي إلا السمع والطاعة. المشاكل كلها - التي أشاهد بعضاً من جوانبها - على كاهل الرجل، فليكن الله في عونه. أملي أن أستطيع النوم غداً الجمعة لساعة متأخرة من النهار. سمعت وقع خطوات الزعيم وهو ينزل من سلم البناية، ومعه حافظ علوان مرافقه الأقرب ورأيت سيارة الزعيم بإنتظاره وسائقه متأهب لأستقباله وكانت بحدود الساعة الثالثة صباحاً، وبدا مرهقاً ومتعباً وباغتني الزعيم بقوله "بعدك كاعد"؟؟ أي أما زلت صاحياً؟؟ فوقفت خجلاً من دون إجابة لكنه قال" روح نام... تصبح على خير" - أي أذهب لتنام - وهأنذا أتابع هذه الخاطره. "لست أدري لماذا أنا في هذه الحالة النفسية فأنا في وظيفة يحسدني عليها الكثيرون من أقراني ويعدونني محظوظاً. أنا في وضع مريح من كل النواحي والزملاء

الذين أعمل معهم في غاية الطيبة وعملي مع الناس هو ما أحبه واستمتع به وهو في غاية البساطة. لكنني أشعر بنوع من الضغط النفسي، وأريد أن أترك هذه السطور وأتمتع بنوع من الراحة فأنا لا أستطيع أن أستمر ولابد أن أذهب إلى فراشي ولكنني أريد أن أكمل هذه الخاطرة، ربما التفكير في مستقبلي بعد أكمال خدمة الأحتياط العسكرية والسعي لأكمال الدراسات العليا في حقل جديد عشقته ولم يكن موجوداً في الجامعات العراقية. كنت أحلم بدراسة العلاقات الدولية لاسيما موضوع السياسية الخارجية، أريد المحافظة على هذا وأكون في كامل قواي النفسية.. أنا متعب وفي غاية الإحباط.. اليوم كان إعتيادياً بالنسبة لي ولكنني اشعر بالأختناق! اكرر ما تعلمته من الوالدة في مناسبات الضيق هو: الله الساتر!".

إزدادت الشائعات في البلد بين الفئات كلها حول بداية التذمر والتآمر في الجيش. ما أن حل شهر شباط إلا وكانت البلبلة تتفشى في مفاصل الدولة واتجهت الأنظار الى مواجهه بين الفئات السياسية وعلى الأخص مع الحزب الشيوعي وواجهاته الجماهيرية. حدث ذلك حين أقرت جماعة أنصار السلام وبمساندة الحزب الشيوعي عقد مهرجانها في مدينة الموصل، التي تُعدُّ معقلاً للتوجهات العربية القومية. وقد عَدت الكثير من الجهات الموصلية ولاسيما الجهات القومية أن المهرجان تحدياً لتلك المدينة وإستفزازاً لشعورها السياسي. حاول البعض وعلى رأسهم زميل الزعيم قاسم، محمد صديق شنشل في اخر أيامه في الوزارة - على الرغم من انه كان معتكفاً في منزله ولايحضر اجتماع مجلس الوزراء قبل استقالته رسمياً يوم الخامس من شباط - أن ينبه الزعيم إلى حساسية ذلك التحدي وناشد الزعيم بان يَحُول دون حدوث ذلك. أنتظر أكثر من ثلاث ساعات في مكتبي لمقابلته وبعد خروجه من المقابلة بانت عليه علامات اليأس وان لم يفصح عنه لأحد وربما كانت اخر مقابلة له مع الزعيم والتي على أساسها إستقال الوزراء القوميون في اليوم التالي، فالرجل له وزنه السياسي.

لقد كان لتجمع العواصف السياسية سبباً في شعوري بعدم الطمأنينة وزاد من شدة ذلك الإحباط الذي ذكرته انفاً. وفي الليلة نفسها رأيت العقيد الركن عبد الوهاب الشواف آمر حامية الموصل الذي وصل فجأة طالباً مقابلة الزعيم. جلس معي في

مكتب إستعلامات وزارة الدفاع وكان في غاية اللطف وقال لي.. ما رأيك ان تعمل معي في الموصل..؟ فأكدت له باني أمل أن التحق بالدراسات العليا حين الأنتهاء من خدمة الأحتياط، ورجوت منه المساعدة في ذلك، ووعدني خيراً.. ولم أره إلا وهو جثة هامدة - رحمه الله - في الطبابة العسكرية في الموصل بعد أقل من شهر واحد.

كان العقيد الشواف مثقفاً واسع الإطلاع وأعتقد أنه كان أكثر تقدميا من كثير من أقرانه من الضباط الأحرار. وحتى من عبد الكريم قاسم نفسه، وكان لا يحترم عبد السلام عارف. في أحدى الزيارات التي قام بها لوزارة الدفاع وكان ذلك في الأسبوع الأول من الثورة وقد فهم من البعض بأن عبد السلام كان غاضباً عليّ، قال: لابد ان يكون ذلك لأنك ذكي ولاتعرف كيف تتزلف!! قالها مازحاً!. كان صريحاً وإيجابياً. كان الشواف على خلق كريم ويتعامل معنا بغير تكلف ونعرف غضبه من إرتياحه. وقد وصفه البعض بالصعب المراس، وأعتقد أن هذا سر شخصية الرجل. عندما غادر الوزارة بعد مقابلته قاسم ولم يعرج على مكتبي كعادته، عرفت بأن المقابلة في ذلك المساء لم تكن على ما يرام! وعلمت بعد ذلك بأنه جاء طالباً من قاسم إلغاء المهرجان لأن الوضع العام في المدينة متوتر وأن المتصرف ومدير شرطتها رجوه أن يتدخل لحل هذا الأشكال ولهذا حضر. كان ذلك يوم الخميس قبل نحو أسبوعين من أعلان العصيان. وربما كانت تلك القشة التي كسرت ظهر البعير وأنتهت بتمرده.... والله أعلم...

كانت الإشاعات تؤكد أن شيئاً ما سيحدث وأن أمواج الغضب على وشك أن تعصف بالبلد. وما أن حل الأسبوع الأول من أذار عام 1959 إلا وكانت معظم وحدات الجيش في حالة أنذار، وكانت دائرة الزعيم تعج بالكثيرين. الجميع متأهب لشيء ما!!. الترقب على أشده وحتى الزعيم وطاقمه كانوا على حافة فوران نفسي غريب. تعلمت في أثناء عملي مع قصر مدته، أن أقرأ الوجوه وأستنتج الأحداث. أيقنت أن شيئاً مهماً في طريقه للظهور على السطح، وبدأت أضرب أخماساً بأسداس باحثاً عن ماهية ما ستأتي به الأقدار قريباً.

كان مساء الخميس السادس من أذار عام 1959 يختلف عن غيره من عطل نهاية

الأسبوع، فالجميع كانوا ملتحقين بواجباتهم ومقر الزعيم بدا كخلية نحل والزوار معظمهم من ذوي الشأن في الجيش والدولة. توالت الأجتماعات حتى ساعات متأخرة من الليل على غير العادة. نام الجميع في دوائرهم. إستدعى الزعيم اليوم العديد من قادة الفرق العسكرية ومن يعدّهم مسانديه، منهم الزعيم طه الشيخ احمد مدير الخطط العسكرية ومن أقرب الناس لقاسم فعلى الرغم من أن عمله من المفروض أن لا يكون مع الأستخبارات فأنه كان الرجل الذي أوكلت له الأستخبارات المدنية والعسكرية كلها وحتى أنه كلف بالاشراف المباشر على الشرطة والأمن. قضى اليومين الماضيين مع قاسم وكذلك أحمد صالح العبدي رئيس أركان الجيش والحاكم العسكري العام وأمر الأنضباط العسكري الزعيم عبد الكريم الجده، صديق طفولة عبد الكريم قاسم وكان جلال الاوقاتي قائد القوة الجوية معهم أيضاً. وما زلت أتذكر وجوههم، فالصرامة والجدية والأستنفار واضحة على وجوههم. وما أن حل صباح الجمعة إلا وكانت الأزمة على اشدها. كأن الجميع على جمر وكلنا في حالة تأهب مقرون بالخوف.

في صباح السابع من أذار علمنا بالخيوط الأولى للعصيان في حامية الموصل التي كان من المفروض ان تبدأ منها ساعة الصفر لتتبعها وحدات أخرى في قطعات الجيش في العراق كله بضمنها عرين قاسم وزارة الدفاع ومعسكرات بغداد. أعلن الشواف تمرده من مقر حاميته بمعسكر الغزلاني في الموصل. وكان من المفروض أن تتوالى على متمردي الموصل الإسناد من القطعات العسكرية من مختلف مناطق العراق. كانت ساعة الصفر الساعة السابعة من صباح السابع من آذار ولكن لم يستجب أحد واقتصر العصيان على الموصل وحاميتها. وحتى حامية الموصل نفسها لم يكن ضباطها جميعا على تناغم تام مع الشواف.

في المساء إنتهت الحركة في مهدها والظاهر أن الزعيم ورئيس أركانه والقيادات العسكرية قررت التعامل مع نتائج الأنقلاب الفاشل بسرعة!! وصدر بيان الزعيم من الأذاعة معلنا فشل محاولة الانقلاب. أرسل الزعيم في طلب الكثير من العسكريين الذين يثق بهم وكان في إجتماع متواصل طيلة اليوم ومعظم الليلة التالية. وأخيراً وبعد منتصف الليل أتصل بي - وكنت في مكتبي - رئيس المرافقين وصفي طاهر طالباً

حضوري الى مكتبه. وجدت العقيد حسـن عبود والذي فهمته من العقيد وصفي بأن العقيد حسـن سيحل محل الشـواف في قيادة حامية الموصل وأردف بان العقيد حسن يريد أن تكون برفقته! لا أخفي سراً بأني صدمت من المقترح، فأنا لست ضابطاً مهنياً! فكيـف أتخلص من هذه المسـؤولية؟ فأن حاولـت إيجاد العذر وإعـلان الحقيقة فلابد أن يفسر هذا بأنها محاولة للتخلص من المسـؤولية، وأقل ما يقال بأنه جبن وخوف!.. قبلـت بالأقتراح وقال العقيد حسـن سـنغادر حال إكتمال نصاب بقيـة الطاقم للقيادة الجديدة فأن الطائرة بأنتظارنا في المدرج.

بعد ثلاث ساعات كنا في طريقنا الى الموصل، ثلاثة فقط "حسن عبود أمرنا الجديد وضابط ركنه وأنا". في الطائرة تحدث العقيد حسن عما حصل في الموصل وفي معسكر الغزلاني مقر الحامية. كان الوصف واقعياً جداً فقد أشار الى سيطرة قوات العقيد عبد الوهاب على المعسكر وأن الطائرات قصفت مقر الشواف وأصيب على اثرها بجروح بليغة. وحينما نقل الى المستشفى إغتاله أحد "المضمدين" وهرب مساعّدوه الى سوريا. أستمرت المناوشات بين أنصار الزعيم قاسم والمتمردين لساعات عدة إنتهت بسيطرة القوات الموالية للحكومة على الرغم من إستمرار الفوضى التي سنسعى نحن لمواجهتها فيـما بعد. ثم أضاف العقيد بأن الحكومة المدنيـة لاوجود لها وأن مدير الشرطة الجديد الذي عينه الزعيم قاسـم قبل نحو أسـبوعين هو ضابط متقاعد وكل رصيده الوطني هو انه كان مرافقاً لبكر صدقي قائد أول إنقلاب عسكري في العراق قبل أكثر من ربع قرن. وأسَر لنا العقيد بأن أسـماعيل عباوي مدير الشرطة ليس ممن يُعتمد على قيادتهم ولاحتى ولائهـم واختتم قائلا ؛ نحن الثلاثة القيادة الجديدة للمعسـكر وللمدينة!!. وصلـت طائرتنـا الى الموصل وهبطت في المطار العسـكري الكائـن في اطراف الحامية وليس بضمنها وكان بإنتظارنا بعض الضباط المخلصين للزعيم والرافضين للشواف. كانـت علامـات الأجهـاد واضحة عـلى وجوههـم وملابـس البعض منهـم ملطخة بالدمـاء. كان ضابط الركـن في غاية رباطة الجأش وكان طويل القامة وحسـن الهندام تصوره الجنود وبعض الضباط بأنه عبد الكريم قاسـم!!. اقترحت على العقيد حسـن ان نوضـح الألتباس لأن الأثر المعنوي لهـذا الإلتباس ليس من صالحنا في هذا الموقف المتوتر.

يتمتع حسن عبود بشخصية عسكرية مثقفة ولها حضورها وهيبتها. كان مهنياً وفي غاية الجدية فضلاً عن حسن هندامه ووجاهته. شق الآمر الجديد طريقه وسط ازيز الرصاص ونحن خلفه وكان رابط الجأش شجاعاً واستلم القيادة ومارسها منذ لحظة وصوله مطار الحامية وأجتمع أولا بقيادة القوة الجوية في مقرهم وأمر بتعيين مسؤولها الجديد. أتجهنا في سيارة عسكرية مع ثلة من الجنود والضباط الى مقر القيادة في وسط المعسكر والوضع ما يزال خطراً وإطلاق الرصاص مستمراً. وحال دخول الآمر الجديد مقر قيادته بدأ بحزم إدارة الموقف وعلى الفور قام بتوزيع المسؤوليات على الضباط الموالين وتهدئة الأخرين. أسند الى ضابط الركن المسؤوليات الإدارية بينما كلفت أنا بإدارة مكتبه، تماما كما تعلمته في الشهرين السابقين في مكتب وزير الدفاع. سَرت في عروقي أيضا مهنية القائد الجديد وضابط ركنه ووجدتني ادخل في حياة عسكرية لست منها ولا من طالبيها... ولكن الظروف تجعل منا حينما يتطلب الموقف أناساً اخرين.

ما أن أنتصف النهار الأ والوضع في مقر القيادة بدأ يأخذ إتجاهه نحو الهدوء، ولكن ما زال الكثير من الأرتباك في الإدارة وما زالت الفوضى عارمة في القاعدة كلها وكانت بقية القواطع العسكرية بقيادات غير منتظمة بعد فشل الانقلاب ومقتل قياداته او اسر بعضها. وبينما كان ضابط الركن مشغولاً بإعادة تنظيم وهيكلة الإدارة العسكرية وجهني قائدنا الى الطلب من الضباط في ضواحي مركز القيادة الإستمرار في وظائفهم ومسؤولياتهم حتى يتضح الموقف كما أوعز اليّ أن أستعمل ذكائي الفطري لأختيار أربعة او خمسة ضباط ممن أستشف منهم الألتزام بحكومتنا وقبولهم الأوامر من مأموريهم، فأن الوضع أفرز قيادات أنية على الرغم من كونها غير نظامية إلا أنها مقبولة. طلب مني أن أتركه لوحده يتصرف على أن أعود وبأقرب فرصة مع الأسماء المقترحة. اخذت معي ضابطين وثلاثة من المراتب العسكرية (ضباط الصف) من الذين يبدو عليهم الانضباط العسكري وأنا اعرف أهمية ضباط الصف في تدبير أمور جنودهم بوصفهم حلقة الوصل بين الضباط والجنود.

ومنذ اللحظة الأولى وحال وصولنا الى المطار في الموصل التصق بي رئيس عرفاء في أوائل كهولته وله عضلات المصارع وحضوره الواثق وبدأ يعمل من دون توجيه

بأمرتي. كان كرديا، جدياً وشجاعاً وملتزماً بالانضباط العسكري وقد كان في غاية السعادة حينما أتضح له بأني أتكلم الكردية وأن والدتي من أبناء جلدته. زاد تفانيه في مساعدتي حينما أتضح له بأن الوالدة من قبيلته "شيروان". كان رئيس العرفاء حمه قادر ذكياً بالفطرة وطيباً أيضاً. بدأت جولتي وعدت بعد ثلاث ساعات برفقة حمه قادر الذي اختار عريفين ممن يعرفهم وعدنا الى المقر ودخلنا على القائد الذي تحيط به ثلة من الضباط وبدأ كما لو كان هو في وضع السيطرة التامه، على الأقل هكذا بدا لي. استأذنته أن يكون معنا حمه قادر فوافق وقمت ببيان وجهة نظري وأستنتاجاتي وأنا أطلب من حمه قادر بيان صحة او عدم صحة ما أقول. تحدثت معه باللغة الكردية وطلبت منه ان يومئ برأسه حينما أصيب وان يتلكأ حينما أخطيء في تقييمي، فهو أبن القاعدة وأنا الطارئ الجديد عليها. لم يعترض إلا على أسم واحد من الأسماء السته الذين قدمتهم للقائد. وبعد ساعتين أو ثلاث وفي المساء أنتظم شمل أول مؤتمر عسكري لقائد الحامية وفيه القيادات التي كانت تتعاون معه والضباط الخمسة الذين اخترتهم من مختلف الرتب العسكرية. كان عدد الحاضرين - على ما أتذكر - لايزيد عن العشرة فضلاً عن القائد وضابط ركنه وأنا. كان يوما مشهودا بالنسبة لنا جميعا لايزال أثره عَلي حتى يومنا هذا بعد اكثر من ستة عقود قد مضت!.

لقد هزني نخوة وإلتزام تلك المجموعة وإلتزام وصلابة قائدنا الجديد الذي نال ثقة العاملين معه كلهم لطيبته وحزمه واحترامه لمن عمل معه. لم يتوان أبداَ من تبيان من هو القائد ومن هو المرؤوس من دون تكلف او تظاهر وكان انساناً قبل كل شيء. كان "حمه قادر" في غاية الطيبة والكفاءة وأول اقتراحاته كان تأمين غذاء الجنود وضيوفهم- نحن- وما أن حل موعد مؤتمر المساء حتى هيأ لنا بعض الأكل والماء ولكن بعد أن أمن للبقية إحتياجاتهم، كان هو اخر من التحق بنا ونحن نقتسم ما استطاع تأمينه من طعام وأصبح مكتب القائد مائدة لطعامنا! وعندما حل منتصف الليل كان هناك هيكل أداري عام للقيادة.

وصلت في اليوم التالي مجموعة من الضباط من مختلف قطعات وصنوف الجيش العراقي التي اختارها حسن عبود لتملأ شواغر الهيكل الجديد الذي وضعه مع ضابط

ركنه الكفوء والمثابر. كانت أول أوامر القائد هو ان نوقف فوراً الفوضى اولاً في المعسكر لاسيما الأعتداء على الضباط من مختلف المراتب من الذين يطلقون الرصاص من دون أوامر. بدأ بعض الجنود بوصف بعض الضباط بالمتآمرين، فقد كان احد ضباط الصف في حالة نفسية وهياج، فهاجم احد الضباط وأنهال عليه بالتهم والسباب في الساعه الأولى من وصولنا، فما كان من القائد إلا ان قاطعه بشدة وأمرني باعتقاله فوراً بتهمة عدم الأنضباط. كانت أولى تدخلات حمه قادر بأن قام بإجراءات الأعتقال وبذلك أعاد القائد الجديد الأنضباط العسكري الى مقره الجديد بحزم وثقة.

لم نذق طعم النوم في اليومين الماضيين، ففي الليلة السابقة لقدومنا الى الموصل كنا جميعا في حالة يقظة تامة ولم ننم طيلة الليلة الماضية، حتى طعامنا لم يكن منتظماً فلم يكن بايدينا الا ان نحتسي الشاي ونأكل بعض قطع الخبز (الصمون). حال وصول الضباط القادمين من بغداد وزع القائد المسؤوليات عليهم وطلب منا أن نتناوب النوم لثلاث ساعات لكل منا على أن يكون على الأقل نصف عددنا في موضع المسؤولية وتأمين إدارة الموقف. أبلغنا بالفوضى التي تعم المدينة والقتال في الشوارع بين المواطنين الذين أنقسموا الى فئتين متناحرتين يقاتل بعضهم بعضا بمختلف أنواع الأسلحة.

في اليوم التالي لوصولنا وبعد تأمين السيطرة على الحامية قرر الآمر الذهاب الى مقر المتصرفية (المحافظة) وكان فيه مقر مدير الشرطة ومن هناك قرر أن ندخل المدينة التي مازالت في حالة هياج عام وفوضى عارمة . ذهب بنفسه برفقة ضابط ركنه وأنا ومعنا مدير الأمور الطبية في المعسكر وبدلالة حمه قادر وعدد من الجنود. شاهدنا بعض الجثث على قارعة الطريق. طلب الآمر من مدير الأمور الطبية في المستوصف العسكري أن تقوم وحدته بجمع الجثث تمهيداً للتعرف عليهم وإبلاغ ذويهم والقيام بمراسيم الدفن مع محاولة التنسيق مع دوائر الصحة في اللواء. كان الأجتماع مع المتصرف ومدير الشرطة مهماً جداً لان الآمر وضع خطة واضحة للتعامل مع الفوضى وضرورة أستتباب الأمن وعودة السكينة. كان مدير الشرطة أقل الناس تحمساً متذرعاً بعدم وجود عدد كاف من الأفراد والمنتسبين لمعالجة الوضع. حاول ان يدفع بأتجاه تسليم المسؤولية الكاملة للجيش... وقد ورد في مذكراتي التي كنت اكتبها أنذاك ما يأتي:-

الأثنين العاشر من أذار في موقع الموصل - معسكر الغزلاني، وفي حدود التاسعة والنصف صباحاً وصلت الطائرة الصغيرة المدرج وكنا نسمع أزيز الرصاص ونستطيع رؤية اطلاقات الرصاص وبريقها، نحن حقا في ساحة عصيان. وأخيرا هبطنا وكان قائد الطائرة ماهراً. ففي اليومين الماضيين كان الآمر وضابط ركنه وعدد من الضباط المخلصين للزعيم يتمركزون في المقر ويوزع الآمر الواجبات. وأنا هنا أعمل بإدارة مقر الآمر. ذهبنا صباح ذلك اليوم الى المتصرفية وكان الأجتماع غريباً. كان مدير الشرطة إسماعيل عباوي ضخم الجثة ويبدو أقل حماسة مما كان يتوقعه الآمر للقيام بمهام وظيفته. خلته خائفاً من ممارسة واجباته ربما لأن الرجل أُعيد الى الخدمة وهو عسكري متقاعد ورصيده الوطني كله هو أنه كان مرافقاً للفريق بكر صدقي رئيس أركان الجيش عام 1936 والذي قاد اول انقلاب عسكري في البلد. عند متابعتي الحديث بين الآمر وبقية المسؤولين وفي الأخص مدير الشرطة وجدت ان التناغم كان مفقوداً بين جدية الآمر وفتور المدير بل عدم أكتراث البقية مما دفعني الى الأستنتاج بأن هؤلاء لم يقدّروا حراجة اللحظة او لم يفهموا الموقف. كان العقيد حسن عبود يحاول جاهداً التأكيد على أن حياة المدنيين مهمة وأن هيبة الدولة في حماية المواطن كما انه بَين للجميع أن عودة الحياة الى طبيعتها هي مقياس نجاح الجميع بمهمتهم الوطنية. أكد لهم بأنه سيتخذ الإجراءات كلها التي تتطلبها اللحظة وأنه الأن هو الحاكم العسكري وأن على الإدارة المدنية أن تقوم بواجباتها. أوضح أن على المتصرف أن يقوم بواجباته على أتم وجه وأنه سيراقب سير العمل من الأن فصاعداً. نظر الى وجوه الموجودين ولاحظ اهتمام أربعة أشخاص من المشاركين وطلب اجتماعاً مصغراً بعد ذلك بين المتصرف ومدير الشرطة ودعا معهم الاشخاص الأربعة الذين لاحظ جديتهم. لم يَعر للمتصرف ولا لمدير الشرطة إهتماماً بل ركز على هؤلاء الأربعة وعينهم فوراً مساعدين للمتصرف ولمدير الشرطة واصدر لهم أوامر واضحة وعلى رأسها المحافظة على أرواح المواطنين وإعادة الخدمات. طلب منهم ممارسة مهام المتصرف ومدير الشرطة فورا وان يجتمعوا به في المساء مع هيكل إداري وخطة عمل لمواجهة الموقف. أكد ان العمل من الأن وصاعداً سيكون "بإدارة جماعية وهم المسؤولون أمامه جميعاً وقال بأنه قد

يضطر الى أتخاذ إجراءات خارج أطار الروتين الوظيفي فالوضع الحاضر "غير طبيعي "وأنـه مخول من مجلس الوزراء بأن يطبـق ما يلزمـه الواجب وما يراه مناسباً لمعالجة الفوضى. أشـار بحـزم أن واجبه الوطني والمهمات الملقاة على عاتقـه في "هذه المحنه" أكثر مما يستطيع القيام به لوحده ولهذا فأنه مصمم "على ان يقوم الجميع بواجباتهم". قال للجميع بأنه لاحظ عدم الأهتمام او عدم طرح اية استفسارات عن وصول بعض القبائل الكردية الى أطراف المدينه وأمر المجتمعين التهيؤ لمناقشـة هذا الموضوع مسـاءً. كما أكد؛ بأن هناك بعض الجهات "الحزبية او المدنية "نصّبت نفسـها وكيلة عن الدولة وذلـك مرفوض ويجب التعامل معها قبل إنفـلات الوضع الأمني وأصر على ضرورة عودة هيبة الدولة وعلى الفور. إنتصب مودعاً وأشـار الى المجتمعين بأنه سـيلقاهم في الساعه السادسة مساءً متمنياً أن يكونوا قد تفهموا حراجة الموقف وطلب من الجميع التعاون مع بعضهم لتكون المناقشـة جادة في المساء والعمل مخطط له كما وصفه الآمر. خـرج ونحن وراءه وكانـت علامات الغضب واضحة في كلماته. أكد قبل مغادرته أنه يأمل أن يبدي الجميع تعاوناً جدياً ومفيداً وأن المعسكر والقيادات المدنية هي القاعدة الرئيسـية لإنقـاذ المدينة والبلد من وضعه الحالي ولكن الأمـر يقع في النهاية على كاهل الآمر!! وأنه مصمم على القيام بواجبه الأخلاقي والمهني ويرجو من الجميع أن يكونوا بالألتزام نفسه.

خرج من الأجتماع وأمرنا أن نتوجه الى وسـط المدينة وبدأنا نشـق طريقنا الى مركز المدينـة وحينما اسـتفسـرت عـن وجهته،التفت الى سـائق العربـة وقال لـه ان يتجه الى الساحة الرئيسة في المدينة. هكذا وجدنا أنفسنا في وسط المئات من الناس وكان الوضع في المدينة بائساً من النواحي كلها. بدت على الناس مظاهر الهلع وبدا حسن عبود هادئاً وسَرى بعـض من هدوئه الي والى جنودنـا. أعتقد أن الآمر أراد طمانة الجماهير المحيطة بنا والتي بدأت بدائرة صغيرة وبأقل من نصـف ساعه تضاعف العدد لتصبح مظاهرة جماهيريـة وبسرعـه فائقـة فالناس كانـت بحاجة الى قيـادة والى من يبـدي أي نوع من الأهتـمام ويعطي التوجيـه. كانت خطوات الآمر مهمه في تلك اللحظة من تاريخ هذه




الصورة رقم (21): المؤلف مع العقيد حسن عبود وسط مدينة الموصل اثناء تمرد عبد الوهاب الشواف في العاشر من اذار 1959

المدينة العريقة!... كنت في دهشة أن لم أقل في حيرة من أمري!!. سيارتان فقط وأقل من عشرة عسكريين في هذا الجو المشبع بالحقد والفوضى. كيف سنتصرف، والآمر يخطب ويصافح الناس (الصورة رقم - 21).

عدنا الى المعسكر وبعد نصف ساعه من الأجتماع مع القيادة العسكرية التي أوكل اليها الآمر إدارة الحامية بغيابه، أشار - ما يسمى - وكيل الأمر لبعض التوضيحات وأعطى صورة للموقف وطلب من العقيد حسن عبود البت بموضوع المعتقلين فقد ازدحمت غرف المقر بعدد كبير منهم عسكريين ومدنيين. قرر وكيل الآمر مع ضباطه وضع المعتقلين في عنابر نوم الجنود تحت الحراسة المشددة لحمايتهم من الاعتداء، فان هناك عدد من الضباط نفذوا أوامر قائد الأنقلاب وبدأت الأغتيالات تتوالى على من أدعي انهم مع الانقلاب فقرر الآمر إيقاف ذلك فوراً واستمرت الفوضى في بعض اجزاء المعسكر واطلاق الرصاص داخله ولا يعرف أحد مصدر الأطلاقات النارية التي أودت بحياة عدد من الضباط وبعض ضباط الصف والجنود.

تقاطر على موقع الحامية عدد كبير من المدنيين اعتقلتهم جهات مدنية او الشرطة المحلية، فقرر الآمر ان يوضعوا رهن الاعتقال - أيضاً - وتأمين الحماية لهم لحين البت بأمرهم. كانت المشكلة الأنية محدودية المرافق الصحية وصعوبة توفير الماء للجميع إضافة الى الطعام وأمور النوم لهذا العدد الذي بدأ يزداد. وجه الآمر وكيله بالتصرف لما يراه مناسباً وخوله بعض الإجراءات نيابة عنه. أكد الآمر لوكيله أن المعتقلين جميعهم هم أبرياء حتى تثبت ادانتهم وأن إجراءات الأعتقال هي فقط لحمايتهم من

الأعتداءات العشوائية والفوضى ليس إلا. عين ضابط الركن وكيلاً رسمياً له وبعدها قرر العودة الى مركز المتصرفية لحضور الأجتماع الموسع الذي حُددت الساعة السادسة موعدا له وكنا جميعا في غاية الأجهاد والجوع. نبهت الآمر الى ضرورة اختيار ضابط برتبه عسكرية تليه في المسؤولية لأني أنا الوحيد الذي سيكون برفقته كما أقترحت أن يختار ضابطاً من أهالي الموصل وبرتبه عالية، فأختار ضابطين أخرين أحدهما من أهالي المدينة، فالظاهر أن همة ونشاط وجدية "الرباعي "الذي أختاره الآمر جاءت بنتائج إيجابية. كان عدد الحاضرين إقل من عشرة فضلاً عن الآمر وثلاثة من الضباط المساعدين بضمنهم كاتب هذه السطور. شارك من الجانب الرسمي للمحافظة مدير الشرطة والمتصرف والرباعي المكلف وكان بنيهم ضابطان من الشرطة المحلية ومساعد المتصرف وعلى ما فهمت موظف من بلدية المدينة فضلاً عن مدير صحة الموصل. أما العشرة المتبقية من الأهالي فقد كان بينهم رجل دين وأخر يرتدي الملابس الكردية التقليدية واثنان يرتديان الملابس الموصلية التقليدية - ايضاً - والبقية يرتدون ملابس مدنية. كنا في غرفة كبيرة اتخذ فيها الآمر موقع الصدارة وبجانبه المتصرف ومدير الشرطة وتوزع الضباط الثلاثة على أرجاء الغرفة وأنتشر الجنود خارج الغرفة برئاسة رئيس العرفاء حمه قادر. جاء في الملخص الذي طلب مني الآمر القيام بكتابته والذي أشرت الى بعضه في مذكراتي وكما يأتي:- بتاريخ 10/ 3/ 1959 وفي حوالي الساعه السادسة مساءً في مقر المتصرفية عَقد العقيد آمر الحامية أجتماعاً حضره واحد وعشرون شخصاً، سبعة منهم ممثلين للجانب الإداري للمدينة وعشرة ممثلين للمنظمات المدنية وأهالي المدينة فضلاً عن وفد برئاسة الآمر بينما قامت مفرزة من الجنود بحماية الحاضرين. بدأ الآمر بالحديث عن الظرف الحالي وملابسات ماحدث من دون أن يقوم بشحذ الهمم، بل أكد ان اللحظة تتطلب جهود الجميع لحل الأشكال المؤقت الذي وصفه بأنه فعل شخص واحد والذي لم يدم اكثر من خمس ساعات لكن آثاره ستبقى معنا لمدة أطول. وأشار الى أن الوضع مستقر الأن من الناحية العسكرية وعلينا جميعاً أن نعمل لمجابهة "الصدمة النفسية "التي أنتجتها هذه العملية وعلينا إسترداد الثقة للأهالي ورأب التصدع الذي خلفته هذه الرده. قال: نريد منكم كمواطنين الألتزام بهذا الواجب الوطني في مساعدة السلطة المدنية وإعادة الحياة الطبيعية "لنا جميعاً". فبالنسبة لنا كسلطة عسكرية فأننا ملتزمون بإعادة نصاب الأمن كاملاً ورفع

منع التجوال الذي اعلناه هذا الأسبوع وسنحاول تقليل ساعاته في الأيام القادمة حتى تعود الحياة الى مجراها الطبيعي وأكد أن همه الوحيد هو أستتباب الأمن وحماية المواطن وفي الوقت نفسه لن أتوانى عن أستعمال الطرق والوسائل كلها لتحقيق ذلك وأني سأساوي بين الجهات كلها سواء كانت سياسية او مجتمعية ولا أفضل أحدا على أحد ومن خالف القانون او من سيخالفه فسينال الجزاء العادل "وهذا وعد أقطعه على نفسي أمامكم جميعا". فسح المجال للحاضرين بطرح أي تساؤولات او آراء يريدون طرحها، وأجاب عن التساؤلات كلها وختم اللقاء بالتأكيد على ان الجميع متساوون أمام القانون وأن التزامه الوحيد هو إعادة تاهيل المدينة وعودة الخدمات والحياة الطبيعية ويأمل ان يتكاتف الجميع لتحقيق هذا الغرض وشدد على رص الصفوف وإيقاف الفوضى.

حدث في أثناء الاجتماع نوع من التأزم بين الآمر واثنين من الحاضرين كانا كما فهمت لاحقاً ممثلين للحزب الشيوعي هما "عبد الرحمن القصاب وعدنان جلميران" إذ عدوا بعض ماقاله الآمر هجوماً على الشيوعيين وهم من الجماهير التي هبت منذ ساعة العصيان الاولى للذود عن الجمهورية والثورة يساندهم المخلصون من العرب والأكراد وانهم المخلصون الذين وقفوا واضعين "دمهم على راحاتهم". لم يسمح العقيد حسن للمتحدثين اللذين كانا في غاية الحذر في حديثهما لاسيما عدنان جلميران، الأسترسال في المداخلة مقاطعاً إياهم بغاية الحزم والجدية دون ان يبدي أية مضايقة مؤكداً بأن أية محاولة لتوجيه اللوم عن مسؤولية ماحدث في الأيام الثلاثة الماضية هو نوع "من التأزيم" للمعضلة التي نحن في "معممتها" ونترك الحكم وتحديد المسؤولية الى المحاكم. أكد أن الهدوء النسبي عاد للمدينة وكذلك الهدوء التام الى المعسكر وهو المسؤول امام الجميع. قال: أن مسؤوليته القانونية والمهنية هي أمام الحكومة في بغداد وأمامه الكثير من المهام "بصفته المسؤول الأول والأخير "عن إقامة صرح الأمن والطمأنينة في هذه المدينة المنكوبة -على حد قوله - وأنه ملتزم بذلك وكذلك كل العاملين معه ويريد "ان لا تدخل المهاترات "في جهودنا وناشد الجميع بمكاتفته اولاً وعلى الفور. أكد العقيد حسن بالقول: كلنا ملتزمون في الدفاع عن الجمهورية وأن السلطات "الشرعية" التي تسيطر على المدينة والمعسكر تعمل على أستتباب الأمن وأن على "الشرفاء "أن ينصرفوا الى مساعدة المسؤولين. وغيرَّ بعدها مجرى الحديث طالباً

من الحضور طرح مايرونه مهماً وبحاجة الى توضيح.

ازف منتصف الليل وشكر العقيد حسن الحاضرين على جهودهم وتفانيهم التي فاقت التوقعات كلها وبذلك أعلن نهاية الأجتماع مشيراً أن القيادة العسكرية إعادت سيطرتها الكاملة على المدينة وأن علينا جميعاً أن نتعاون في عودة الحياة الطبيعية الى المدينة وكسب ثقة المواطنين التي زعزعتها أحداث هذا الأسبوع. سلكنا طريقنا في سكون الليل الذي تخللته أصوات غريبة ومزيج من اصوات الحيوانات والهتافات وازيز الرصاص التي مازالت ماثلة في مخيلتي بعد اكثر من نصف قرن وأنا اسطر هذه الخواطر بهدوء في الساعات الأولى من صباح الثلاثين من آذار عام 2017 في مدينة توسان بولاية اريزونا، وأرتجف من ذكرى تلك التجربة ولا أستطيع إلا أن اقارن ذلك بما يحدث في تلك المدينة "التعيسة "ألأن والتي عبث بها داعش وحلفاؤه. أتذكر معالم تلك المدينة التأريخية وما آراه على التلفاز وما حصل لأهلها.

لقد أظهر الآمر شجاعة وضبط نفس نادرين. وعلى الرغم من ذلك كله فأني كنت أدرك أن الوضع اكثر خطراً مما نتصور سواءً على البلد أوعلى المنطقة العربية كلها، لأن ذلك لم يكن عملاً فردياً لفئة عسكرية مجازفة بل كان أكبر من ذلك بكثير.

بعد عودتنا الى المعسكر، وكنا في غاية الإرهاق والتعب الجسدي والنفسي، قرر الآمر أن ننقسم الى عدة مجاميع صغيرة تتناوب على النوم لمدة ثلاث ساعات لكل وجبة على أن تبقى ثلث القوة في حالة طوارئ. الجميع في حالة معنوية عالية ولكن في غاية التعب والجوع وحتى ماء الشرب بات شحيحاً. وجه الآمر ان يكون ألالتزام بالأمر على الفور وكانت الساعة قد قاربت على الثالثة صباحاً. لا أتذكر أية ردة فعل، فقد كانت مجموعتنا أول المنفذين. كل ما أتذكره أني افترشت الأرض بكامل قيافتي العسكرية وعدتي الحربية. كنا ستة اشخاص في غرفة صغيرة، واخر ما أتذكره هو ان الآمر وجه عدداً من الضباط للتأكد من ان المعتقلين لا يتعرضون الى ألأهانة وأن يتم الوقوف بصرامة بوجه من يحاول الاعتداء عليهم مهما كانت الأسباب. حث الضباط على الالتزام بتعليماته وتقديم كشف في اليوم التالي للحالات التي يكون فيها عصياناً لأوامره لاسيما بعد أن بلغ مسامعه أن بعض الضباط اعتدوا على زملائهم الذين كانوا يعدونهم من مؤيدي الأنقلاب وخول الضباط مسؤولية توقيف من يخالف الأمر.

سجلت في اليوم التالي ما يأتي:-

اليوم مكفهر وأشعر بنوع من الغثيان على الرغم من أني نمت أكثر من ثلاث ساعات وهذه نعمة قياساً بهذا الأسبوع. فاني لم أنم هذا المقدار منذ أن بدأت الازمة. بدأ اليوم ووزع القائد المحتجزين على أربع فئات او مجاميع... الأولى من الضباط الذين أكد الجميع بأنهم كانوا من القيادات المنفذة للأنقلاب أربعة منهم من القوة الجوية منهم قائدها العقيد عبدالله ناجي وكانت مهمتهم قصف وزارة الدفاع والإذاعة ونحو ستة الى سبعة من الأصناف الأخرى وأربعة مدنيين احدهم فاضل الشكره أكبر مسؤول لحزب البعث في الموصل الذي اشيع بأن قائد الأنقلاب عينه وزيراً للداخلية في وزارته. كان بعض الضباط وجلين من عدم إمكانية درء الاعتداء عنهم وان قوة كبيرة من حمايتنا خصصت لهم وأعطى ضابط الركن اهتمامه البالغ لايقاف الاعتداء عليهم وخوفه من إمكانية فقدان السيطرة على جماح زملائهم. كانت المجموعة الثانية من الضباط الذين نفذوا أوامر قائد الأنقلاب لكنهم لم يقوموا بأي عمل بوجه مؤيدي الثورة من الجنود وضباط الصف. أما المجموعة الثالثة فبألامكان وصفهم بمؤيدي الانقلاب من المدنيين وبعض رؤساء وافراد العشائر وعلى رأسهم أحمد عجيل الياور شيخ عشيرة شمر ومعهم بعض رجال الدين وبضمنهم بعض خطباء المساجد. بينما اشتملت الفئة الرابعه على خليط من العسكريين والمدنيين الذين هم قيادات الخط القومي في المدينة الذين رحبو او باركوا بالأنقلاب على حد علم المناهضين له.

قرر الآمر وبتأييد تام أن لم اقل بإلحاح من ضابط ركنه على ضرورة أرسال المجموعة الأولى الى بغداد بأول طائرة متوفرة. وفي الوقت نفسه، قامت هيئة التحري بكتابة تقرير عما حدث لاسيما بعد هروب بعض مدبري الانقلاب الى حلب ومنها الى دمشق ومنهم ضباط ومتقاعدون وحزبيون. وثبت من دون شك مشاركة مخابرات الجمهورية العربية المتحدة (في قسمها السوري) بشكل مباشر في التدبير للأنقلاب وجهزت الانقلابين بأذاعه جوالة نُصبت في المعسكر ومنها أذيعت بيانات العصيان. لقد وجدت هيئة التحري بطاقات سورية تعود لعاملين في تلك الأذاعة والعديد من أدوات البث فضلاً عن الكثير من ألات التسجيل والتنصت. وقد رأيت بأم عيني تلك الوثائق الثبوتية وأخذتها بيدي الى وزارة الدفاع مرفقة بتقرير الآمر.

وافق الآمر على ارسال الوجبة الأولى الى بغداد واختارني لتنفيذ هذه المهمة حال انتهائه وضابط ركنه من كتابة التقرير المفصل عن حالة الموصل. هيأت القوة الجوية طائرة لنقل المعتقلين وتحت حراسة مشددة. قمنا بنقل الوجبة الأولى- في غاية المهنية - وكان على رأس الموجودين في المطار ضابط الركن. تعالت الصيحات في المعسكر من الجنود وبعض الضباط بأنواع عديدة من السباب وترديد كلمات "خونة" "متآمرين". لم نأبه بكل ذلك وتوجهنا الى الطائرة. كانت طائرة صغيرة والمعتقلون مقيدو الأيدي وبناءً على تدخلي الشخصي، رجوت القائد ان يبعث مع هذه الوجبة شيخ مشايخ شمر احمد عجيل الياور. رفض القائد طلبي أول الأمر ولكنه حينما عاد لمناقشة الموضوع مع اركان القيادة في الغرفة المجاورة، أضاف اسم الشيخ أحمد الى قائمة المسافرين. كان الشيخ ذا وجه صبوح ويرتدي معطفاً بدوياً "فروة" كبيرة ولا يكفيه مقعد واحد في الطائرة فقد كان ضخم الجثة. رجوته وبأدب أن يسمح لي بأخذ المعطف البدوي منه وبينت له الأسباب وحاولت اعطاءه معطفي بدلاً منه لكن المعطف غير كاف حتى أنه لم يغط كتفيه فرفضه بأباء لكنه تقبل رجائي. كانت الطائرة باردة واعتقد انها كانت طائرة نقل فقدمت له بطانية جديدة بدلا عن معطفه.

ما ان وصلنا مطار بغداد العسكري حتى انهال بعض الضباط بالضرب على الموقوفين. وكان أوفرهم حظاً بالركل والضرب فاضل الشكرة. وعلى الرغم من محاولتي لأيقاف هذه الحملة فان جهودي باءت بالفشل. نجحت بمنع الاعتداء على الشيخ عجيل الذي كاد ان يقع وهو يغادر الطائرة لضخامة جسده وكاد عقاله ان يقع من رأسه لكنه فضل السقوط على الأرض بدلا من ان يسقط عقاله. هرعت لمساعدته وتوجه معي قائد القوة الجوية الزعيم جلال الاوقاتي والزعيم عبد الكريم الجدة لمساعدته ايضاً. استأذنت من امر الانضباط العسكري الزعيم عبد الكريم الجدة بعد ان وقع ايصالاً باستلام الموقوفين مني. وبذلك انتهت احدى اصعب مسؤلياتي العسكرية.

غادرت مقر المطار العسكري ولم تكن لديهم سيارة إضافية لإيصالي لدارنا فأخذني احد ضباط الصف على دراجته للشارع الرئيس لاستقل سيارة اجرة الى دارنا وانا بهيئة مزرية ولم احلق ذقني طوال الخمسة أيام الماضية ولم استحم طبعاً.

لم تكن الوالدة ولا الوالد يعلمان شيئاً، لقد ظنوا بأني في مكتبي بوزارة الدفاع .كنت في غاية الاعياء، ذهبت الى أول غرفة نوم ورميت نفسي على الفراش ولم استيقظ الإعلى صوت الوالدة تناديني بضرورة الإجابة على الهاتف. كان المتحدث على الخط العقيد طه الشيخ احمد يطلب مني الحضور الى مكتب القائد العام فوراً. طلبت ساعة واحدة لأحلق واستحم فقال نصف ساعة فان هناك قرار يجب ان يتخذ وعَلي ان احضر حالاً. كان الذهاب من دار والدي في الصالحية الى وزارة الدفاع يستغرق في الأقل ساعة لان الازدحام على اشده في المساء. اخذت معي "ساندويتشا" وأوصلني الوالد الى وزارة الدفاع بعد نحو الساعة والنصف. وجدت المرافق الاقدم لرئيس الوزراء العقيد وصفي طاهر ينتظرني بباب المكتب وادخلني فوراً الى مقر الرئيس وكان في انتظاري الجميع. وانا في عُجالة الذهاب الى الاجتماع نسيت ارتداء السدارة العسكرية. طلبت من احد الاخوان من سكرتارية الرئيس اعارتي غطاء رأسه لان الدخول من دونه يتنافى مع الاعراف العسكري كما نبهني لذلك احد المرافقين. كان الحضور يتألف من العقيد طه الشيخ احمد والزعيم جلال الاوقاتي قائد القوة الجوية والزعيم احمد صالح العبدي رئيس اركان الجيش وأمر الانضباط العسكري الزعيم عبد الكريم الجدة وعدد أخر من الضباط الذين لم اتبينهم. وما ان دخلت ووقفت اؤدي التحية العسكرية حتى صاح احدهم واعتقد انه جلال الاوقاتي: اتفضل ملازم طارق أستريح. نظرت بأتجاه الزعيم قاسم لاحظ احراجي وقال.. أسترح مبتسماً. جلست ولو بنوع من العسكرية فقال انزع سدارتك فهي اكبر حجما من رأسك وهي ليس من صنفك العسكري ايضاً... فقد لاحظ ذلك!!. اجبت بخجل: بأني فقدت سدارتي في الموصل ومنذ أسبوع وانا بدونها!، فضحك الجميع فقال الرئيس لا يمكن ان نصنع منك عسكرياً فأنت مدني للنخاع بل وفوضوي ايضاً. قال لدينا بعض الأسئلة على التقرير وقال ان لغته رائعة فلابد من ان تكون انت كاتبه.. فأقسمت اني لم اطلع على التقرير وان كاتبه هو العقيد حسن عبود والمعلومات موثقة من ضابط ركنه الذي تخيل الناس أنه الزعيم عبد الكريم.. قال الرئيس هل صحيح ان العقيد حسن عبود كان حاداً مع الإدارة ولا سيما مع المتصرف ومدير الشرطة!.. فأجبت فوراً.. نعم لقد كان حاداً حتى معي ويصر دوماً على ان أكون بإلمام كامل بكل شيء ولا يتوانى عن تقريعي ويبدي احياناً عدم رضاه. كان لا يبديه امام الاخرين وانما فقط

عندما أكون معه منفرداً، فالرجل صارم وعسكري ويطالب بالضبط ويصر على رباطة الجأش. كان في غاية الكرم وسعة البال ويوجه الجميع بضرورة فهم الوضع. وحينما وصلنا الموصل كانت الفوضى سائدة في المعسكر والمدينة ولكنه بحكمته استطاع معالجة الموضوع وعامل الجميع بهدوء واحترام.. وقد تعلمت الكثيرعلى يديه. ثم سألني الزعيم جلال: لماذا تجاهل الآمر التسلسل الوظيفي وطلب من ضباط ذي رتب عسكرية صغيرة تولي المسؤولية وان يكونوا على رأس هيكل اداري فيه رؤساؤهم وتجاهل رأي رؤساء الوحدات وأخذ برأي الأصغر رتبة عسكرية وأن عدم احترامه لمدير الشرطة والمتصرف كان واضحاً للجميع؟. أجبت على الفور: هل لي الأمان بأن أتحدث بصراحة عن انطباعاتي عن الرجل؛ فأجاب فوراً بالطبع، قلت: ان دعوة الآمر حسن عبود لهؤلاء الى اجتماع مصغر كان لسبب واحد هو أنهم الوحيدون الذين كانوا مُلمين بوضع لواء الموصل وعلى استعداد لمناقشة المواضيع التي أثيرت وبذكاء بل وحتى بجدية ومعرفة تامة.

وسمح الزعيم قاسم للبقية بإكمال اسئلتهم والظاهر ان جميعهم قرأوا التقرير بإمعان ولم اكن فعلا على معرفة بما تضمنه التقرير. وأخيراً سال طه الشيخ مدير الخطط العسكرية هل تعتقد أن الوضع في الحامية لا سيما في المعسكر مستتب؟. فأجبت: بأن تقدير الموقف يجب ان يصدر من الآمر لأنه ملم بتفاصيله كلها. تدخل قاسم ثانية وقال لماذا يرفض العقيد حسن عبود مساعدة العشائر الكردية؟ فأجبت انا على الفور: في الساعات الأولى من وصولنا الموصل اكد الآمر أن واجبنا الرئيس هو إعادة الحياة الطبيعية للبلدة بعد إتمام سيطرتنا الكاملة على القاعدة الجوية اولاً ثم معسكر الغزلاني وبعدها المدينة، وأطنب في وضع أسس إعادة الحياة الطبيعية من لدن الحكومة الشرعية والتي يمثلها الآمر باعتباره منتدباً رسمياً من حكومة بغداد الشرعية وطلب منا جميعاً ان نتصرف مع الأهالي بأحترام وعدم تفضيل جهة على أخرى وحينما عَرضت عليه بعض الجهات التي لانشك بإخلاصها للجمهورية المساعدة، رفض ذلك ووعدهم بأنه سيطلب مساعدتهم ان اقتضى الامر ذلك. قلت: أما موضوع رفضه دخول العشائر الكردية الى الموصل وأصراره على ضرورة بقائها خارج حدود المدينة فذلك يعود لان المدينة يسكنها "عرب" ومعظم سكانها قوميون تقليديون وان دخول العشائر الكردية بأسلحتهم وتنظيماتهم قد يؤجج المشاعر الكامنة وقد يثير نعرات لاداعي لإثارتها وقد

يؤدي ذلك الى تعقيد الموقف وهو يحاول ان يهدئه. وقد قمتُ أنا ورئيس العرفاء حمة قادر بترجمة اقوال الآمر الى رؤساء العشائر الكردية التي كان ملخصها انه ببالغ الأمتنان يثني على وطنيتهم ودفاعهم عن الجمهورية وحاول بكل الود إفهامهم بأن الجيش هو المسؤول وحده عن حماية المدينة وأنه يطلب منهم ان يكونوا خارج المدينة وفي حالة الحاجة الى العون فأنه سيطلبه منهم. وأردفت قائلا: في تقديري حيث كنت حاضراً ومساهماً كمترجم، ان الامر حسن عبود أجاب عن تساؤلاتهم كلها وانتهى الامر بترحاب بالغ من رؤساء العشائر أو المتحدثين بأسمهم. ثم اوضحت: إذا حصل أي أرتباك في نقل توجيهات الآمر فأنا ورئيس العرفاء قد قصرنا في أداء واجبنا (الترجمة من الكردية الى العربية وبالعكس) وان حدث ذلك فانه لم يكن متعمداً ابداً!.

بعد انتهاء الاجتماع أمرني الرئيس قاسم بالعودة فوراً الى الموصل وهنا اغتنمت الفرصة السانحة وقلت: أن انطباعي سابقى مع العقيد حسن عبود لمدة محدودة ثم أعود بعدها الى مقري في مكتب الزعيم قاسم فأنا لم أكلف رسمياً او كتابياً بذلك. قال قاسم لتبق مع العقيد حسن لمدة أسبوع اخر وتعود الينا. عُدت في الأمسية نفسها الى حامية الموصل وعلى متن نفس الطائرة وأبلغت الآمر بأني سأعود الى بغداد والى مقر عملي بعد ان يستتب الوضع الإداري في المقر وأملي ان يحصل ذلك في اقرب فرصة وحبذا لو حدث ذلك قبل نهاية الأسبوع كما وجه الزعيم عبد الكريم قاسم فأني ما زالت على ملاك مكتبه!!.

عاد الي نشاطي وسعادتي ففي ذلك الأسبوع أراد الآمر ان ينهي مشاكل المعتقلين، فقرر ان يبعث بهم الى بغداد ولما كان النقل الجوي في تلك الأيام محدوداً فان القطار كان الوسيلة المتوفرة امامنا لاسيما أن حركة سيره اصبحت مرهونة بموافقة فصيل المواصلات في المقر فقط، إلا أن الخوف على حياة المعتقلين وعدم إستتاب الأمن وكثرة الاشاعات أدت الى نقلهم في قاطرات الشحن من دون أي تحضيرات مما اثارعندي الكثير من التحفظات التي قدمتها بتقرير مفصل الى الزعيم عبد الكريم بعد عودتي. كانت الرحلة ليلاً واستغرقت اكثر من عشرِ ساعات وكان الجو بارداً. وعلى الرغم من وصولهم جميعا الى بغداد سالمين إلا أني شعرت بأن تلك المعاملة كانت لا إنسانية وكنت اعلم أن الآمر حسن عبود قد طلب من قيادة القوة الجوية توفير طائرات لنقل

الموقوفين العسكريين منهم في الأقل، الا أن توفير طائرات لنقل هذا العدد الكبير من المعتقلين كان صعباً واعتذرت القيادة في ذلك الوقت. كانت الاشاعات تشير الى احتمال الهجوم على السجون اما من لدن القبائل الكردية للقصاص منهم او من الفئات القومية لإطلاق سراحهم فضلاً عن تداول اشاعات بأن الشيوعيين سيخرجون عنوة ويقومون بأجراء محاكمات صورية لإعدام الموقوفين. ونظراً لصعوبة الوضع الأمني في المدينة وأن الموقف العسكري لايزال هشاً فقد كان موقف الآمر واضحاً وهو ان ينقل الموقوفين بالقطار الى بغداد لتتصرف هي بالموضوع كما تراه مناسباً ونقل مسؤولية حمايتهم لبغداد. وفي الوقت نفسه، تسربت الكثير من الاشاعات بأن الجمهورية العربية المتحدة ستعمل من خلال حامية حلب وبمعاونة بعض الضباط من الخلايا النائمة في حامية الموصل وبمساندة الأهالي على غزو الموصل ليلاً لإطلاق سراح الموقوفين وربما أيضا تشجيع القطعات في بقية الجيش العراقي التي كانت تتحين الفرصة للانقضاض على حكومة قاسم، المتهمة من قبلهم بأنها انحرفت عن اهداف الثورة بأنتهاجها سياسة يسارية مناهضة لحركة القومية العربية وتَدعي العلمانية إلا انها تخفي الحاداً في صلبها رافضة الدين الحنيف وتعاليمه!!.

كان الأعتقاد السائد هو ان حركة الشواف غير منظمة وكانت تفتقر الى وجود وسائل اتصال بينها وبين بقية القطعات المتعاطفة معها وأدى التسرع بإعلانها الى فشلها. وعزز هذا الاعتقاد دخول الجمهورية العربية بكامل ثقلها مع الحركة لاسيما محطة "صوت العرب" وعلى وجه التحديد معلقها "احمد سعيد" فضلاً عن جرائد الدولة المصرية وخطابات الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي كان له رصيده الشعبي ليس في العراق فحسب وانما في العالم العربي كله. من هنا بدأت حرب باردة عربية اضعفت النظام الثوري بالعراق وفتحت نافذة للدول الغربية وامريكا ومخابراتها بتوجيه قوى المعارضة وحتى ادارتها، كما أوضحته من دون ادنى شك تقارير المخابرات ووثائق وزارة الخارجية التي نشرت بعد مضي خمسين عاماً على تلك الحوادث والتي سيرد ذكرها لاحقاً في معرض ختام نهاية العهد الجمهوري الأول لحقبة الحكم القاسمي وبروز البعث على الساحة السياسية العراقية في انقلاب شباط عام 1963.

بعد مضي أسبوع واحد وفى العقيد حسن عبود بوعده وسلمني كتاب انفكاكي وعودتي الى مقر عملي في مكتب استعلامات رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة. وهكذا لم تتجاوز خدمتي في الموصل الأسبوعين إلا انها كانت تجربة غزيرة اثرت في الكثير من آرائي وزادتني ايماناً بضرورة إعادة تقييمي للحياة في جانبها السياسي. وزادتني قناعة بحقيقة: ان اكتشاف النفط في العراق والمنطقة سوف يدفعها الى حافة الهلاك. تذكرت كتاباً رائعاً كتبه المؤرخ اللبناني وواضع اللبنات الاولى للحزب الشيوعي في اوائل عشرينيات القرن الماضي يوسف إبراهيم يزبك (عام 1936) بعنوان "النفط مستعبد الشعوب" كذلك تذكرت كتاب "على طريق الهند "لعبد الفتاح إبراهيم الذي حدد فيه ملامح مستقبل العلاقات الغربية مع العراق في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي... وأذكر في ما يأتي ما كتبته من خواطر وانا في طريق عودتي الى بغداد على متن احدى الطائرات العسكرية:-

"في سماء الموصل 20/ 3/ 1959 اليوم هو الجمعة السعيدة في حياتي. كم انا سعيد ومحظوظ ان اعود الى بغداد. اشعر بأني احمل على كتفي الكثير من الشعور بالأثم والكثير من الألم في باطني اريد ان انام واستريح اريد ان اعيد الثقة الى نفسي وبنفسي... . سأنام قرير العين على فراشي وسأتناول طعاماً تطبخه الوالدة بيدها، ما ابسط الأمنيات!.

نحن الان عند منتصف النهار تقريباً حين وصلت الطائرة الى مطار الرشيد العسكري وكانت سيارة عسكرية بانتظاري اقلتني الى وزارة الدفاع. تبدو بغداد في عرس والشوارع راقصة وتظهر علامات الزهو على وجوه اهلها والمدينة هادئة وفي غاية النظافة. ما ان وصلت الى شارع الرشيد حتى شعرت بطمأنينة "وعودة الروح الى كياني". ما اصعب ان يفقد الانسان عالم الطمأنينة وحياة السكينة. أتذكر ذلك الشعور واستطيع اجتراره حتى هذا اليوم. وصلت الى مقر الوزارة وعلى الفور سلمت البريد الرسمي واخذت ايصالاً باستلامه من الضابط المسؤول وسلمت ايضاً أمر انفكاكي من مكتب حامية الموصل. بعد ان سجله الضابط الخفر في مكتب رئيس الأركان

اخذت رقمه وتاريخه من سجل الوارداة، وذهبت الى دار الاهل وأنا أُمني النفس بغداء غير اعتيادي فأني اعرف جيدا بأن غداء يوم الجمعة في بيتنا له تقليده الخاص. كانت الوالدة منهمكة في الطبخ والساعة قد شارفت على انتصاف النهار والشمس قد لفت بغداد بردائها كما كان الجو في حلة ربيعية زادت من رونق وبهاء العالم الذي افتقدته في الاسبوعيين الماضيين. نمت نوماً عميقاً واغتسلت في الأقل مرتين في تلك الجمعة "السعيدة" وكأني اردت ان اعوض ما فاتني. نمت باسترخاء وسعادة وشعرت براحة ولم استيقظ الا في صباح اليوم التالي حينما ايقظني منبه الساعة فأن علي الالتحاق بمكتب استعلامات وزارة الدفاع وتسجيل مباشرتي رسمياً. استقبلني زميلي ورئيسي في تلك الدائرة الرئيس الأول الطيب والبشوش طارق عباس حلمي بالترحيب الخاص وبالعناق وقال: غادرتنا فجأة وعدت فجأة أيضاً. وغالباً ما يكون في مقر وزارة الدفاع أيام السبت، أكثر أيام الأسبوع ازدحاماً وأكثرها عملاً... وما ان وطأت قدماي الدائرة حتى وجدتني اغوص في العمل الروتيني بسعادة بالغة ولكن ما ان جن الليل الا وعادت كوابيس تجربة الموصل على الرغم من محدوديتها التي لا تزيد عن الأسبوعين تؤرقني. ابلغني مكتب الزعيم كريم بالحضور يوم الأربعاء مساءً الى المكتب. انتظرت لحين وصول الزعيم وفي نحو الساعة العاشرة مساءً طلبوا حضوري ومثلت امامه عند منتصف الليل تقريباً وكان معه العقيد طه الشيخ احمد وطلب مني تقريراً مختصراً عما رأيت بأم عيني ومارسته في اثناء وجودي في الأسبوعين الذين قضيتهما في المدينة والمعسكر. لقد فوجئت بالسؤال وخلت اني المقصود بهذا الاستجواب لاسيما انه بدا وكأنه تحقيق، اذ سألني عن طبيعة واجباتي فأجبته: بأني كنت مع الآمر وتحت امرته مباشرة طيلة تلك الفترة ولم اعمل لوحدي ابداً وكنت ملتزماً بتنفيذ الأوامر الصادرة. دار الحديث عن مشاكل الآمر مع الزمرة الإدارية للمدينة والجهات المدنية اليسارية التي اتهمت الآمر بأنه ضعيف ويحابي الجهات "الرجعية والقومية" وقد استشهد العقيد طه الشيخ احمد بمعاملة الشيخ عجيل الياور والمعتقلين الاخرين في اثناء وصولهم بغداد على متن الطائرة. تلكأت بالجواب وعلى غير عادته قال الزعيم: لا تتحرج بل قل الحقيقة كما عهدتك فأني اريد ان اسمع تقييمك. أستجمعت شجاعتي وأجبت فوراً من دون أي "رتوش" او مجاملات

قائلاً: اني اعتقد ان المبدأ الذي سار عليه الآمر أن المعتقلين رهن التحقيق وأنهم امانة في اعناقنا حتى تأخذ العدالة مجراها وان بعضهم قد يكون اثماً والاخرين قد يكونون أبرياء لهذا فأننا حاولنا وبناء على أوامر الآمر ان نكون حريصين على حمايتهم ومحايدين في معاملتهم لحين عرضهم على الجهات القضائية والأمنية لتحديد مصيرهم. سأل العقيد طه وكان يقرأ في أوراق امامه خلتها تقارير وردت إليه من جهات حزبية او امنية فيها تحريض على القائد، بضمنها رفضه مقابلة وفد من الأهالي الذين جاؤا " بعريضة فيها معلومات رفض الآمر النظر فيها وصرفهم بحده". أوضحت بأني انا الذي صرفتهم وبتصرف شخصي بعد ان انتهت المقابلة. لقد جاء الوفد بقائمة تشتمل على اسماء اشخاص "يتهمونهم " بالعداء للجمهورية ويطالبون باعتقالهم فرد الآمر وكان حاداً وبغاية الوضوح واتذكر فحوى كلامه حيث أجاب: مالم يكن هؤلاء الذين وردت اسماؤهم في "قائمتكم "يقومون حالياً بأعمال شغب او مقاومة بعد أن أحكمت الدولة سيطرتها واستتب الامن في اللواء، فاني سأعتبر ذلك شكوى كيدية ولا أحب الخوض فيه وطلب مساعدة الشرفاء في خلق " الطمأنينة " بين الناس " وزرع ثقتهم بعدالتنا ثم أعلن الآمر بعدها انتهاء الاجتماع، رفض استلام القائمة. بعد خروجهم قال القائد: عندنا في سجن المعسكر اكثر من الف معتقل واعتقد ان معظمهم أبرياء ولا نريد ان نخلق منهم أعداءً لنا وعلينا أن نبدد شكوكهم... وهذا بالضبط ما حدث.

سألني العقيد طه هل تعتقد ان الآمر كان حاداً في معاملتهم ورفض اخذ استرحامهم بجدية كما يقتضي الأمر، اجبت فوراً: سيدي انا ضابط احتياط وتجربتي لا تتعدى الشهور ولكني اعرف ما هو الصحيح وما هو "الخطأ". أما ما يخص هذا الرجل - الآمر - الذي لازمته طيلة مدة بقائي في ساحة " الموصل " ليلاً نهاراً، فأن الساحة كانت مضطربة وخطرة وتتطلب الكثير من الحذر وصحوة ضمير. اما ما يتعلق بمعاملة شيخ مشايخ عشائر شمر فأنا " المسؤول عنها " لأني أنا الذي رجوته ان يحمي كرامة هذا الرجل. حتى أنه لم يقابله. أنا كنت المسؤول عن الوجبة الأولى من المعتقلين وكان بينهم الشيخ. واني قمت بتوفير الماء لهذا الشيخ فقط ورفضت " إهانته " والاعتداء عليه وعلى كرامته لأنه رهينة عندنا وتحت "خيمة الدولة". هنا

أجاب الزعيم متدخلاً "هذا ماكنا نتوقعه منكم وأنا أعرف العقيد حسن"... واردفت قائلاً ان العقيد حسن من أهالي الناصرية فقد يصعب عليه بعض الأحيان فهم "اللهجة المصلاوية" وحتى انا اجد صعوبة أحياناً في فهم بعض كلماتها وانا ابن بغداد!!. ضحك طه الشيخ احمد وقال سمعت بأنك وبختَ عدة مرات من قبل الآمر؟! فأجبت: ان هذا صحيح وأن "الرجل لم يوبخني ولم ينهرني" بل أوضح لي أنه يفضل "أن أعمل بطريقة أخرى مؤكدا بأنه الآمر وأنا المنفذ". واردف قائلاً: هل هذا سبب استعجالك العودة الى مكتب القائد العام فأجبت بعد تردد: لا فالسبب هو اني اردت العودة لأقوم بأتمام معاملة التوجه الى الدراسة العليا حال الانتهاء من الخدمة العسكرية واضفت وبنوع من الحذر: ومن لا يسره العمل مع هذه الوجوه الطيبة في هذه المدينة اللطيفة... فضحك الاثنان.

طلب مني الزعيم ان لا اغادر الليلة قبل مقابلته!!. وعندما عدت الى مكتبي اخبرت الرئيس طارق عباس حلمي او "طارق الأول "كما كان يصفه بعض العاملين معنا فأنا "طارق الثاني "ان يذهب الى بيته فالظاهر أنا سأكون خفراً لهذه الليلة. صدق حدسي، فنحو الساعة الرابعة صباحاً اتصل بي مكتب الزعيم طالبا حضوري!! ففعلت. قال الزعيم: لنذهب للفطور وخرجنا الى شارع الرشيد وامام جامع الخلاني توجد امرأة عجوز تبيع "الباقلاء" "والبيض" الذي تطبخه على الطباخ "النفطي "البدائي "البريمز "فقال أذهب وأجلب لنا الفطور، فأجبت: سيدي هذا الأكل غير نظيف، فقال: هل ترى البخار الذي يتصاعد من "القدر "هذا يكفي لقتل الميكروبات كلها! وقال: انه جائع جدا فانه نسي ان يتعشى ذلك المساء ثم صحح قوله وبين أنه لم يتغد أيضاً!!. عدت بفطورٍ له ولي وللسائق. وهنا طلب من السائق ان نذهب الى بيت الزعيم نسبة الى رتبته العسكرية كما كان يحلو له ان ينادى به ونحن نحمل "السفرطاس" الذي فيه فطورنا نحن الثلاثة... السائق والرئيس وانا.. وبالطبع فاني اعرف بان السائق كان يأكل اكثر منا نحن مجتمعين ولهذا كان فطوره ذا كمية اكبر... وكان يحب "السمن" بينما انا والزعيم نتحاشاه!.

كنت اكره الذهاب الى بيته لان غرفة استقباله بدائية وغير دافئة وحتى أنها رطبة في فصل الشتاء. ما ان وصلنا الى بيت الزعيم حتى هرع السائق بعد دخوله الدار الى

وظهر انها لم تملأ بالنفط فلم يتسنَّ لنا تشغيلها إشعال المدفأة البدائية - الصوبة - وبهذا جئنا وافترشنا السجادة واستخدمنا طاولة القهوة الصغيرة وجلس معنا الزعيم على الأرض ولما رفض السائق ان يشاركنا اصر الزعيم على ذلك وقال له بالحرف الواحد "انت ابن عرب وتعرف ان رفض الضيافة يأخذون عليه حشم" أي تُعد إهانة تستوجب العقاب "كما تعلمتها أيام عيشي في الفرات الأوسط. فأجاب السائق وبعفوية الجنوبي: والنعم!! أي انعم بك وهنا وبعد ان خرج السائق وقبل ان يذهب الزعيم الى غرفة نومه قلت مستأذناً: اريد ان احدثك بأمر مهم وشخصي وأريد موعداً عند فراغك للأدلاء به، فقال كلنا متعبين اليوم، ما رأيك ان تأتيني ظهراً ونتغدى مع بعضنا هنا وانا اعدك بأن "الصوبة" ستكون كاملة العدة وستتحدث وطلب من السائق ان يأتي بي في الساعة الثانية عشرة.

انصرفنا نحن الاثنين وكنت خائفاً بأن السائق قد يغلبه النوم في الطريق فرجوته ان يذهب الى بيته وإستأجرت سيارة تكسي الى دارنا. في اليوم التالي جاء بي السائق عند بيت الزعيم وكانت سفرة مائدته عامرة وطلب من السائق ان يتركنا بعد ان عمل له صحناً من الطعام واختلى بي وقال: قل مالديك أولاً وانا سأقول لك شيئاً اريدك ان تفكر به فتحرجت أولاً ولكني تشجعت وقلت له: بأني مقبول في الدراسات العليا ومن المفروض أن التحق بالدراسة في مستهل شهر كانون الثاني والا فاني سأخسر القبول وهذا يعني إجراءات جديدة ومعاملات تقديم وان خدمتي العسكرية ستنتهي نهاية شهر كانون الثاني فهل لي ان اطلب رسمياً تسريحي وبالطرائق القانونية مع الثبوتيات والوثائق كلها قبل شهر واحد من التسريح الرسمي ولقد فهمت من القسم القانوني في وزارة الدفاع بان إمكانية استثنائي من شهر كانون الثاني ممكنة ولكن بموافقة الوزير بعد اقتراح رئيس الأركان المبني على التماس مقدم الطلب! صمت وقال: تعرف باني لن اخالف القانون ولكن لخدماتك في الموصل والوزارة فاني لا امانع في حالة موافقة رئيس الأركان واقسام مكتبه المختصة فقلت فوراً: هل ستسمح لي بان اتحدث مع رئيس الأركان وأذكر الحديث الذي دار بيننا؟ فقال: لا انا سأتحدث مع الزعيم احمد صالح العبدي في الموضوع. لم افاتح الزعيم مرة ثانية ولم يقل هو شيئاً لأكثر من شهرين حتى صدر قرار وزير الدفاع بتسريح منتسبي الدورة الثالثة عشره من كلية الاحتياط

قبل انتهاء مدتها القانونية بأربع أشهر لأسباب قيل في حينها بأن معظم منتسبيها كانوا منتسبين لاحزاب سياسية!. لا أستطيع وصف سعادتي بهذا الاجراء وسط عبوس وزعل معظم زملائي!!. وفي ظهر ذلك اليوم نفسه قال لي الزعيم بانه كان مرتاحاً لعملي في مكتب استعلامات الوزارة وتعاملي مع المراجعين ولاسيما الضيوف العرب والأجانب وطلب مني أن تتعامل بالأسلوب نفسه عندما أبدأ العمل في المحكمة العسكرية العليا التي هي بحاجة الى خدمات امثالي لا سيما وأن رئيسها صعب المراس وقد تسبب في احراج الزعيم في أحيان كثيرة. وقال: سأحدث العقيد فاضل عباس المهداوي بذلك. كنت اتوجس خيفة من المهداوي لمزاجيته وانفعاله السريع. ويتطلب العمل معه الكثير من من التأني والحذر.

شنت الرجعية والاقطاع حملات عدائية ضد قاسم ولم يتوان رجال الدين في العراق عن تكفيره واتهامه بالشيوعية وهو بعيد كل البعد عن ذلك. وقد لاحظت بوضوح تجنب قاسم واحياناً وجله من الحزب الشيوعي العراقي ولا سيما بعد عصيان الشواف حيث اصبح اكثر حساسية ونفورا.

رصدت حساسية قاسم من الشيوعيين في مناسبات كثيرة وكان اكثرها وضوحاً بالنسبة لي في المظاهرة الجماهيرية التي نظمها وقادها الحزب الشيوعي العراقي في الاحتفال بيوم العمال في 1 مايس 1959 إذ وقف الزعيم عبد الكريم قاسم يحيي الجماهير من سطح بناية الباب الخارجي لوزارة الدفاع المطلة على شارع الرشيد وسمعت هتافات المتظاهرين في الصف الأول التي كانت قيادات الحزب الشيوعي ولجنته المركزية في الصدارة وتضمنت: "حزب الشيوعي في الحكم مطلب عظيمي". كنت واقفا خلفه مباشرة ورأيت تقاطيع وجهه وتعابيره لاسيما حينما استدار الى ابن خالته وصديق الحزب الشيوعي العقيد فاضل عباس المهداوي وقال: شوف جماعتك يريدون الحكم علانية، أي انظر الى اصحابك الشيوعين يريدون الزحف على الحكم (الصورة رقم – 22). ثم غادر الزعيم والامتعاض واضح على محياه. وكان حاضرا معي الرئيس اول سعيد مطر والذي كان في سرية الانضباط العسكري المكلفة بحراسة وزارة الدفاع والمعروف باتجاهه المساند للحزب الشيوعي. كانت تربطني به

علاقة ود وصداقة وغالبا ماكنا نتحدث لاسيما في الساعات المتأخرة من الليل عند تكليفنا بواجب الخفارة في وزارة الدفاع، انا في استعلامات الوزارة وهو في حراسات الوزارة. يعلم سعيد بأني تقدمي على الرغم من أني لست منتسباً لأي حزب ولا اضمر أيَّ عداوة لحزبه. كان منفتحاً معي ويقرأ كثيراً ومطلع على الفكر التقدمي وله المام بالسياسة الخارجية للدول العظمى. نظرت اليه وقلت: اعتقد سيكون هناك خصام بين الزعيم وحزبكم!!، صمت الرئيس سعيد وقال: ارجو أن تكون مخطئاً ولكني اعتقد بان ما حصل اليوم يؤكد ذلك.



الصورة رقم (22): سطح بو ابة وزارة الدفاع بعد مغادرة الزعيم مباشرة ويظهر فيها المؤلف والرئيس سعيد مطر، الاحتفال الاول بعيد العمال العالمي عام 1959

كانت في رأيي "القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقولون". كان ذلك اخر أيام عملي في مكتب قاسم وما ان انتهى الأسبوع الا وانا منسب للعمل في المحكمة العسكرية العليا الخاصة والمعروفة شعبيا بمحكمة المهداوي. ذهبت يوم الخميس لأمارس عملي في المحكمة. كان لقائي مع رئيس المحكمة مساءً وحديثه معي مقتضباً وقال بأنه فهم رغبة الزعيم في تنظيم استعلامات المحكمة ونظراً لنجاحك في مكتبه فأنه ارتأى ان تعمل معي لاسيما وان محاكمة المتهمين "بمؤامرة الموصل "ستبدأ في القريب العاجل. (الصورة رقم – 23، 24).

صرفني على ان اعود في بداية الأسبوع القادم للقائه. جاء اجتماعنا الأول يوم السبت كما كان مقرراً واتفقنا على بعض الشؤون الإدارية وموقعي في هيكل المحكمة الإداري. لاحظت ومنذ الوهلة الأولى بان الرجل يريدني ان التحق بطاقمه العسكري وليس إعادة هيكلة الاستعلامات كما فهمت من الزعيم. ولا اخفي سراً بأني بعد تجربة الموصل سعدت جدا بان اعود الى بغداد واعمل في أية هيئة وبأية وظيفة فأنا مازلت في الخدمة العسكرية وهذه ربما هي افضل الأماكن حتى ييسر الله سبحانه وتعالى لي انهاء الخدمة العسكرية والسفر لإكمال الدراسات العليا بعد شهور معدودة!. نفذت الواجبات التي حددها رئيس المحكمة بدقة، وبعد أسابيع معدودة تم تسريح دفعتنا قبل اكمال المدة القانونية وبذلك استجابت السماء لدعائي.



الصورة رقم (23): المؤلف مع العقيد فاضل المهداوي رئيس المحكمة العسكرية الخاصة (محكمة الشعب)، اليوم الاول لالتحاقي في مكتب المحكمة 1959



الصورة رقم (24): المؤلف مع المدعي العام لمحكمة الشعب
ماجد محمد أمين عام 1959

في المدة الانتقالية من الحياة العسكرية الى الحياة المدنية حضرت لتوديع الطاقم العسكري في وزارة الدفاع وبينما انا مع الزملاء القدامى ونشوة التحرر من الروتين العسكري حضر الزعيم ومعه وزير الداخلية الزعيم احمد محمد يحيى زميله وصديقه الشخصي فأنتصبت بحركة لا شعورية وبكل عسكرية أجبرت الزعيم قاسم على الابتسامة التي قاربت الى الضحك ولكن من دون سخرية واردف قائلا؛ لم نستطع ان ندربك لتكون عسكرياً يوم كنت منا والآن وانت المدني تبدو عسكرياً أكثر من ايامك معنا.

الباب الرابع

العودة الى الحياة المدنية

في هـذا الوقـت اسـتلم إدارة الإذاعـة والتلفزيـون صديقـي وزميـلي في اول لجنـة للإرشـاد بعد الثورة سـليم فخري وطلب مني التعين معه في الإذاعة. وهكذا نسبت رئيسـاً لقسـم الاحاديث وأصبحت فعلياً مساعداً للمدير سليم فخري الذي هو الان مقدم ركن بعد ان اعيد الى الجيش برتبته العسكرية قبل تسريحه وادانته عسكرياً.

كانـت تلك احلى فـترات حياتي وأكثرها متعة فقد أتـاح لي منصبي الجديد ان اعيد علاقاتي مع الكثير من الذين كنت اطمح ان أكون معهم من الادباء والفنانين لا سـيما الشـعراء المجدديـن المقربـين الى قلبي مثـل صديق العمـر بلند الحيـدري والعزيز بدر شـاكر السياب والطيب حسين مردان كما انه قربني اكثر من عظماء الغناء العراقي مثل حضيري أبو عزيز الذي كان يعمل مع والدي في سلك الشرطة والذي شجعه والدي وساعده على احتراف الغناء وكان يعد نفسه جزءً من عائلتنا فخراً وتيمناً. عدت أيضا الى التزامـي بأعمـدة المقام العراقي الـذي كنت من المؤمنين بروعتهم ومن العاشـقين لأدائهـم. أعدت إتصال عميد المقـام العراقي محمد القبانجي بالإذاعة كراع ومسـاند لها واستعمل خبرته في الافادة من تلاميذه كيوسـف عمر وناظم الغزالي وعبد الرحمن خضر لمساندتي. كانوا عمالقة المقام العراقي وسبب حبي للمقام.

كما ان حبي للغناء الكردي ومعرفتي به وتذوقي لفنونه أدى الى كسـب ثقة قيادات الاذاعـة الكردية حيث نَمـت علاقة صداقة أبدية مع الفنان الأصيل شـه مال صائب استمرت حتى وفاته. وسأتحدث عنه في سياق هذه المذكرات لاحقا. كما أني أسست لعلاقـات جديدة مع فنانين اكراد اخرين عظام مثل حسـن جـزراوي وعلي مردان... وأحييت علاقـات قديمة ربطت خالي كاكـه ره ش مع الفنان رسـول كردي والمغني طاهـر توفيـق الذين عرفتهـم يوم كنت طفـلاً والذين كنت اعدهم أخـوالي أيضاً. كما بدأت علاقاتي مع صديق العمر الفنان العبقري عازف العود المشهور منير بشير والتي تزامنت مع رئاسته لقسم الموسيقى في اثناء عملي في الإذاعة.

كان تلفزيون بغداد (وهو اول محطة تلفزيون في الشرق الأوسـط) ملحقاً بالإذاعة وتابعـاً لهـا في الادارة والبرامج ولا يتعدى محيط بثه مدينة بغداد في ذلك الزمان. وكان يبـث برامجه مسـاءً فقـط. وكان مديـر التلفزيـون الفعلي والمسؤول عنه المنلوجسـت

المعروف علي الدبو على الرغم من انه موظف بأجر يومي. والبناية المخصصة له كانت مؤقتة مبنية من الصفيح وتقع في زاوية صغيرة من حديقة دار الاذاعة الخلفية.. ولا انسى واقعية "المنلوجست" المحبوب علي الدبو المزوجة بخفة الظل وهو يواجه الصعوبات الناتجة عن ضعف الأمكانات في تلك الأيام.

كما ساعدني الحظ بالتعرف على المخرج السينمائي والتلفزيوني يوسف جرجيس الذي كان في الحقيقة المشرف على التمثيليات في التلفزيون ولا يتوانى عن ترتيب وإخراج البث من بدايته حتى ختامه. ولا انسى - ايضاً - ابتسامته وهو يحاول وبسرعة بديهته أتخاذ القرارات الصائبة عندما تجري الأمور بغير ماخطط لها في برامج التلفزيون. أتذكر - أيضاً - "الرقيب العسكري" في الإذاعة العقيد الطبي لطفي طاهر الذي كان طبيباً بيطرياً عندما كان يريد ان يعرف برنامج التلفزيون ويتصل كل مساء بعلي الدبو المسؤول عن البرنامج ليتعرف على مواده لتلك الليلة. كان ضخم الجسم وخشناً في معاملته مع الناس وكان يدعونني "ابن الاغا "لان لقب جدي عند العسكر القدامى "إسماعيل اغا". كنا نداعبه وكان اكثرنا مداعبة له اليوسفان، "العاني وجرجيس". كما كنت استمتع بسماع برنامج مدير المكتبة الموسيقية في الإذاعة عبد الحميد الدروبي "الرفوف العالية "والذي غدا صديقاً على الرغم من فارق العمر بيننا.

توطدت علاقتي - في الإذاعة - بالفنان العبقري يوسف العاني الذي كان يرأس قسم "البرامج" في الهيكل الإداري. بدأت التعرف على شخصيته بكل تناقضاتها فهو متسامح وشديد الحساسية مع قلبه الطيب والتزامه السياسي الكامل وتشبثه بالحقيقة. كان تقدمياً بكل جوارحه. ويعمل ليلاً ونهاراً ويعاني - احيانا - من آلام في الظهر فيضطجع على ظهره وهو يسهم في الحديث والمناقشة بجدية حتى في الاجتماعات الرسمية. كان مواظباً في دوامه وتربطه علاقات ودية مع الجميع. كنت احرص على أدامة العلاقات مع الأصدقاء والمعارف كلهم. حدثت بيني وبين يوسف العاني بعض التصدعات الخفيفة بسبب الشاعر الوطني الكبير محمد مهدي الجواهري والتصاق يوسف به. كان الجواهري لا يقدر بعض الشعراء الاخرين ويؤثر بطريقة - اعدها انا - غير منصفة في الجهات صاحبة القرار للتقليل من مكاناتهم. فعلى سبيل المثال، كنت

اقدر كثيرا الشاعر الكبير محمد صالح بحر العلوم واعده اكثر الناس تضحية لالتزامه السياسي والخلقي ورفضه المهادنه والمساومة في العهود كلها وقد أمضى سنوات كثيرة من عمره في السجن بينما كان استاذنا الجواهري يعيش معززاً مكرماً خارج العراق وفي داخله. كنت أرى انه لا يعطي بحر العلوم مكانته اللائقة التي يستحقها في العهد الجمهوري كذلك بالنسبة لصديقي ورئيسي في مجلة "الأسبوع" بدر شاكر السياب الذي لم يظهر الجواهري لـه أي ود او احترام. ويوم كنت عضواً في لجنة الارشاد القومي الأولى كنت بدافع الاحترام لا اناقش ما يريده او يطلبه الجواهري. ولكن حين قدمت الهيئة المؤسسة لاتحاد الادباء العراقي طلباً للترخيص الرسمي ارتأيت ان يدعو اخرين للتوقيع على طلب التأسيس. وبينما كنت اتحدث بعفوية بضرورة إضافة أسماء ادباء اخرين امتعض الجواهري وخرج غاضبا من قاعة الاجتماع وتبعه يوسف العاني. فحدث اثرذلك نوع من البرود بيني وبين يوسف تطور ونما حتى وصل درجة القطيعة بعد مغادرتي العراق للمرة الاولى. كان حاضراً معنا عضو اللجنة سليم الفخري قبل ان يعود رسمياً الى الجيش. لقد أحببت بحر العلوم لبساطته وروعة انتاجه ناهيك عن تضحياته.

اما بدر شاكر السياب فقد كان شديد الحياء لاسيما بعد ان انقلب على الفكر اليساري واتجه نحو الاحزاب القومية العربية. تمنيت لـه الفوز بحقوقه الوظيفية والاجتماعية وكنت ادافع عنه في كل مناسبة، على الرغم من ان يوسف العاني حين عاتبني بعد ذلك في بيروت في صيف عام 1972 اعترف لي بان الجواهري "أبو فرات العزيز، لم يكن على حق".

كانت ايام العمل مع سليم الفخري في الإذاعة من اكثر اوقات حياتي متعة فقد كنت ساعده الأيمن على الرغم من اني كنت رسمياً وفي السلم الاداري رئيس قسم الاحاديث فقط وأصبحت معاونه الفعلي لاحقاً. ذلك كله كان بمباركة الرئيس قاسم. وعندما قرر الزعيم قاسم تنحية سليم الفخري واعادته الى الجيش غدوت قائماً مؤقتا بأعمال وظيفته "مكره اخاك لا بطل كما تقول العرب". تدخلت شخصياً لنقل الشاعر كاظم السماوي من سلك التعليم الابتدائي ليحل محلي في رئاسة قسم

الاحاديث وكالةً. وافق ذلك تسلم وزارة الارشاد شخصية وطنية وتقدمية معروفة وهو المؤرخ المعروف والأستاذ الجامعي الدكتور الطيب في طبعه "فيصل جري السامر" البصري في سحنته وكرمه والذي لا تفارق الابتسامة شفتيه في الأوقات كلها وفي اصعب الظروف. عامل جميع العاملين معه باحترام حتى وان اختلف معهم. ولما كانت الوزارة هي من نتاج الثورة وربما استنساخاً لما حدث في مصر بعد ثورة 23 يوليو، فقد قرر تحديث مديرية الدعاية العامة التي كانت تدعى هكذا قبل الثورة. وكانت اهم دوائرها دار الإذاعة - وعلى ما اعتقد - المطابع الحكومية والجريدة الرسمية "الوقائع العراقية".

قرر قاسم بعد دراسة وتمحيص الاعتماد على شخصيات ثقافية لها باعها واطلاعها على الثقافة العالمية. عقد الوزير الجديد اجتماعاً في ديوان الوزارة الجديد الواقع في بناية حديثة في بداية شارع الرشيد مقابل مدرسة المأمونية الابتدائية القريبة من محلة الفضل في بغداد. كان عدد الحاضرين لا يتجاوز الستة بينهم يوسف العاني وسليم الفخري والقاص والروائي المعروف ذنون أيوب الذي كان في زيارة لبغداد من فينا عاصمة النمسا وسامي بطي الذي كان يرأس تحرير جريدة البلاد والشاعر محمد مهدي الجواهري. طرح الوزير تصوره للوزارة وتحدث عن آرائه في الدعاية التقليدية والثقافة والتراث واشار - كعادة الاكاديميين - الى بعض التجارب الأوروبية والعربية. أستمر الاجتماع الى ساعة متأخرة من الليل. أسعفنا الدكتور السامر بعشاء من مطعم يقع اسفل مكتب الوزير وعلق عليه قائلا: "انه كباب ممتاز" وانه يشم رائحته طوال اليوم وقد دفع تكاليفه من جيبه الخاص بعد ان دعا مدير مكتبه لمشاركتنا وطلب مني - كوني اصغر الحاضرين رتبةً وعمراً - كتابة محضر الاجتماع. اخذت الموضوع بجدية تامة وانتهى الاجتماع المطول ولم يسفر عن اية قرارات بل كان مجرد "عصف فكري" كما يقال في التعريف الاكاديمي وفهمت ذلك من الدكتور السامر - ايضاً - بعد مقابلتي له في الأسبوع التالي وانا أحاول ان استجمع خطوط اللقاء لكتابة المحضر. اعتقد ان الوزير أراد ان يرسم هيكلاً للوزارة ولا بد له من ان يتبين فلسفة المؤسسة قبل الغوص في تفاصيل إعادة بنائها. لم تكن هناك فلسفة ولم تكن هناك وزارة مماثلة قبل عام!!. لم اخفِ الوزير سراً فأعلنت له بأني لا أعلم كيف

سأكتب مادار في الاجتماع. ناهيك عن ترتيب الأفكار غير الواضحة التي طرحت. لاحظ الوزير أني كتبت العديد من الملاحظات التي كنت انوي ان اجعلها مسودة المحضر. فطلبها مني ووعد بردها فوافقت. أتصل مدير مكتب الوزير طالباً مني ان اقابل الدكتور السامر مساءً. وكنت على بابه بعد اقل من ساعتين!.

وعندما قابلت الدكتور السامر بدأ الحديث قائلاً: قرات ملاحظاتك التي آنست بها... كذلك لاحظت مخطط لهيكل الوزارة الذي رسمته واعجبت به وأريد مناقشته معك، فأجبت: أولاً بأن الهيكل الذي عددته مسودة منقولة وبتصرف عن وزارة الثقافة السويدية وافدت من هيكل مؤسسة (BBC) البريطانية في تنقيحه. شكرني وقال: أولاً أريد أن اقرر من هو الرجل الأول الذي سيدير الوزارة فأنا سأرسم السياسة وأكون حلقة الوصل مع مجلس الوزراء. كنت أنصتُ له هو يشرح ذلك وكأنه يريد ان يراجع ما أقره واراد ان يستجمع أفكاره. بدأ بإملاء مواصفات المدير العام علي وسألني ان كنت اعرف الهيكل الإداري للوزارة ولما اجبت بالنفي نادى مدير مكتبه واستشاره وهنا طلبت الاذن بالانصراف بعد ان تركت ما أملاه علي أمامه لاسيما وانه طلب حضور مدير الذاتية (المسؤول عن الملاك والاعمال الإدارية). أذن لي الوزير وودعته بعد اربع ساعات وكنت في غاية الإرهاق.

وفي اليوم التالي جاء الدكتور فيصل الى دار الإذاعة بغتة ولم يعلن عن حضوره الا ساعتها. وفي مكتب المدير العام اجتمع بسليم الفخري وبيوسف العاني وبي وبدأ الحديث بأنه معجب بذنون أيوب الاديب المعروف كذلك بيوسف العاني. أنبرى يوسف وقال: الوزارة بحاجة الى الظهور كمؤسسة تقدمية لتقوم بأرشاد الجيل الجديد وأنها بحاجة الى انسان له وزنه الثقافي وأعتقد بأن استاذنا ذنون أيوب هو مرشحي ان وافق العودة الى الوطن. بينما أردف سليم الفخري وقال: أن مرشحي يوسف العاني!!. أجاب يوسف بلا تردد: انا رجل مسرح وتمثيل فأني مناسب لذلك المكان، فأجاب الدكتور فيصل وبابتسامته المعهودة: أنا بحاجة اليكم جميعاً وكأنه ينوي تأسيس مديرية السينما والمسرح ضمن هيكل الوزارة الجديد التي اعتقد بانه كان ينوي أن يرشح يوسف العاني لرئاستها وهذا ما حدث بالفعل بعد عام. كانت الحاجة

للشخص الأول بعد الوزير هي الملحة لتسيير أمور الوزارة في هذه المرحلة الحساسة واكد ذلك مرات عدة.

علمت بأن مجلس الوزراء وافق على تعيين ذنون أيوب مديراً للإرشاد العام كما قرر قبول هيكل الوزارة الجديدة الذي استحدث فيه الدكتور فيصل السامر مديرية الصحافة واستطاع اقناع محمد توفيق حسين أستاذ التاريخ في الجامعة الامريكية ومؤلف الكتاب التثقيفي الذائع الصيت،"هذا هو واقع العالم العربي "الذي نشر عام 1956. وتجدر الأشارة أن الكتاب قد اعيد طبعه مرات ومرات وقد صدر عن دار العلم للملايين اللبنانية المعروفة حينئذ كما نشر محمد توفيق حسين كتاباً تعريفياً بثورة 14 تموز. كان من أوائل الكتب التي صدرت بعد شهور من قيام ثورة 14 تموز ونشرته دار النشر نفسها وبعنوان "عندما يثور العراق". فهمت بأن محمد توفيق حسين مع حبه والتزامه بوطنه ورغبته في خدمته وبالنظر لعيشه خارج العراق لمدة طويلة لم يكن على معرفة او حتى فهم للصحافة الداخلية فكيف سيصبح اول مدير لها على الرغم من علاقاته المتشعبة بالصحافة العربية والعالمية. علمت بأن اجتماعاً عقد بمكتب الوزير حضره المدراء في الوزارة بحضور سليم الفخري مدير الإذاعة وتحدثوا عن ضرورة إيجاد معاون لتوفيق حسين ممن له إلمام بالصحافة الداخلية وفي اثناء الحديث ورد اسمي لمساعدة القادم الجديد. كنت اعرف ان بإمكاني تنوير المدير العام الجديد بالواقع الصحفي في العراق نظرا لخبرتي السابقة وعملي الصحفي. كنت اجل واحترم محمد توفيق حسين ومن قرائه فأني رحبت بالفكرة وسعدت بلقائه. كان عالماً وموسوعة ثقافية فضلاً عن كونه لطيف المعشر. أعلمته اني وفي غضون الشهور القليلة القادمة سأكون في طريقي لاكمال دراستي العليا وسيحتاج هو الى شخص اكثر التزاماً وعلماً مني ولهذا رشحت الصحفي والمثقف وخريج الجامعة الامريكية في القاهرة قسم الصحافة وديع بطي ابن عميد الصحفيين في العراق رفائيل بطي وصاحب جريدة البلاد لهذا المنصب فهو سليل تلك العائلة الصحفية وله علاقات مع الصحافة العربية عموماً والصحافة المصرية خصوصاً،ناهيك عن فهمه للواقع العراقي بحكم عمله في جريدة البلاد. قَبلَ الأستاذ وديع مبدأ التعاون مع دائرة الصحافة الجديدة لكنه طمح في منصب ملحق صحفي في القاهرة او في واشنطن! اما اختياره القاهرة لان زوجته مصرية وعائلتها من العوائل

المرموقة والمعروفة اجتماعياً هناك إلا أن ملحقية القاهرة لم تكن شاغرة بينما ملحقية واشنطن كانت بحاجة الى ملحق كفوء ومهني وهكذا انتهى الأمر بوديع ملحقاً في واشنطن!!. طلب محمد توفيق حسين من الوزير ان اعمل معه. وحينما تحدث معي الوزير أعلمته بأني سأغادر العراق في غضون أشهر قليلة. طلب مني الدكتور فيصل ان اجتمع بالدكتور محمد توفيق حسين وأوضح له الأمر بنفسي وهكذا ذهبت لمقابلة مدير الصحافة الجديد واسعده جداً اصراري على الدراسة ووعدني بتسهيل اموري واكد بأنه بحاجة الي في الاشهر الأولى وسوف لن يقف حجر عثرة في طريقي العلمي.

اتصل الدكتور محمد توفيق بسليم الفخري بحضوري وكان الحديث بينهم في غاية الود وانقلبت اللهجة الى اللهجة الموصلية الرائعة وبعد اخذ ورد اتفقا على ان يكون دوامي صباحاً في مديرية الصحافة وأما مساءً فاستمر في مساعدة سليم الفخري ويكلف كاظم السماوي رئيساً لقسم الاحاديث بدلاً مني ومع ذلك فقد كنت امني النفس بأن يقوم مدير الذاتية بنسف الفكرة من أساسها واذا بهذا البيروقراطي يجد حلاً لتكبيلي في هذه الوظيفة وذلك بأني أُعين بوظيفة معاون ملاحظ وأُكلف بمهام معاون مدير الصحافة! أي ان أقوم بكل أعباء الوظيفة ومسؤولياتها ولكن براتب اقل تماما كما حصل بعد تنحية سليم الفخري. كان مكتبي من أوسع المكاتب وكان مدير مكتبي بدرجة ملاحظ بينما كنت بدرجة معاون ملاحظ!. ولم يكن راتبي يكفي لدفع نفقات الضيافة وكانت في تلك الأيام مخصصات الضيافة لمكتب الوزير والمدراء العامين في الوزارة فقط!. كان العمل مرهقاً جداً. ففي الصباح اعمل في الوزارة وفي المساء في الإذاعة مع سليم الفخري تبرعاً دون اية اجور.

كان المديران سليم الفخري وتوفيق حسين في غاية الالتزام فبينما مدير الإذاعة يقدم استشاراته لرئيس الوزراء، كان مدير الصحافة يحاول بناء هيكل ادارته الجديدة ولكل منهما أسلوبه الخاص في العمل. فسليم له دائرته الخاصة من المعارف والمستشارين الذين كانوا متبرعين جميعاً فلم تكن لديه أية صلاحيات لصرف أية مبالغ مهما قَلت وأن برامج ونشاطات الإذاعة مثمنة قبل الثورة ولا يمكن تغييرها مع كونها محدودة، فحفلات المغنين كانت أسعارها بخسة اما مؤلفو الأغاني او ملحنوها فلم تكن لهم اية أجور!.

كانت الأغاني تذاع مجاناً ومن دون مقابل فلا يحصل المغني على أي اجر بعد ان تدفع له الإذاعة أجور حفلته او تسجيل اغنيته لأول مرة وتصبح الاغاني ملك الإذاعة تتصرف بها كيف تشاء واذا أراد مسؤول البرنامج عدم إذاعة اغنية هذا المغني او ذاك فانها ستقبر والعكس صحيح. كان الأسلوب نفسه مع المتحدثين في قسم الاحاديث وكذلك قسم التمثيليات وفي اقسام الإذاعة كلها بشقيها الكردي والعربي. كانت أغاني وحفلات المغنين العرب تذاع على وفق ما تشاء الإذاعة من دون مقابل والقواعد نفسها تسري على المغنين العراقيين فالميسور منهم لا يطالب بالاجور وفي الكثير من الأحيان يتبرع بها للأخرين وعلى رأسهم القبانجي الذي كان ميسوراً وتاجراً ناجحاً وكان يتبنى ويساعد قراء المقام شخصيا من الجانبين: المادي والمعنوي. بينما كان ناظم الغزالي في وضع مالي لابأس به وكان مغنياً ناجحاً وحفلاته الخاصة تدر عليه دخلاً ممتازا، اما المغني او الممثل الذي هو موظف في الدولة فأن فنه يصبح هواية وليس عملاً وبلا مقابل!. حاولنا جذب بعض أساتذة الجامعة في قسم الاحاديث ومنهم - على سبيل المثال - الدكتور علي الوردي الذي قدم برنامجاً في الإذاعة واخر في التلفزيون بعنوان "المشاهد يسأل وعلي الوردي يجيب" ولاقى ناجحاً كبيراً وكان الوردي كعادته صريحاً طيباً ومتمكناً فأحبه المتنورون بينما انهالت عليه وعلينا رسائل الشتم والتهديد من بعض المسؤولين الكبار ورجال الدين والمشاهدين محدودي الثقافة.

احجم العديد من أساتذة الجامعة ابداء العون لمدير الاذاعة او مساعديه لأن الجهد الذي يتطلبه ذلك العمل لا يوازيه أي مردود مادي! ولا ننسى أيضاً أن تلفزيون ذلك الوقت كان محدود البث ولا يتجاوز مداه مدينة بغداد وبعض ضواحيها. فالمواهب المحلية هي المنبع الرئيس لبرنامجنا. كان قسم التمثيليات من انجح الأقسام في استقطاب الموهوبين لان عبدالله العزاوي رئيس قسم التمثيليات كان أستاذا في معهد الفنون الجميلة. عَمل يوسف العاني رئيس قسم البرامج بجد ووضع خطة واضحة لتطوير الإذاعة والتلفزيون ومدها بدماء جديدة وأفكار مبتكرة مما تطلب جهوداً يمكن وصفها بالجبارة لمعالجة اخفاقات بعض الأقسام. فاجتذب الشباب للمساهمة في استبدال بعض الملاكات المتهالكة. وبدأ بأستبدال اللجان المشرفة على امتحان الهواة فسمح بكسر الطوق القديم والتشجيع على التجديد. بدأت حملة اصلاح في الاذاعة

كان اقطابها يوسف العاني وبعض الشباب التقدمي والمتحفز والمحرك الإداري سليم الفخري. كان قسم الموسيقى الذي يرأسه في تلك الحقبة الموسيقار الموهوب منير بشير منافساً لسلمان شكر وكان التعاون بينهما محدوداً. كان الموسيقار الموهوب والهادئ والطيب غانم حداد يعمل من دون ضجيج وصديقاً للجميع وقليل الكلام. اما الفنان الرائع وعازف الناي المبدع خضر الياس وعازف الطبلة المشهور المبدع سامي عبد الاحد فكانوا أصدقاء الجميع كذلك الفنان الموهوب جميل بشير.

اهم مشكلة واجهت الإذاعة والتلفزيون كانت اجتذاب المتنورين من المثقفين كالدكتور صلاح خالص الذي كان أستاذاً في الجامعة ورئيساً لتحرير مجلة "الثقافة الجديدة "التي منعت عن الصدور في العهد الملكي كونها يسارية النهج والالتزام ومحسوبة على الحزب الشيوعي العراقي على الرغم من أنها كانت مفتوحة على الجهات الثقافية كلها. وقد ساهم في النهاية معنا ولم يدخر جهداً في مساعدتنا.

اما في القسم الكردي فقد ساهم الفنان المغني المثقف شه مال صائب بدعمنا في المجال الموسيقي كذلك بعض الشيوعيين الأكراد. كان الوضع في الإذاعة التركمانية اكثر تعقيداً فعلى الرغم من تعاون المذيع سنان سعيد إلا ان تعاونه أتسم احياناً بالمحدودية، ربما لأنه لم يكن مرتاحاً لاتجاه الإذاعة سياسياً. كان محافظاً ولا يرتاح بل يرتاب احياناً من التقدميين والتف معظم اليساريين وعلى رأسهم الشيوعيون حول سليم الفخري وبحماس وتضحية وتفانٍ. بذلوا جهودهم كلها في مساندة وتطوير الإذاعة والتلفزيون منهم الفنان التشكيلي الدكتور خالد الجادر والفنان العبقري جواد سليم ومن الادباء عبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري اما الدكتور الاديب والمجدد علي جواد الطاهر فقد وضع امكانياته وعلاقاته كلها في خدمتنا وكذلك الاديب اليساري خالد السلام فقد بدأ العمل ليلاً في قسم اللغات الاجنبية بكل اخلاص وتفان.

أصبحت دار الإذاعة في عهد سليم االفخري مثل خلية نحل. كان له قناة مفتوحة مع رئيس الوزراء ووزير الارشاد مباشرة. ولكن عندما بدأت ثقة قاسم تتزعزع باليساريين وبالشيوعيين خاصة، سحب الفخري من الاذاعة والتلفزيون واعاده الى الجيش، وبذلك عادت الإذاعة الى دورها القديم في التطبيل للحكم من دون اتجاه فلسفي.

نقل كاظم السماوي (الصورة رقم - 25) من قسم الاحاديث وكلف بمهام مدير الإذاعة وكالة لعدم حصوله على شهادة جامعية. كان معلماً في المدارس الابتدائية وهو خريج دار المعلمين الابتدائية. غادر الى أوروبا الشرقية بعد فصله وسجنه في العهد الملكي البائد وقضى معظم مدة اغترابه في هنغاريا. كان شاعراً موهوباً صعب المراس على الرغم من انه كان دائم الضحك. وتتصف أحاديثه بالتشويق - غالباً - ويتسم أسلوبه بالسخرية اللاذعة. وكان مجيئه لإدارة الإذاعة بعد رفض معظم العاملين مع سليم الفخري من الإداريين ورؤساء الأقسام التوجهات الجديدة للزعيم بعد صيف 1959.

كان للشيوعيين نفوذ هائل بين المثقفين ليس لأن الكثيرين منهم أعضاء رسميون في الحزب ولكن لأن الحزب اجتذب الكثير منهم بسبب طروحاته السياسية الوطنية وتأريخه النضالي وتعرضه للتنكيل في العهد البائد. لم أكن منتمياً لأي حزب وشعرت حينها بالالتزام نحو سليم الفخري وانسحبت من الإذاعة تدريجياً لأكرس جهدي كله لمساعدة محمد توفيق حسين في بناء مديرية الصحافة لاسيما وان المتعاونين معظمهم مع سليم الفخري ومساعديه شعروا بأن كاظم السماوي كان يغالى في الانصياع لأوامر اولياء الأمر الجدد ومعظمهم كانوا من دوائر الامن.



الصورة رقم (25): في دار الاذاعة، في اقصى اليمين الشاعر كاظم السماوي والمؤلف وفي اقصى اليسار المصور انتران عام 1959

كان اخر عهدي بالعمل مع الإذاعة هو احتفالات السنة الأولى للثورة حيث كنت في لجنة فرعية للمساهمة في برنامج الاحتفالات. وكانت اللجنة برئاسة الزعيم شاكر محمود شكري الذي كان يقوم بوظيفة مدير الإدارة بوزارة الدفاع. وهو رجل كفوء وفي غاية الوقار والأدب، يأخذ بمعظم أراء اللجنة المختصة ويعامل الجميع بغاية اللطف. ولا بد ان اعترف باني كنت مشغولاً في كثير من الأحيان للتخطيط للدراسة. حشدت الفرق الفنية الحديثة كلها جهودها لإنجاح المهمة. كان منير بشير وغانم حداد ممثلي الإذاعة والتلفزيون في تلك اللجنة وكانت مساهماتهم وبصماتهم ظاهرة في ذلك المجال. دُعيت للمساهمة في الاحتفال معظم الفرق القومية للدول الاشتراكية والعربية وبعض الدول الأوروبية الغربية. لقد تنبهت قبل يوم واحد من الافتتاح الى خلو البرنامج من "الفولكلور العراقي". حيث كانت كل فقرات البرنامج تخص الفن الحديث. فاخبرت رئيس اللجنة الذي كلفني بتلافي النقص. وقد استطعت استقدام الفرق المتخصصة في ذلك. وما ان حل موعد العرض حتى كانت الفرق الفولكلورية والموسيقية ضيوفاً في بغداد. كان الأداء رائعاً وضاهى أداء الفرق الأجنبية!. حَشدتُ جهود بعض الأصدقاء الاكراد والتركمان للمساهمة الفعلية في تجنيد فرقهم الموسيقية والراقصة لهذا المهرجان. استجاب الجميع برحابة صدر وبأريحية كما يقول أهل بغداد!. وعندما سال الزعيم قاسم عمن كان المسؤول عن "الوصلة" الأخيرة فأخبر بأني كنت وراء ها الموضوع، أرسل في طلبي. وشكرني، فقلت له ان الفكرة كانت لي ولكن إخراجها كانت بجهود يوسف العاني ويوسف جرجيس فضلاً عن منير بشير وغانم حداد وهم الذين يستحقون الثناء. أتجه الزعيم فورا الى المسرح وصافح يوسف العاني ويوسف جرجيس وكان خمسة منهم يتناولون عشاءهم بعد الرابعة من منتصف الليل ومعهم منير وغانم - وعلى ما أتذكر حميد الدروبي - الذي كان مسؤولاً عن المكتبة الموسيقية للإذاعة والتلفزيون. ولا انسَى يوسف العاني الذي كان فمه مملوءاً بالأكل بينما كان البقية يهمون بالأكل وهم يحاولون الوقوف احتراماً للزعيم. قال يوسف العاني للزعيم قاسم لابد انك جائع أيضاً وأعطاه لفة صغيرة من الكباب فوقف يتناولها معهم. كانت تلك هي روعة الرجل وعظمة وطيبة الزملاء لاسيما

اليوسفين العاني وجرجيس. تدخلت وقلت للزعيم بان الاخوان وبضمنهم اللجنة تبرعوا لدفع أجور الفرق الفنية لعدم وجود "باب صرف" في الميزانية فالتفت يوسف العاني الى الزعيم شاكرا واردف قائلا ان العجز بحدود 150 ديناراً. اشار الزعيم الى الرئيس سعيد الدوري بأن يتولى تسديد النفقات وكان الدوري يقوم بمهام سكرتيره الصحفي. وفهمت لاحقا ان تلافي ذلك العجز المالي للاحتفالية جاءت تبرعات من راتب الزعيم ورئيس اللجنة ومرافقيه. اثنى الزعيم على الجميع وهنأهم على مجهودهم وانصرف ولم أر الزعيم بعدها إلا في المستشفى اثر محاولة اغتياله!!.

كانت تلك اخر جهودي في الإذاعة وبداية التحضير الجدي والدؤوب للالتحاق بالدراسات العليا. بدأت أستشعر بما سيحدث في البلد لاحقاً ووصفته بالعد العكسي للمجابهة بين الثورة وانحرافها التدريجي ووقوع الانشقاق في الصف الوطني. حاول محمد توفيق حسين تطوير الصحافة عن طريق فتح دورات تدريبية وارسال بعثات الى الخارج والعمل لتأسيس بذرة التعليم الجامعي التي انتهت بعد ذلك بسنوات بتأسيس قسم الصحافة في كلية الأداب بجامعة بغداد. لكن تغيير وزير الارشاد وتعيين وزير عسكري بالوكالة جعل الوزارة أكثر بيروقراطية بضمنها الإذاعة والتلفزيون والصحافة، الا مصلحة السينما والمسرح التي كان مديرها العام يوسف العاني ذا المنزلة الخاصة عند الزعيم فضلاً عن شهرته واحترامه بين الأوساط الشعبية والمثقفة وتصرفه بمهنية اتجاه تطوير مجال عمله.

كان الزعيم إسماعيل العارف يتولى وزارة المعارف وكان همه الوحيد استمرارية إدارة تلك الوزارة المهمة وأهمل وزارة الارشاد التي كلف بإدارتها وكالة لانعاشها. غادر ذنون أيوب منصبه ليصبح ملحقا صحفيا في سفارة العراق بفيينا إذ كان يقيم فيها قبل عودته الى العراق بعد ثورة 14 تموز. وعاد محمد توفيق حسين الى الجامعة الامريكية في بيروت أوائل عام 1961 وبخروجهم انتهت محاولات التجديد كلها كما تم نقل خدمات الرجل المسؤول عن بناء وزارة الثقافة وواضع فلسفتها الدكتور فيصل السامر الى وزارة الخارجية ونسب وزيراً مفوضاً يرأس البعثة العراقية في

سفارتنا في إندونيسيا.

كان الزعيم الركن إسماعيل العارف ملحقاً عسكرياً في واشنطن ابان ثورة عام 1958 ومن أصدقاء قاسم قبل الثورة ولعب دوراً مهما في السيطرة على السفارة هناك وتأمين تسلم حكومة الثورة ممثلية العراق في الأمم المتحدة. وفي خضم الصدام بين قاسم وعارف، كان عبد السلام عارف قد صنف إسماعيل العارف ضمن قائمة الأعداء وحاول تجميده على الرغم من إن الأخير كان من أوائل الضباط الاحرار.

كان لعبد الكريم قاسم علاقة سيكولوجية بلوائه وحريصاً على اختيار آمر له يتميز بالولاء والالتزام التامين لشخصه، لهذا اعاد العارف الى بغداد وسلمه قيادة لواءه واصبح من ثقاته. وكانت وزارة المعارف مهمة للغاية بوصفها معقلاً لليساريين والشيوعيين بصورة خاصة. وعند تسرب الصراع بين القوى الرجعية وحليفتها القومية لدوائر الدولة أصبحت وزارة المعارف مسرحاً لهذا التنافس. أسند الزعيم عبد الكريم قاسم الذي اصبح الان لواء ركن بعد ترقيته على وفق السلم الروتيني يوم 6 كانون الثاني عام 1960، وزارة المعارف الى رفيقه وصديقه إسماعيل العارف. كانت ثقة الزعيم بحزم وصرامة العارف هي السبب الرئيس لتكليفه بهذه المهمة.

أخبرني إسماعيل العارف بتأريخ 20/ 11/ 1965 - والذي جمعتني به الأقدار في واشنطن العاصمة الامريكية عند اقامته فيها بين عامي 1964- 1966 واصبحنا قريبين لبعضنا لدرجة كبيرة- بصراحة وعلمية واعتقد بأمانة أسباب ما حدث وقال: عدت الى بغداد في شهر تشرين الأول بعد اتمام دراسة الماجستير في العلوم السياسية من الجامعة الامريكية في واشنطن التي انتسبت لها اثناء عملي كملحق عسكري لأني كنت قد حصلت أيضاً على ليسانس من كلية الحقوق في بغداد (الدراسة المسائية) في اثناء خدمتي في الجيش. كان الزعيم يعلم بتحصيلي العلمي قبل الثورة وكنت على اتصال دائم به بعد عودتي. أستعان بي وفاجأني بالتعين في وزارة المعارف واعتقد انه كان يرى فيها مصاعب ومشاكل تحتاج الى تذليل وقد أوضح لي ذلك مساء يوم تكليفي، طالباً مني ان أكون" فوق الميول والاتجاهات ". فهمت منه انه يريد تقويض دور الشيوعيين

في التعليم ويعلم جيداً رغبتي في المساهمة ببناء بلدي وعلاقاتي الجيدة بالأمريكان وانا حاصل على شهادة عليا من أمريكا ويعلم بميلي التقدمي وعدم التزامي الحزبي، لهذا ارادني لهذه المهمة. قال: حينما شغرت وزارة الارشاد بعد نقل وزيرها الى سلك الخارجية الدكتور فيصل السامر فوجئت باسنادها الي وكالة. وفهمت من حديثه أنها لم تكن ذات اهمية عالية بالنسبة للتطورات السياسية. وقد تركت الوزارة تسير بنوع من الروتينية والمهنية. ولما كانت غير مسيسة نسبياً فأن مغادرة مدرائها العامين الى وظائف أخرى بإختيارهم باتت مسؤولية الوزارة التقليدية وترك للبيروقراطية ادارة دفتها بينما ركز جهوده على وزارة المعارف وكان الهم الوحيد لعارف هو إدارة اهم وزارة في البلد واكبر هيئات الدولة!. واعتقد أن العارف كان - برأيي - يحابي البعثيين ويناوئ اليساريين وعلى راسهم الشيوعيين على الرغم من انه كان يصر بانه محايد ومهني!.

بعد اقل من شهر كنت في طريقي الى جامعة انديانا. حاولت جاهداً قبل ذلك ان لا أكون تحت الأضواء. أستمرت علاقاتي بمكتب قاسم بصورة متقطعة فقد قررت ان لا أحاول قطع علاقاتي بأولي الآمر ولكن شعرت بولائي فضلاً عن احترامي الخاص لسليم الفخري وانسحبت نهائياً من الإذاعة وانصرفت الى عملي الرسمي مع التركيز على التحضير لمغادرة البلد وتنظيم حياتي كما كنت قد خططت لها من قبل الثورة التي حاولت تغيير اتجاهي قليلاً إلا أن إصراري ويمكن ان اسميه "هوسي العلمي" ساعدني على العودة الى الدراسة وانهاء الإجراءات الرسمية لمغادرة البلد. اجتمعت مع المدير محمد توفيق حسين في صباح يوم السبت في السابع من تشرين الثاني وابلغته بقراري رسمياً وقدمت استقالتي من العمل لأبدأ بالإجراءات الروتينية بعد شهرين. طلبت مقابلة الوزير بحضور المدير العام لتوديعه "بروتوكلياً"، على ان نلتقي يوم الخميس 12/ 11/ 1959 صباحا لهذا الغرض.

شاءت الأقدار ان اكون في ذلك المساء في معرض بغداد للهدايا الذي يقع في نهاية شارع الرشيد لشراء بعض الهدايا للاصدقاء في امريكا بعد ان اشتريت العديد من الاشرطة من محلات جقماقجي مقابل المعرض. وسمعت أصوات غريبة في الخارج

ممزوجة بأصوات منبهات السيارات. خرج أحد الباعـة في المعرض ليعلن بأن الزعيم قاسم قـد جرح جرحـاً بليغاً وان سـائقه قد قتل بينـما مرافقه قد أصيب بجروح وان السيارة العسكرية قادها بعض المدنيين بينما التف حولها الكثيرون من المارة وشكلوا حزاماً بشرياً حولها وانطلقت باتجاه الباب الشرقي. لمحت سيارة الزعيم العسكرية التي كانت تقله دوماً وهي سـيارته نفسـها التي كانت مخصصة له يوم كان آمر اللواء التاسع عشر!. كان الزحام على أشـده في ذلك الشارع لاسيما وان الساعة قاربت على السابعة مساءً او بعدها بقليل وان الطقس في بغداد كان رائعاً ذلك اليوم على الرغم من إننا في نهاية خريف العراق. أعرف تلك السـيارة جيداً فكم من مرة كنت مـن ركابها برفقته (الصورة رقم - 26). خرجـت على الفور وتبعت سـيارة الزعيم بسـيارتي وانطلقت مخالفاً تعاليمات المـرور ناهيك عن الالتزام بقواعد السـلامة الشـخصية والعامة حتى أصبحت على مقربة من سـيارة الزعيم الرسـمية ولم أسـتطع تتبعها بدقة ورأيتها تدلف نحو مستشـفى السـلام الأهلي. أغلق حـراس المستشـفى مدخل المستشـفى. أعلمت الحراس بـأني ضابط في اسـتعلامات الزعيم وكنت مـا أزال احتفظ بتلـك الهوية التي زودني بهـا مكتـب الزعيم عنـد التحاقي بمكتبه. كنـت اول من دخل غرفـة الطوارئ وكان الطبيب يعالج الزعيم وأمرني الزعيم الذي كان في غاية رباطة الجأش ان اتكلف بحراسـته وسـلامته، وقد راعني ذلك المشـهد وبدأت بصورة لا إرادية بالبكاء عندما رأيت الزعيم مستلقياً على منضدة العمليات وكأنه مسجى وعيناه مغلقتان. وما هي الا لحظات حتى فتح الزعيـم عينيه وقال: عفاك يا طارق أني بحاجة اليك الان فكن أهلاً للمسـؤولية وكان يحـث الاطبـاء بالتركيز في العمـل. بعد دقائق وصـل العقيد وصفي طاهر كبير المرافقين وطمأنه الزعيم بأن (طارق) قام بواجب الحراسـة وتأمين سلامته. لم أكن احمل وقتها ولا حتى سـكينة معي إلا أني سـحبت غدارة المرافق الجريح الرئيس قاسـم الجنـابي واتخذت وضع المتأهب. لقـد أصيب الزعيم في يده وكتفـه، اما الرئيس قاسـم فالظاهـر ان اصاباتـه في الـرأس كانت بليغة وقـد اتضح بأنها لم تكـن قاتلة على الرغـم مـن كثرة النزف وفقدانه الوعي. نقل الزعيـم الى غرفـة النقاهة في الطابق الثاني. كان اول شخص مدني دخل عليه هو الزعيم الكردي ملا مصطفى البرزاني الذي قبله من فمه وكان يعبر بأخلاص عن عواطفه نحو الزعيم وانا اشهد بأنه كان يحبه ويحترمه.

أما الشخص الثاني المدني الذي دخل غرفة نقاهة الزعيم فهو شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري الذي كان مضطرباً عاطفياً (الصورة رقم -27).. ثم توالى الوزراء وكبار قادة الجيش على زيارته (الصورة رقم -28). بقيت اتردد على المستشفى حتى عودته الى مقره. كان الوضع يزداد تعقيداً بعد عصيان الشواف وحاول جاهداً ان يتبرأ من اليسار ويغالي في تأكيد أنه "فوق الميول والاتجاهات" فلم يثق به القوميون بينما صبت دوائر الدولة كلها وعلى رأسها الامنية والمدنية والعسكرية جام غضبها على مساندي الزعيم بكل فئاتهم وفي مفاصل الدولة جميعها. بدأ التنكيل باليساريين وعلى رأسهم الحزب الشيوعي وحاول الزعيم الاعتماد على بعض الانتهازيين الذين بدأوا بمغازلة القوى الرجعية التي لم تؤمن به بل عدته عدوها. فالرجل ولطيبته ووطنيته ونظافة يده وقلبه استعان بالعديد من الشخصيات في مكتبه ومن الرتب العسكرية الوسطى مثل جاسم العزاوي ونعمان ماهر الكنعاني وخليل إبراهيم حسين الزوبعي الذين تسلموا لاحقاً مناصب وزارية في حكومات العارفين!، بل أن إسماعيل العارف عُين سفيراً للعراق في براغ بعد انقلاب البعث عام 1968. فقد استعان العارف في اثناء توليه مسؤلياته الوزارية بالكثير من البعثيين لاسيما الدارسين في الخارج الذين على صلات مباشرة وغير مباشرة مع المخابرات الامريكية كما ثبت ذلك بوثائق وزارة الخارجية الامريكية ووثائق مخابرات الولايات المتحدة التي اطلقت بعد مرور خمسين عاما على انقلاب 1963 في العراق وكما سأوجزه في ختام هذا الفصل!.



الصورة رقم (26): السيارة العسكرية التي كانت مخصصة للزعيم عندما كان امراً للواء والسياره المدنية التي استقلها الزعيم عند محاولة أغتياله



الصورة رقم (27): الشاعر محمد مهدي الجواهري عند زيارته للزعيم في مستشفى السلام



الصورة رقم (28): الزعيم مع الكادر الطبي في مستشفى السلام ويظهر في الصورة وزير الصحة محمد الشواف

كان شهر كانون الأول عام 1959 شهراً مزدحماً بالنسبة لي. حاولت ان اترك عملي في الأسبوع الأول منه ولكني استجبت لرغبة مديري محمد توفيق حسين بتأجيل انفكاكي من الدائرة الى نهاية الشهر. ذهبت يوم الاثنين في الثاني والعشرين من الشهر نفسه وطلبت مقابلة استاذي وصديقي الوزير فيصل السامر. قابلته في اليوم التالي مودعا هذا العالم الكبير البسيط واخبرته باني سأغادر الى بيروت في اليوم التالي لأقضي عطلة رأس السنة ثم أغادر بعدها الى فيينا التي كنت أحبها واقضي فيها عطلة عيد الميلاد ومنها الى بريطانيا. غادرت لندن الى ميناء (Southampton) على اخر رحلة

للباخرة (Queen Elizabeth) قبل ان تنتهي حياتها الى الابد (الصورة رقم - 29).

غادرت الى نيويورك في 17 كانون الثاني ووطأت قدماي ارضها بعد خمسة أيام. كان البحر هائجاً وكانت الباخرة تتأرجح أحياناً. أصبت بدوار البحر ولم اغادر بسببه "الكابينة". قضيت معظم وقتي نائماً ولولا تفقد النادل والمسؤول عن ركاب الدرجة الثانية لكانت ايامي خلال الرحلة صعبة للغاية. وصلت نيويورك في نحو الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الثاني والعشرين من كانون الثاني. كان في استقبالي احد العراقيين الذين يدرسون في جامعة نيويورك.



الصورة رقم (29): الباخرة كوين اليز ابيث في رحلتها الاخيرة ويظهر فيها المؤلف عند رحلته من بريطانيا الى نيويورك منتصف كانون الثاني عام 1960

كان زميلاً لصديقي طالب الدكتوراه في جامعة نيويورك قسم الكيمياء واسمه طالب الشريفي الذي لم يستطع استقبالي لارتباطه بموعد يصعب تغييره مع استاذه المشرف. تعرفت على الكثير من طلبة الدراسات العليا من العراقيين الذي افزعوني بقصص الصعوبات التي يواجهونها في الدراسة والحياة في أمريكا!. لم تكن أحاديثهم مشجعه لقادم جديد. من الطيبين الذين تعرفت عليهم عبد الحسين رؤوف. كان يدرس العلوم السياسية في جامعة نيويورك. توثقت علاقاتي به وساهم بكتابة فصل في اول كتاب ألفته بعد حصولي على الدكتوراه وبداية التحاقي بالتدريس الجامعي فيما بعد.

استضافني في شقته في حي (Greenwhich Village) والتي كانت مركز الشباب الرافضين للحياة التقليدية الامريكية التي يطلق عليهم بالوجوديين أو الجيل الضائع في بلادنا وغادرت نيويورك الى مدينة شيكاغو بالطائرة حيث مكثت فيها يوماً واحداً لأغادرها بالباص الى (Bloomiogton Indiana) حيث جامعة انديانا والتحقت في اليوم السابع لبداية الفصل الدراسي الأول. لقد رتبت محل إقامتي في القسم الداخلي. كنت أفضل غرفة مستقلة بدل المشتركة مع تلميذ اخر على الرغم من غلاء بدل الايجار.

كان العراقي الكريم جابر علي عباس في انتظاري في بيته الصغير الواقع خارج المدينة الذي كان في المراحل الأخيرة من كتابة اطروحة الدكتوراه. كان له الفضل الأكبر في تسهيل حصولي على القبول في قسمه كما اسلفت، وعوناً لي في الفصل الأول من العام الدراسي. عاملني كما لو كنت أخاه الأصغر بلطف ونبل. كان من المثقفين المتنسبين او المؤيدين للحزب الوطني الديمقراطي يوم كان محامياً في الكاظمية والتحق بجامعة انديانا قبل أكثر من عشر سنوات... فتح لي هذا الرجل قلبه وبيته وكان طباخاً ومذواقاً واستمر ينقذني بين الحين والأخر من طعام القسم الداخلي الذي لم يكن بالنسبة لي يتعدى اكل المستشفيات على الرغم من جودة الاكل المقدم صحياً إلا إني لم اعتد عليه بسهولة. بدأت بفقدان الوزن تدريجياً. كان جابر طباخاً ماهراً تعلمت على يديه الكثير من الاكلات العراقية. حاولت تقليده ونجحت بشهادته بعد ان تركت القسم الداخلي، ألا إني فشلت فشلا ذريعا في طبخ أكلة "الفسنجون" التي كان يجيدها ويتباهى بها وبجدارة.

أما عن تجربتي الدراسية فقد كانت رائعة فبعد عام ونصف حصلت على شهادة الماجستير في العلوم السياسية، في منتصف حزيران عام 1961 وبدرجات عالية جداً. حصلت على قبول في أربع جامعات لدراسة الدكتوراه بضمنها جامعة انديانا قبل مغادرتي الى الوطن. كنت ما ازال على شغفي العلمي والوجداني بالدراسة في فرع العلاقات الدولية الذي استحدث قريباً ولم يكن له وجود بل كان يدرس كجزء من العلوم السياسية. كانت هناك اربع جامعات في أمريكا وربما في العالم في حينها بدأت بتدريسه كاختصاص مستقل وهي جامعة شيكاغو وجامعة جورج واشنطن في

العاصمة بالاشتراك مع جامعة جورج تاون وكذلك جامعتا هارفرد وبرنستن.

قررت العودة لزيارة الأهل والوطن ودب الحنين في قلبي لإصدقائي وزملائي حتى الى مقاهي بغداد لاسيما اني لم اصرف المال كله الذي امنته لدراستي. لقد عينتني الجامعة معيداً تدريسياً فيها، كما اني حصلت على معونة (مساعد تدريسي) في الجامعة التي قبلت فيها، فضلاً عن ذلك أني قرأت إعلانات مديرية البعثات، تعلن فيها ولاول مرة حاجة جامعة بغداد لبعثات في فرع العلوم السياسية. تبادر الى ذهني، ان هناك فرصة سانحة لي. فمعدلاتي في دروس الماجستير كلها عالية جداً فضلاً عن حصولي على قبول لإكمال دراسة الدكتوراه في افضل الجامعات الامريكية. أعتقدت بانه من المنطق والعدل ان لم اقل الانصاف منحي الأفضلية. عدت الى الوطن بعد الأسبوع الأول من تأريخ تخرجي ووصلت الى بغداد عن طريق نيويورك - لندن من دون توقف!!.

في نيويورك التقيت وزير الخارجية العراقي هاشم جواد وكنت قد التقيته عدة مرات بعد استيزاره لطبيعة وجودي في دائرة استعلامات الزعيم. كان الصحفيون يحيطون به في العشرين من حزيران في مطار لندن الدولي. استنجد بي الموظف الذي كان برفقته واسعفته بترتيب لقاء مع الصحفيين. كان هاشم جواد لبقاً وحذراً فالظاهر ان عبد الكريم قاسم قد أعلن بأن الكويت عراقية! ولكن من دون ان يعطي أي مؤشرات عن الاستراتيجية التي سيتبعها لتحقيق ضمها وقد أعلنها فجأة دون ان يُعلم حتى وزير الخارجية!. كنت أنا في الدرجة السياحية على متن الطائرة العراقية العائدة من لندن الى بغداد بينما كان هو في الدرجة الأولى مع الموظف المرافق له. طلب الوزير من المضيفة ان تستأذن الربان في السماح لي بالجلوس معه بعض الوقت لإتمام بعض الاعمال الوظيفية فجاءت المضيفة طالبة اصطحابي للدرجة الأولى وبردة فعل سريع اخذت حقيبتي اليدوية وملحقاتها واتجهت الى مكان الوزير الذي طلب مني الجلوس بجانبه في المقعد الشاغر. أخبرته باني حصلت على شهادة الماجستير في العلاقات الدولية وكتبت رسالة في موضوع (Collective Security) (الأمن الجماعي) وحدثته عن محتواها. طلب مني أن أتحدث عن ما أعرفه عن تاريخ الكويت

وعلاقات تلك المشيخة بالعراق والدولة العثمانية وبريطانيا. لحسن الحظ كتبت بحثاً في اثناء الدراسات العليا عن علاقة بريطانيا ومصالحها في الهند وكيف ان ذلك كان السبب لاهتمامها ومن ثم سيطرتها على العراق والخليج وكيف ان النفط كان مهماً جداً في تلك العلاقة التي أصبحت استراتيجية. عرجت على كتاب " على طريق الهند " للكاتب العراقي التقدمي عبد الفتاح إبراهيم والمنشور في الثلاثنيات القرن الماضي وكتاب اخر كتبه المؤرخ اللبناني اليساري الذي كان يعد المؤسس الحقيقي للحزب الشيوعي اللبناني عام 1924 بعنوان "النفط مستعبد الشعوب". حدثته عن تخصص استاذي " الدكتور زكي صالح " في مجال العلاقة بين بريطانيا والعراق وكتابته أطروحة قدمها الى قسم العلوم السياسية بجامعة كولومبيا العريقة ونشرها بنصيها الإنكليزي والعربي في مطبعة الرابطة ببغداد عام 1955 وأمكانية الاستفادة منها. قرأت النسخة الإنكليزية التي احتفظ بها وباعتزاز في مكتبتي الشخصية حتى يومنا هذا. قبل ان اصل بغداد اقترح على الوزير ان اشترك بأمتحان موظفي السلك الدبلوماسي وان الاختبار التحريري سيجرى قريباً ولا يعتقد بأن المقابلة الشفهية التي ستعقب الامتحان صعبة الاجتياز لطبيعة مؤهلاتي. أبلغته بعدم رغبتي في ذلك لإصراري على اكمال دراسة الدكتوراه لاسيما بعد حصولي على قبول من العديد من الجامعات مع وعود بالمساعدة المالية وتحملها أجور الدراسة فضلاً عن راتب يكفي لتغطية نفقات المعيشة. كما أن التقليد المتبع مع الطلبة الذين يدرسون على نفقتهم الخاصة في العهد الملكي هو منح الحكومة مساعدة مقدارها (65) دولارا شهرياً لمن اجتاز السنة الأولى من دراسته وبنجاح وكان ذلك هو هدفي واملي. شكرته على عرضه وتشجيعه وطلب مني رقم الهاتف للتواصل لاسيما قبل عودتي في نهاية شهر اب كما كان مقرراً.

وصلنا بغداد وودعت الوزير وشكرت الربان الذي جاء لتوديع الوزير كذلك المضيفة وكنا اول المغادرين وكان معنا في الطائرة نفسها رجل الاعمال العراقي المؤدب والانيق واللطيف المعشر ناجي جواد الساعاتي، الذي تبرع وبابتسامته المعهودة ان ينقلني معه الى البيت فان سائقه كان بانتظاره، أذ أني لم أعلم أهلي بموعد قدومي. رحبت بالفكرة وفي مساء العشرين من حزيران وصلت بغداد وكان الجو حاراً والغبار الأحمر الكثيف يغطي كل شيء. كان مطار بغداد الدولي صغيراً تغير اسمه لاحقاً

ليكون مطاراً عسكرياً وباسم "مطار المثنى". كان وصولي للأهل مفاجأة لم يكونوا يتوقعونها. عدت وكأنني لست من أبناء هذا البلد وكأني غبت عنه عشرات السنين.

لحظت ومنذ الوهلة الاولى أن هناك تغييراً نوعياً في العلاقات بين الناس والوضع السياسي غريب. الأصدقاء يريدون التأكد، ما اذا كنت من المقربين من الحكم او في الأقل لست من المغضوب عليهم؟ بعد استراحة لمدة يومين حاولت الاتصال بزملائي السابقين الذين كانوا بغاية الحذر في الحديث!! حاولت تبيان كيفية التصرف في خضم هذا الوضع الغامض. ففي عام ونصف انقلبت الموازين وضاعت القيم ناهيك عن الارتباك السياسي.

في يوم الخميس صباحاً الموافق الثالث والعشرين من شهر حزيران عام 1961 اتصل بي سكرتير وزير الخارجية طالباً حضوري صباح يوم الجمعة الى مكتب الوزير. حاولت تأجيل الموعد معتذراً بأنشغالي بأمور عائلية، ومع ذلك، ذهبت الى ديوان وزارة الخارجية الواقعة انذاك في باب المعظم، وعند دخولي مكتب الاستعلامات الذي كان يعج بالموظفين في عطلة نهاية الأسبوع! فوجئت بأن مدير مكتب الوزير لم يخبر الاستعلامات بالموعد اذ لم يدرج اسمي في قائمة الضيوف فشكرت موظف الاستعلامات وغادرته مودعاً. حال مغادرتي الوزارة سمعت الموظف وهو يركض لاهثاً طالباً عودتي وعلى الفور الى مكتب الوزير الذي كان بانتظاري طالباً من موظفي مكتبه المغادرة وأمرَ بمقابلتي منفردا!!. خلع الوزير نظارته وابتدرني قائلاً: انت عملت مع الزعيم وعرفت اطباعه وطريقة عمله ونحن الان في موقف غريب!. أذ لا يوجد بين الوزارة ومكتب رئيس الوزراء أي تنسيق!! واعترف لي بأنه سمع تصريح رئيس الوزراء عن أن "الكويت" عراقية من الصحف والاذاعات وهو يترأس وفد بلاده في اجتماعات الامم المتحدة في نيويورك وكان يتوقع بعد عودته المستعجلة والمباشرة في بغداد أن هناك نوعاً من الحديث بين الوزارة المختصة ورئيس الوزراء. لكن هذا لم يحدث!! وتوقع رئيس الوزراء أن اتعامل مع الموضوع بالطرق الدبلوماسية ولست ادري ما دار بخلده؟ واردف "القيامة قائمة" وسفراء الدول الكبرى كلهم يريدون مني أجوبة وتفسير لتصريحات الزعيم وتطبيل الصحف والاذاعة العراقية

لذلك والدول العربية تتساءل أيضاً مالـذي يجري!!، وأنا لا استطيع حتى الانفراد بالزعيم لأوضح له صعوبة الموقف! وفي مجلس الوزراء لا أحد يقدر ما حصل؟. قلت للوزير: أنا ما زلت بعقلية طالب دراسات عليا وما زلت أحاول التأقلم مع جو بغداد. لم استطع حتى النوم مساءً! فانا أنام معظم النهار واستيقظ طول الليل. أما عن عملي مع الزعيم فقد كنت أصغر موظف في دائرة استعلامات مكتبه وكان ذلك قبل نحو عامين وأنا الان خارج نطاق دائرة المحيطين به وأعد العدة للعودة الى امريكا في غضون شهرين لأكمال دراستي. قاطعني وقال: طارق انا بحاجة الى أي عون يستطيع أي انسان أن يقدمه لأعالج هذه المعضلة!! وانت من الناس الذين لديهم معرفة جيدة بقيادة هذ البلد وتعرف كيف يدار العالم. بدا لي الرجل مضطرباً وكئيباً. فشعرت بنوع من الحرج. هذا السياسي والدبلوماسي المحنك الذي جاوز الخمسين من عمره وعمل في منظمات دولية لسنوات وهو الان على رأس دبلوماسية البلد ومن اكثر الوزراء ثقافة وخبرة يطلب مساعدتي وليس عندي ما اقدمه. وفجأة خطرت في ذهني فكرة عدها الوزير ذكية، أقترحت عليه ان يطلب مقابلة الزعيم كريم لوحده ليناقش بعض الشؤون الأنية وعلى راسها القضية الكويتية وأن يطلب من الزعيم تأليف لجنة يكون احد أعضائها من كبار العسكريين الذين يعتقد الزعيم بفطنتهم واعتقد انه سيرشح العقيد طه الشيخ احمد لهذه المهمة فضلاً عن مدير الاستخبارات العسكرية وإضافة وزير اخر والبقية من المدراء العامين في وزارة الخارجية على ان يرأس تلك اللجنة الزعيم أو الوزير بحكم وظيفته. أما ما يمكن عمله في الوزارة فأني أعتقد بضرورة تأسيس مديرية عامة للبحوث مهمتها تقديم تقارير وأقتراحات بشأن القضايا الدولية والدبلوماسية الآنية مثل قضية الكويت اليوم وغيرها مستقبلا.

اقترحت على الوزير الاستعانة بالدكتور محمد علي الداوود أستاذ التاريخ الحديث في كلية الأدب بجامعة بغداد كونه متخصصاً في تاريخ الخليج وهو خريج جامعة جون هوبكنز التي تُعد من افضل الجامعات الامريكية ولهذا فان اعداده العلمي والمهني يؤهله للمساعدة ويمكن الافادة منه في الوضع الراهن. وأعلم بأن الداوود واخرين عملوا في الوزارة بعد ذلك اللقاء واصدروا عدداً من التقارير نظم بعضها في كتيب أصدرته وزارة الخارجية بعنوان " حقيقة الكويت " وقد اثبتت الوقائع التأريخية

لاحقاً أثر هذه المشكلة وتبعاتها في عزلة العراق عن محيطه العربي وفي رأيي كانت البدايات الاولى لسقوط نظام قاسم.

كنت في حالة نفسية غير مستقرة بعد وصولي الى بغداد. تأكدت بان الأمور ستسير من سيء الى اسوأ. لم أحاول جدياً ان اتصل حتى بأصدقائي بل ركزت جهدي كله على تدبير اموري وترك البلد وربما أيضاً تقليص مدة بقائي والعودة الى الدراسة. كانت المؤشرات كلها تنذر بالخطر والشر. وبناءا على إصرار الوزير هاشم في المشاركة بأختبار وزارة الخارجية الذي كان مقرراً له في الأسبوع الأول من شهر تموز، شاركت في الاختبار وكنت من اعلى رتب الناجحين الذين لم يزد عددهم على العشرة فقط على الرغم من ان عدد المتقدمين للاختبار تجاوز المائة والخمسين. وبعد المقابلة الشفهية تم اختيار ستة فقط!. صدر أمر تعييني سكرتيراً ثالثاً في شعبة الأمم المتحدة على ان انتدب للعمل في سكرتارية لجنة "الكويت". بعد اقل من شهر قررت العودة الى الدراسة فان نقلي الى احدى الدول الأوروبية او الأمم المتحدة كما وعدني الوزير يقتضي بقائي في مقر الوزارة لعام واحد في الاقل وقد قررت ان اعود وإن لا أتورط بأعمال إدارية قد تعيق أكمال الدراسة. كانت نصيحة أستاذي الكبيرين صالح زكي وعلى الوردي بأن لا أجمع بين الدراسة والوظيفة. وقد اخترت الدراسة واعتقد أن ذلك كان اذكى خطوة اتخذتها في حياتي وانا على مفترق طريق لا رجعة فيه. وحصلت من الوزير الموافقة على استقالتي.

عندما اعلنت قوائم البعثات كانت تشتمل على بعثة في العلوم السياسية عددتها ملائمة لمؤهلاتي العلمية. فدرجاتي عالية جداً ولدي قبول في اربع جامعات أمريكية رصينة والبعثة كانت في مجال العلاقات الدولية للحصول على شهادة الدكتوراه، فهل هناك من هو مؤهل اكثر مني لهذه البعثة؟. ذهبت الى رئيس الملاحظين في دائرة البعثات وكان الرجل مخلصاً وكفوءاً في عمله، شجعني وقال بأن علي التقديم لهذه البعثة. اجريت المقابلة التي عددتها روتينية قبل سفري. اخذني الرجل بنفسه الى ملاحظ بعثات شعبة أمريكا وكان الرجل أيضاً طيباً وكفوءاً وكنت قد تعاملت معه قبل مغادرتي الأولى. كان في غاية الود والطيبة وقال لي على ما أتذكر ان هناك متقدم

واحد فقط وهو في السنة الثانية - او ما يعادلها من الشهادة الأولية في جامعة بريطانية وانت في هذه الدرجة المتقدمة فكيف ستكون المقابلة بل وكيف سيتم التفاضل!. قال - أيضاً - نحن نشجع الدارسين في الخارج على التقديم للبعثات وفي الغالب يستثنونهم من المقابلة. واردف قائلاً: أن المقابلة روتينة وقد مضى على اعتمادها اكثر من عشرين سنة للتأكد من سلامة شخصية المبتعث وإمكانية تعايشه في بلد الدراسة. أشار قائلاً: من يتقدم الى البعثة وهو مازال خارج البلد يعفى من هذه الاجراءات الروتينية لانه في جامعة اجنبية ومتكيف في بلد الدراسة.

غادرت دائرة البعثات وانا مطمئن من اكمالي متطلبات التقديم للبعثة. وصار الان لدي ملفان كاملان وليس ملفا واحدا: احدهما خاص بطلب شمولي بالمساعدة المالية التي تمنح اوتوماتيكياً لمن يدرس على نفقته الخاصة ويجتاز عاماً كاملاً بنجاح وارفقت الوثائق اللازمة جميعها كما احضرت كفيلاً لهذا الغرض. كان الوالد مستعداً للقيام بهذه المهمة وان راتبه وممتلكاته تؤهله لذلك. ولكن عندما أعلنت نتائج البعثات لم يكن اسمي بين المقبولين!.

عدت الى شيكاغو وانا في غاية الإحباط. فقد تغيرت نواحي الحياة السياسية والاجتماعية كلها في وطني وغدت الفوضى هي السمة الظاهرة للحياة فيه. وإنتابني شعور بالخوف من المستقبل وخيبة الأمل. توقعت حدوث الشر وشاطرني الكثير من زملائي المثقفين ذلك. فقد شددت القوى الرجعية هجمتها على النظام، واستطاعت في النهاية ان تدفع الحكومة باتجاه مغازلة رجال الدين المحسوبين على إيران التي تمثل مركز الثقل الغربي في المنطقة. هذا فضلاً عن اطلاق يد البوليس ودوائر الامن لملاحقة القوى اليسارية وعلى رأسها الحزب الشيوعي. كما تكونت - ايضاً - بعض البؤر الشوفينية في قيادات القوات المسلحة التي سعت الى اضرام شرارة الصدام مع مصطفى البرزاني - ويؤيد هذا ما سمعته من بعض القيادات الكردية في حينه - وكما اخبرني إسماعيل العارف حينما تحدثنا في هذا الموضوع في واشنطن في 20/ 4/ 1965، أن البرزاني طلب منه التوسط لمعرفة ما حصل وسبب هذا التغير المفاجئ ضد الاكراد وضده شخصياً. فأكد لي انه حاول فتح الموضوع مع الزعيم ولكنه تجاهله. وسألته

عن اسباب ذلك حسب ظنه فقال: انه يعتقد ان بعض قادة الفرق وبعض تقارير المخابرات صورت وضخمت معلومات عن التحضير لعصيان كردي. وعند سؤالي الزعيم محي الدين عبد الحميد في واشطن في 27/ 4/ 1965 وهو من قدماء الضباط الاحرار، وكان صديقاً شخصياً لقاسم وعوناً وفياً في عهده، أيد ما ذهب اليه العارف وعده واقعيا وزاد قائلا: اعتقد بانه يعرف أيضاً ان البرزاني حينما احس ببوادر تغير سلوك قاسم تجاه الاكراد ونحوه شخصياً بدأ التحضير لعودته الى الشمال. وزادت تقارير الأمن والمخابرات من توجس وريبة قاسم من ذلك. كان ذلك في صيف 1961 حين كنت في بغداد.

لقد اثبتت تقارير المخابرات الامريكية ووزارة خارجيتها التي نشرت لاحقا دورها في العمل على اضعاف النظام ونجاحها في إسقاطه.

عدت وانا أتوقع انقلاباً قريبا. فقد حصر عبد الكريم السلطات جميعها بيده واستوزر اشخاصا محدودي القدرات، جلهم من العسكريين المحسوبين على الجهات المعادية للثورة. وبالفعل بدأت بشن حملات تطهير في صفوف الجيش شملت الضباط الذين صنفوا يساريين، فضلاً عن التصفيات في وزارات الدولة الاخرى وعلى وجه الخصوص وزارة المعارف.

سيق الكثير من الأبرياء الى المحاكم العرفية. وبدأت المضايقات على الفئات الثقافية والنقابات المهنية التي قامت دوائر المخابرات في التدخل بعملهم وأنتهت بسيطرة البعثيين على قيادات تلك النقابات لاسيما نقابة المهندسين ونقابة المحامين ونقابة المعلمين والعمال.

كان الاتحاد الوطني لطلبة العراق على رأس منظمات البعث التي اشعلت فتيل الفتنة والفوضى في البلاد، وبدأ الخطوات التمهيدية الاولى لاسقاط النظام. قامت المخابرات المركزية الامريكية (CIA) بإدارة الفوضى بشكل مباشر وبالتنسيق مع القوى المعادية، تحت لافتة محاربة الشيوعية وألحاد نظام قاسم وشعارات الوحدة العربية وحماية التراث العربي والديني للبلد. وقد اثبتتت وثائق الدراسات

العلمية التي نشرت لاحقا علاقة المخابرات الامريكية ودورها في التحضير لأنقلاب 8 شباط 1963. ومن باكورة تلك الدراسات رسالة ماجستير مقدمة الى معهد اكاديمي امريكي بعنوان:

Zeman, William J. (2006), U.S. Covert intervention in Iraq 1958-1963: The origins of U.S Supported Regime Change in Modern Iraq ، MA thesis, Pomona, CA: California State Polytechnic University, Pomona.

وهي دراسة اكاديمية على الرغم من محدوديتها العلمية الا ان أهميتها تكمن في كونها اول دراسة اكاديمية وثقت التدخل الأمريكي المباشر في إنقلاب 8 شباط عام 1963 الذي خططت له ومهدت لحدوثه وادارته المخابرات الامريكية. وقد اعتمدت تلك الدراسة على الوثائق الرسمية لدوائر المخابرات الامريكية وأرشيف وزارة الخارجية بعد اطلاقها. أشار الكاتب بان التحضير للانقلاب بدأ بعد تمرد عبد الوهاب الشواف في مارس 1959، عندما وصف مدير وكالة المخابرات الامريكية (CIA) في شهادته امام مجلس الشيوخ الأمريكي الوضع في العراق "بأنه مقلق وبأنه اخطر بقعة في العالم". وذكر الكاتب بان العمل الدؤوب ضد قاسم بدأ في تلك الأيام، وهو ما اكده "الن دالاس" مدير الوكالة حينئذ في شهادته تلك أمام مجلس الشيوخ الأمريكي قائلا: بان الشيوعيين على وشك السيطرة التامة على مقاليد الحكم في العراق، مما يعني ان الوكالة بدأت بالتحضير لعمل ما لمعالجة الموقف الذي تراه خطراً على المصالح الأمريكية لا في العراق وحسب وانما في المنطقة بكاملها.

أعتقد شخصياً بأن عبد الكريم قاسم لم يقدر حجم دور المخابرات الاجنبية في بلده على الرغم من انه كان ضابط ركن ذكيا. ولم يفهم تشابك مصالح تلك المخابرات مع مصالح بعض الفئات في وطنه. وللتاريخ فأن أول من أشار الى دور المخابرات الامريكية في انقلاب 8 شباط عام 1963 في العراق هو ملك الأردن المرحوم حسين بن طلال في حديث مطول مع الصحفي المعروف في جريدة (الاهرام) المصرية محمد حسنين هيكل، حين أكد بأن الامريكان ومخابراتهم كانت تدير عجلة القتل والتخريب في العراق أثناء الانقلاب وبعده. ونشر هيكل هذا اللقاء في الجريدة نفسها بتاريخ

27 أيلول 1963. وقد سألت علي صالح السعدي الذي كان أحد قادة الأنقلاب في 20/ 1/ 1974 في بغداد عن صحة ذلك فأجاب بالحرف الواحد: "هذا صحيح وان حديث الملك حسين كان مطابقاً لما عرفته وخبرته"، فنحن جئنا في 8 شباط بقطار امريكي، وقد صرحت بذلك للصحف الأمريكية بعد ان اتضحت لنا الحقيقة ولكن، بعد فوات الأوان. كنت انا (اي علي صالح) اول الضحايا" وعاد وأكد قائلا: كنا الأدوات التي ضحت بالبلد!.

كما نشرت وكالة الانباء الدولية المتحدة (United Press International) تقريراً خاصاً بتاريخ العاشر من نيسان عام 2003 بعنوان " صدام كان مفتاحاً لمؤامرات المخابرات" (Exclusive: Saddam key in early CIA plot) بقلم محررها المختص بشؤون المخابرات Richard Sale)) الذي اقتبس من حديثه مع دبلوماسي يعمل في دائرة الاستخبارات قوله: أن صدام حسين كان يُعد من ألد أعداء الشيوعية وقد استخدمته المخابرات الامريكية كأداة لها لأكثر من أربعين عاماً أي منذ عام 1959. وكشف دبلوماسي امريكي رفيع المستوى ان صدام كان ألة بيد المخابرات الامريكية " للتآمر" على قاسم!. وبعد الانقلاب جهزت المخابرات الامريكية - كما يقول التقرير - "الحرس القومي" بالأسلحة وزودتهم بقوائم تضم أسماء الشيوعيين الذين اعتقلوا واستجوبوا ثم قتلوا على الفور من دون تمحيص او تحرٍ عن الحقيقة. حصل ذلك بعلم المخابرات الامريكية الكامل وتخطيطها. وتكمن اهمية المقال في كونه موثقاً بشهادات ما يقرب من اثنى عشر من رجال المخابرات الأمريكية.

أضف الى هذا أن هناك عددا من الدراسات الاكاديمية الجادة التي اعتمدت أيضا الوثائق الرسمية لوزارة الخارجية الامريكية ودوائر المخابرات. وأبرزها تلك التي قام بها أستاذ التاريخ الحديث " Weldon C. Matthews " في أحدى الجامعات الامريكية والتي تُعتبر اكثر علمية وربما توثيقا أيضا من غيرها. ونشرت في المجلات الاكاديمية المعروفة برصانتها العلمية من حيث استعمالها طرائق البحث العلمي الحديثة في التوثيق والعرض.

لقد أكدت تلك الدراسات ما ورد سابقا وأضافت بان عددا من ضباط الشرطة

العراقية الذيـــن تدربوا فـــي الولايات المتحدة الامريكية كانوا عملاء للمخابرات، ذكرت أسماءهم وتسلموا مراكـز حكومية قياديـة بعـد الانقلاب. كما اكـدت هذه الدراسات أن المخابـرات الامريكية كانت عـلى اتصال بكل من عبد السلام عارف واحمد حسن البكر وكانا متعاونين معها[1].

وفي دراسة اخرى للكاتب نفسه نشرها بعد اربع سنوات أكد فيهـا أن حكومة الرئيس كنـدي تعمدت مباركة تلك الاعمـــال "الوحشية" التي اقترفتها حكومة الانقلاب خلال الايام العشرة الاولى من سيطرة البعث وحرسه القومي (8 شباط الى 18 شباط). !. والاهم من ذلك ان المنظمات العمالية الرسمية في الولايات المتحدة دافعت عن نظام البعث وساعدت في بناء حركة عمالية موالية له لمناوأة الحركة العمالية العراقية التي كان للحزب الشيوعي العراقي نفوذاً فيهـا. وكان الاتحاد الدولي لعمال النفط الذي تموله الحكومة الامريكية ومخابراتها الأداة الرئيسة في هذا المضمار. كذلك ساهم وبصورة مباشرة الاتحاد الامريكي الفدرالي لعمال المؤسسات الصناعية:

American Federation of Labor Congress of Industrial Organizations (AFLCIO)

في تبييض صورة حزب البعث الفاشية والدفاع عنه في المحافل الدولية[2].

فارقت بغداد في صيف 1961 مودعا اقرب الناس الي من الاصدقاء واقربهم الى قلبي الذين حضروا لتوديعي في المطار وكانوا سبعة فقط صديق طفولتي عبد مسلم الحاج مهدي اسد، المغني الكردي شه مال صائب، ناظم الغزالي ذو الصوت الذهبي وصديق الشباب والكهولـــة الشاعـــر المحبوب بلند الحيدري وظله الخجول

(1) Matthews, Weldon C. (2011), The Kennedy Administration, and Iraq's First Ba'thist Regime, Counterinsurgency, Ba'thist, International Journal Middle East Studies, 43, pp 635-653.

(2) Matthews, Weldon C. (2015) ,The Kennedy Administration, the international Federation of Petrolum workers,and Iraqi Labor under the Ba'thist, Journal of Cold War Studies,17:1(Winter), pp97-128.

الباب الخامس

الهجرة إلى عالمي الجديد

الشاعر حسين مردان وخالي حسين شيرواني ووالدي فقط، لأني لم اخبر احداً بل كنت اريد ان لا يعرف احد بذهابي ولا حتى بعودتي لبغداد.

حال مغادرتي الطائرة العراقية بعد وصولي الى لندن شعرت بحنين جامح لبلدي الحبيب وأهله الطيبين ذوي القيم الآصيلة والتراث الانساني العريق وسادني شعور غريب ممزوجا بالحزن والأسى لما يخفيه المستقبل لنا جميع... وما اتعس ان يشعر الانسان بهذا اليأس وهو في مقتبل عمره.

الخلاصة الرئيسة من الدراسات الاكاديمية السابقة اثبتت أن المخابرات الغربية بصورة عامة والأمريكية بصورة خاصة كان لها دور قيادي في العمل ضد الحكم الوطني لعبد الكريم قاسم. فقد كانت تعتبره موجها ضد مصالحها لاسيما النفطية منها. فإصلاحات قاسم الداخلية- حسب رؤية تلك الدول- تصب في مصلحة "الشيوعية" لأنها قوضت الكثير من دعائم الاقطاع والرجعية وسلطات رجال الدين الذين كانت ترتبط مصالحهم عضويا بمصالح تلك الحكومات او ممثليهم في المنطقة لأكثر من نصف قرن. ذلك كله كان يحدث في ظل الحرب الباردة. اما النظام الإقليمي فقد كان واضح المعالم: يتأرجح بين قطبين: ايران التي تقود المعسكر الغربي ومصر التي تقود ما يمكن ان يسمى "القطب" العربي الذي "عمل" ولو بطريقة غير مباشرة مساندا الجهد الغربي لقلب نظام الحكم في العراق، حيث تعاونت المخابرات الغربية والأمريكية مع المخابرات المصرية في ذلك.

ومما ساعد على هذا أيضا عوامل عدة منها شخصية عبد الكريم قاسم العسكرية وأسلوب حكمه الذي اتسم بالارتجال، وعدم فهمه وضع المنطقة الدولي في ظل الحرب الباردة، "وتورطه" في "معاداة عبد الناصر "الزعيم الروحي للقوى العربية في المنطقة، ومهزلة ضم الكويت، مما أدى الى عزل العراق عن محيطه العربي، وسهولة الأجهاز عليه.

وصلت شيكاغو عن طريق لندن بعد وصولي اليها من بغداد مباشرة والتحقت بجامعة شيكاغو العتيدة وبذلك عاد اليَّ الاطمئنان تدريجياً ورجعت الي ثقتي

بالمستقبل فقد كانت الحياة الجامعية رائعة بعد التجربة المضطربة ببغداد، وقد منحتني الجامعة زمالة "مساعد تدريسي" التي يتمتع بها معظم طلبة الدكتوراه في الغالب.

سعدت جداً بعملي كمساعد تدريسي لموضوع "السياسة الامريكية" الذي هو الزامي لطلبة الجامعة كلهم. ولفت انتباهي وجود احدى التلميذات التي كانت تطرح أسئلة نقدية ذكية فضلاً عن جديتها في مناقشة الأمور السياسية باتجاه حواري متميز كما كانت محتشمة الملبس وتبدو عليها المحافظة في مقاييس ذلك الزمن. جميلة المحيا ولا تضع المساحيق على وجهها كما كانت العادة الجارية في تلك الأيام. وتبدو صغيرة السن بالنسبة لزميلاتها. وفي احدى المحاضرات التي قدمها الأستاذ الرئيس عن بداية جذور الديمقراطية والحرية في أمريكا وذكر ان بدايات الديمقراطية كانت في بوسطن وبين كيف ان المستوطنين الأوائل جاءوا هنا هرباً من مصاعب العيش في الجزر البريطانية وبقية أوروبا وبحثا عن مستقبل أفضل. رفعت الطالبة الصغيرة يدها موجهة سؤالها للأستاذ مباشرة قائلة؛ وماذا عن السكان الأصليين للبلد وأين هم في معادلة الديمقراطية هذه؟. حاول الأستاذ بمهارة التهرب من الإجابة والتأكيد بأن الديمقراطية بدأت في مدن المستوطنات، ولكن التلميذة أصرت على المطالبة بالمزيد من الإيضاحات والشواهد. فوجه الاستاذ التلميذة نحوي بصفتي مساعده التدريسي. تعددت لقاءاتنا لاسيما انها كانت مثلي تسكن القسم الداخلي على الرغم من كونها من سكان المدينة نفسها. فضل أهلها نظراً لوقوع الجامعة في الجانب المعاكس لمسكنها، ان تسكن في القسم الداخلي وتقضي كل وقتها في الدراسة والتحضير لها من دون ضياع للوقت بالانتقال ولمدة ساعتين بالقطار أو بالمواصلات العامة والعودة ساعتين أخرى. في الثامن والعشرين من تموز 1963 وحال بلوغها سن الرشد (الثامنة عشره) في القانون الأمريكي، عقد قراننا في المركز الإسلامي الأمريكي في جنوب شيكاغو وبالطبع لم نعلم أهلها في الموضوع الا بعد أسابيع... ولا داعي للخوض في هذه المذكرات عن ردود الفعل لهذا العمل!.. فهي من أصول كاثوليكية محافظة ومن عائلة عسكرية تقدس بلدها. كانت الابنة الوحيدة لأبويها. والدتها من أصول إيطالية وابوها ينحدر من أصول المانية ولها اخ واحد. كان زواجنا صدمة للعائلة. وعلى الرغم من انهم حاولوا القبول بالامر الواقع إلا أننا قررنا مغادرة شيكاغو الى

واشنطن العاصمة والالتحاق ببرنامج العلاقات الدولية في جامعة جورج واشنطن ونبتعد عن جو جاكلين العائلي ونبني مستقبلنا معاً.

في مقابلتي لمسؤول الدراسات العليا في الجامعة الذي توقع أن أبدأ بمتطلبات دراسة الدكتوراه منذ بدايتها بينما كنت اريد نقل الدروس التي اجتزتها في جامعة شيكاغو الى جامعة جورج واشنطن. اعترضت وأكدت له ان يقبلوا نقل الكورسات جميعها وقبول الامتحان الذي اجتزته في جامعة شيكاغو (Prelim Exam) وإلا فاني سأنتقل الى جامعة أخرى منافسة لها ذات الثقل الاكاديمي وهي جامعة جورج تاون والتي هي شريكتهم في ذلك البرنامج. وبالفعل غادرت الى مكتب مسؤول الدراسات العليا في جامعة جورج تاون التي تبعد مسافة عشرة دقائق في السيارة. هناك قابلت مسؤول الدراسات العليا في قسم العلاقات الدولية الذي كانت لديه وثائقي كلها التي قدمتها في موعدها المحدد للانتساب قبل شهور. كان الرجل طيباً واخبرته بأني لم اختر الأستاذ المشرف لحد الان، فاقترح ان اقابل الدكتور نبيه أمين فارس أستاذ التاريخ الحديث في الجامعة الأمريكية في بيروت الذي سيقضي عام تفرغه من جامعته معهم والتحدث معه وربما يتم الاتفاق ولو مبدئياً على موضوع الاطروحة. اتصلت به في مكتبه وكان لقاؤنا رائعاً فهو معروف بالتزامه العربي وعقليته المنفتحة. بعد عودتي لمقابلة المسؤول بدأت إجراءات التسجيل على ان اعود لإكمالها وأدفع الأجور الدراسية لاحقاً. كما وعدني المسؤول بتقديم المساعدة المالية وتعييني كمساعد تدريسي ومعلوم أن هذه الوظائف قد منحت منذ شهور كعادة الجامعات الامريكية ولكنه أكد أنه سيقدم طلباً جديداً لزيادة الملاك التدريسي إلا أنه لم يلتزم بما وعد. لقد اكد لي بأن الامتحان الشامل الذي اجتزته في جامعة شيكاغو قد يقبل في هذه الجامعة. لم يبق على موعد التسجيل الا أسبوع واحد واستطيع أن أسجل الدروس التي اخترتها كلها في جامعة جورج واشنطن جميعها من دون استثناء ومن دون اعتراض كما كنت اروم حينما كنت على ملاك جامعة جورج واشنطن.

قبل بداية الدراسة ونهاية التسجيل الاولي اتصل بي مسؤول الدراسات العليا في قسم العلاقات الدولية بجامعة جورج واشنطن ليخبرني بأن لجنة القبول وافقت

على شروطي كاملة. كانت الجامعات الخمس الرئيسة في واشنطن تشترك مع بعضها للنهوض بهذا التخصص الجديد في العلاقات الدولية وتشجع كل منها تلاميذها للدراسة في الجامعات الأخرى طبقا لمعايير متفق عليها وبناء على استشارة وتأييد الأستاذ المشرف لكل تلميذ. ولما كان إتمام الدراسات العليا يعتمد بصورة رئيسة على جهود التلميذ الذاتية فاني كنت قد عزمت تركيز جهدي كله على انهاء متطلبات الدكتوراه واكمال الامتحان الشامل.

كانت واشنطن في ذلك الحين تعيش عرساً سياسياً لا ينسى في اعقاب اندحار المكارثية- وهي الموجة اليمينية الفاشية التي سادت حقبة الخمسينات والتي سميت بهذا الاسم نسبة الى من قاد موجة مكافحة الشيوعية- وبداية عملية تغيير باتجاه الليبرالية. ومجيء جون كندي الرئيس الشاب الذي أثار تفاؤلا وحماسا للتغيير في الأوساط الشعبية، لا سيما لدى حركات "تحرير السود".

في هذا الظرف حدث انقلاب شباط 1963، وبدأت السلطات البعثية الجديدة في الخارج بمطاردة كل من لم يكن منسجما مع الخط السياسي للانقلابيين من طلاب الدراسات العليا في الجامعات الغربية. وهكذا في هذا الجو الليبرالي الجديد والفوران الطلابي نشطت في المحافل الطلابية التقدمية في جامعات واشنطن. وقد ساعدني العديد من الزملاء في الظهور في محطات التلفزيون والاتصال بالعديد من الصحف والاذاعات هناك لبيان ما يجري في العراق وفضح ما يقوم به البعثيون في بغداد من أعمال القتل والترويع وخرق حقوق الانسان. وجدت نفسي اترك الدراسة جانباً لأقوم ببعض واجباتي تجاه وطني وأبناء جلدتي. كما نشط معي الكثير من الطلاب العراقيين الطيبين. وكانت الفئات الطلابية المنظمة في جامعات واشنطن تطلب منا ألقاء المحاضرات عن الوضع في العراق.

وجدت نفسي أطوف على الجامعات الخمس في واشنطن وحواليها وكان كل ذلك على حساب متطلبات دراستي التي انا منتسب اليها فلا الوقت يسمح ولا الظروف النفسية تشجع على أي شيء سوى الحديث عن محنة البلد في الجامعات وتوسع ذلك الى الإذاعات والتلفزيون فضلاً عن الصحف المحلية. دفع ذلك الامر الملحقية الثقافية

العراقية الى ان تكاتب رسمياً دوائر الاستخبارات الفدرالية (FBI) تتهمني كذبا بالشيوعية وتطالب بطردي من الولايات المتحدة على هذا الاعتبار بعد ان سحبت جواز سفري، إلا أن جامعتي واستاذي المشرف منحني المساندة كلها فلم تستطع الدوائر المختصة القيام بأي شيء سوى انها طلبت مني مغادرة البلد. ولما كنت قريناً لأمريكية فلم يكن بإمكانهم طردي من البلد!. وفي الوقت نفسه ألفت بعض الكتل الناشطة في أوروبا الشرقية "لجنة الدفاع عن حقوق الشعب العراقي" التي كان مقرها في براغ وتزعمها شاعر العراق العظيم محمد مهدي الجواهري وضمت شخصيات سياسية وفكرية وفنية. وأصدرت مجلة "الغد" لتفضح ما يجري في الداخل. وقد عدتني اللجنة "ممثلها" في الولايات المتحدة الامريكية من دون حتى استشارتي أوعلمي وكانت تلك على رأس الادلة التي قدمتها دوائر الهجرة لطردي من البلد لكوني امارس عملاً ضد الدولة الاميريكية.

استجارت جاكلين بأهلها واستجابوا لندائنا وتقدمت لمساعدتي مع جماعات ناشطة في واشنطن وتكاتف الجميع لايقاف المضايقات غير القانونية ووضعتني دائرة الهجرة على قوائم المسفرين وكان وجوباً ترك أميركيا خلال 24 ساعة!. دفع أهل زوجتي أتعاب محامٍ مختص للدفاع عني ولا ادري ماذا حصل او حدث فقد اختفت الملاحقات والمطاردات القانونية ولم يضايقني احد ولم اغير انا شيئا من معاداتي لفاشية البعث واستمرت فعالياتي مع متابعة دراستي.

كانت تكاليف المعيشة في واشنطن باهظة ومساعدتي المالية الواردة من الجامعة محدودة لا تكفي لاعالتنا. واضطرت جاكلين لترك الدراسة والعمل سكرتيرة في مركز للبحوث وأصبح راتبها معيلنا الرئيس فضلاً عن الراتب الذي كانت تمنحني إياه الجامعة كمساعد تدريسي. استطعنا العيش في تلك المدينة الغالية نسبياً كما اني اضطررت ان اساعد الأهل في بغداد بعد فصل والدي من وظيفته الحكومية وله عشرة أطفال ولابد من اعالتهم.

في واشنطن تقاطر زملاء الزعيم قاسم وعلى رأسهم اسماعيل العارف الذي ربطتني به علاقة خاصة تطورت الى أن أصبحنا قريبين من بعض ونلتقي باستمرار. كان طبياً

ويحلو لي الحديث معه عن أمور البلد. الحق يقال فالرجل كان مخلصاً لعبد الكريم قاسم ويكن له الاحترام. كان عالماً بشوائب حكم قاسم ونواقص تجربته السياسية ولم اسمع منه كلمة واحدة يصف فيها قاسم بالخيانة او الفساد. كما وصل الزعيم محيي الدين عبد الحميد الى واشنطن وهو من الضباط الاحرار الأوائل واطول وزير خدم في حكومة قاسم. كان الرجل ينتقد قاسم ولا يعتدي على كرامته او شخصه بل العكس من ذلك كان يعده وطنياً ومخلصاً ويتفق مع الكثيرين من المنصفين لتقييمات الرجل. كان دقيق الفهم للوضع العراقي الداخلي وكذلك طبيعة النظام الدولي!.

في واشنطن كان لي مجموعة من الأصدقاء الطيبين من الذين يدرسون في جامعاتها وعلى رأسهم المرحوم باسل الكبيسي الذي اغتالته المخابرات الاسرائلية في نيسان من عام 1973 بباريس لنشاطه في مساندة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وانتسابه لقياداتها والمرحوم شه مال صائب الذي كان يعمل في مكتبة الكونغرس بعد حصوله على درجة الماجستير في دراسات الشرق الاوسط من جامعة انديانا. والصديق مأمون امين زكي والاخ سهام شاكر شلال. حينما انهيت متطلبات الدراسة واكملت المسودة الأولى من اطروحتي قبلت عرضاً للتدريس في جامعة شرق واشنطن كأستاذ مساعد للعلاقات الدولية. وما ان حل شهر أب 1966 إلا وكنت في طريقي الى ولاية واشنطن.

اضطررت الى مغادرة واشنطن للالتحاق بعملي الجديد لأننا كنا نتوقع ولادة طفلتنا البكر في شهر تشرين الثاني. وكنت ارغب ان اطلق على المولودة الجديدة اسم "پيروز" وهو اسم جدتي الكردية من امي، لكني وعدت شه مال بأن يختار هو اسماً كردياً لها. ويوم ولادتها في تشرين 1966 اعلمت الاحبة بولادتها "وابرق" شه مال اليّ ان: اهلاً بشيرين وهكذا جاء اسم ابنتي الأولى.

كنت سعيداً بالجامعة فالمدينة الجامعية منظمة ونظيفة وصغيرة ولطيفة وعدد سكانها يتراوح في ذلك الحين الثلاثين الفاً تقريباً وغالبيتهم طلاب في الجامعة او ممن يعملون فيها والباقون ممن يعملون في الخدمة. كان مرتبي عالياً قياساً بمرتبات ذلك الزمن حتى ان استاذي المشرف كان يريدني ان اقبل عرضاً اخر لأنه من جامعة اكبر ولها سمعه علمية اكثر رصانة من هذه الجامعة لكني افهمته بان راتبي كان السبب

الرئيس للاختيار ولما علم مقداره أجاب ان راتبك هذا مساو لراتبي أنا الان وبعد عشرين عاماً من الخدمة! وبارك الرجل خطوتي.

عادت جاكلين الى الدراسة الجامعية واستأجرنا بيتاً صغيراً على حافة الحرم الجامعي وكانت حياتنا في غاية السعادة. كنت اسمع ما يحدث في العراق. فقد ولى البعث ولكن اثاره ما زالت باقية وان حادث الطائرة الذي اودى بحياة عبد السلام عارف وقبر الكثير من المعلومات معه لم يخف الكثير من لا إنسانية البعث وعلاقته بأمريكا... فالنظام العارفي أستمر بمجيء اخيه عبد الرحمن عارف الذي يقال عنه انه رجل طيب، واتفق الجميع على ان الرجل حلو المعشر لكنه محدود الكفاءة وكان زملاؤه الضباط يلقبونه "عبد الرحمن ازنيف" نسبة الى لعبة الدومينو المعروفة في بغداد الذي شغف بها وكان الرجل مسالما وودودا على عكس اخيه لايحب الظهور اضافة الى تواضعه ووداعته وكرمه.

بعد مجيئ زمرة البعث في انقلاب عام 1963 الى الحكم عاثت أذناب المخابرات الامريكية في العراق "فسادا"، فعينوا مثلا طاهر يحيى رئيساً لأركان الجيش ولم يكن الرجل قد حصل على شارة الأركان او تدرب عليها فكيف يرأسها؟ وعندما تولى عبد السلام عارف زمام الحكم دفع بأخيه عبد الرحمن الى سدة رئاسة الأركان وليس له أي من مؤهلاتها. ومن دون ان يحصل على شارة الأركان ايضا!! وها هو يأتي - عبد الرحمن عارف - رئيساً للدولة وبكل شارات التعظيم التي ترافق المنصب. ويقال بأن حمامات دم البعث في بغداد توقفت وان هدوءاً نسبياً قد خيم على عاصمة الرشيد.

عدت الى واشنطن لأكمل الدفاع عن أطروحة الدكتوراه وكان عمر شيرين لا يزيد على الستة اشهر. حللنا انا وجاكلين وطفلتنا ضيوفاً على باسل الكبيسي وزوجته الطيبة نادره الخضيري وطفلهم الأول احمد. كان باسل ميسوراً ويعيش في شقة لطيفة في ضاحية ارلنكتون بولاية فرجينيا في موقع يشرف على نهر البتومك التي تقع على ضفته الثانية العاصمة واشنطن. كان يحضر للدكتوراه في العلوم السياسية في الجامعة الامريكية. كم شعرنا انا وجاكلين بالألم لأننا شعرنا بان مضاعفة عدد سكان الشقة ليس مريحا لأي منا ولكن كرم وطيبة ونبل باسل ونادره يجعل من الصعب رد تلك

الضيافة لاسيما وان بقاءنا في واشنطن لن يزيد على ثلاثة أيام. مضى الأمر على أحسن ما يرام وعدت الى مدينتي الجامعية والدكتوراه كما يقول العراقيون في جيبي ولكن منحها رسمياً سوف يوافق يوم 5 حزيران 1967 وهكذا فان يوم تخرجي وحصولي على امنيتي صادف وقوع حرب حزيران وافسد ذلك كل شيء!.

حصلت طامة العرب الكبرى ولم اذهب الى احتفال تسلم الشهادة رسمياً على الرغم من ان علم العراق ارتفع في احتفالية تسليم الشهادات كتقليد للجامعة بتشريف الطالب المتخرج برفع علم دولته.

بعد مهزلة نكبة حزيران عام 1967 وما تلاها، بدأت بالاتجاه نحو العمل الاكاديمي المسيس لكن ضمن الحرية النسبية التي تسمح بها الحرية الاكاديمية والليبرالية الامريكية. فعلى هامش المؤتمر الأول لرابطة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية {Middle East Studies Association (MESA)}،اجتمع عدد من الاكاديميين العرب في جامعة شيكاغو وكرد فعل للنجاح الاسرائيلي والفشل الذريع للحكومات العربية نشطنا في محاولة لتنظيم رابطة لجمع شمل المثقفين العرب والتي لعب في تأسيسها الأول بعض الاكاديميين العرب غير المسيسين دوراً فعالاً. لان مهزلة حزيران 1967 هزت اعماقهم فبدأوا بالتحرك وان كان ذلك بحذر وربما لهمة بعض من كانت له جذور سياسية من الجيل الذي سبقنا. كان لولب تلك الزمرة عدد من خريجي جامعة شيكاغو في خمسينيات القرن الماضي الذين احتلوا مناصب علمية في جامعات مرموقة وكان من بينهم هشام شرابي أستاذ دراسات تاريخ الشرق الأوسط الحديث في جامعة جورج تاون وهو فلسطيني الأصل،عمل في نهاية الاربعينيات مع حركة القوميين السوريين يوم كان تلميذاً في الجامعة الامريكية ببيروت وجورج عطية – لبناني – وكان معهم في تلك الحقبة بجامعة شيكاغو والذي كان في حينها رئيسا لقسم الشرق الأوسط في مكتبة الكونغرس الأمريكي. كان ضمن الناشطين ايضاً حسني حداد أستاذ التاريخ في احدى جامعات شيكاغو وهو على ما اعتقد لبناني الأصل فضلاً عن فوزي النجار من الدفعة العلمية نفسها وهو أيضاً لبناني الأصل واستاذ العلوم السياسية في جامعة ولاية ميشيغان. استضاف الاجتماع الأستاذ العراقي

الأصل ورئيس دراسات الفكر الإسلامي في جامعة شيكاغو محسن مهدي الذي لم يكن يتدخل في العمل السياسي لا من قريب ولا بعيد ولم يبح باي سلوك سياسي او ميل نحو العمل التنظيمي إلا أن أحداث عام 1967 حركت الكثير من كوامنه واستطاع بحكم منصبه بجامعة شيكاغو ان يتصل بكنيسة الجامعة للحصول على قاعتها الفسيحة ليعقد مؤتمرنا التأسيسي وقرأ بنفسه البيان الأول الذي اتفقنا عليه في الليلة السابقة ببيت الاخ الطيب والكريم حسني حداد. كان عدد الحضور يزيد على الخمسين، وكنت اصغر البُناة الأوائل لهذه الجمعية واكثرهم نشاطاً في تعبئة الجهود للشباب الجدد القادمين من الجامعات الأخرى والتي بدأ العديد منا الانتساب الى الهيئات التدريسية فيها وعلى رأسها كان إبراهيم أبو لغد أستاذ الدراسات الافريقية والعربية في قسم العلوم السياسية في جامعة نورث ويسترن المعروفة في ضواحي شيكاغو وهو من اصل فلسطيني أيضاً. كما انضم الينا الشاب المتحمس ادوارد سعيد أستاذ الادب المقارن في جامعة كولومبيا العريقة والنجم الساطع في عالم الدراسات المقارنة بعد ذلك. جاء انتخاب إبراهيم أبو لغد لرئاسة الرابطة ليؤكد الجميع بالموافقة على ترأسها من قبل شخصية اكاديمية مستقلة، وان ركزت على الدراسات الاكاديمية في مؤتمراتها، فقد كان للرابطة أثر فعال في اظهار وجه اخر للشعب العربي غير الوجه السلبي الذي حاولت وسائل الاعلام الاكاديمية تسويقه تحت ستار الحياد العلمي في دراسات الشرق الأوسط. ولدت الجمعية الامريكية للخريجين العرب (U. GA. A.) وقامت بإصدار دورية (Arab Studies Quarterly) كمجلة علمية وضع قواعدها العلمية وسمعتها الرصينة رؤساء تحريرها الأوائل ادورد سعيد وإبراهيم أبو لغد والتي ما تزال حتى يومنا هذا احدى المصادر العلمية المهمة في دراسات الشرق الأوسط التي لها رصيدها ولي الشرف بأني في هيئة تحريرها الاستشارية منذ تأسيسها الى يومنا هذا.

تكاتفت الجهود لدفع مكتبات جامعاتنا لاقتنائها وبذلك أصبحت ضمن محتويات هذه المكتبات. ساهمت تلك الرابطة بعمل علمي جبار بتهيئة مصادر رئيسة في حقل الاختصاص فضلاً عن فسح المجال لنشر الكثير من بحوثنا التي لا يمكن إيقاف تأثيرها العلمي. ولا انسى الحماس الذي قابل فيه العديد منا انشاء ذلك الصرح والتبرعات السخية التي قدمها الكثير منا. وتوالت مؤتمرات الرابطة وبعد مؤتمرنا

الأول اختفى استاذنا المؤسس محسن مهدي وعاد الى صومعته العلمية بعد ان طلق العمل السياسي. اما انا فقد واظبت على العمل مع الرابطة الا ان أصابع العبث لبعث صدام بدأت تتدخل للسيطرة على الرابطة فانسحبت تدريجياً ولكنني بقيت عضواً فيها. وعلى الرغم من مغادرتي أمريكا الى كندا فقد دأبت على حضور مؤتمراتها السنوية كلها الى نهاية السبعينيات.

كان لعودة البعث للحكم في 17 تموز عام 1968 اثر فعال غير مجرى حياتي. كنت امني النفس بالعودة الى الوطن وكنت اشعر بالحنين الى الوالد والوالدة. من تلك اللحظة بدأت اشعر بأن الفاشية عادت بأجلى صورها وبدأت التفكير بمستقبل اولادي خاصة وان عددهم ازداد الى الضعف بولادة جنان.

نجحت بالاستقرار لاسيما وان لدي الان مؤهلات علمية. منحت درجة أستاذ مشارك في غضون عامين فقط وهذا غير متوقع حيث ان الترقية العلمية من درجة أستاذ مساعد الى التي تليها تحتاج الى أربع او خمس سنوات. كتبت عددا من المقالات التي نشرت في مجلات علمية لها سمعتها الاكاديمية كما استطعت تأليف كتابين تم قبولهما للنشر في احسن دور النشر الاكاديمية.

تقدمت لعدد من الشواغر العلمية في كبريات الجامعات الامريكية وحصلت على عدد من العروض بينها من جامعة بنسلفانيا وجامعة كولومبيا على الرغم من كوني سعيداً في جامعة شرق واشنطن لبيئتها الطبيعية فالمنطقة جميلة والمدينة الجامعية رائعة وقريبة جداً من ثاني مدينة في الولاية. تبعد المدينة ستة عشر ميلاً من مدينة سبوكان. كما اني نجحت إدارياً اذ تسلمت نيابة عمادة الطلبة فيها وأصبحت قريباً من القيادات الطلابية كوني في العشرينيات من عمري والأقرب الى اعمار الطلبة من بقية القيادات الإدارية فضلاً عن اهتمامي باحتياجات الطلبة. كانت الجامعة تموج بالكثير من الجماعات التي تريد التغيير في نواحي الحياة السياسية والاجتماعية جميعها. وكانت هناك جماعات "تحرير السود" وجماعات سياسية تحررية وتقدمية عديدة فضلاً عن جماعات محافظة ورجعية. كنت سعيداً في محيطي الجامعي وناشطاً في النقاش الدائر حول التدخل الأمريكي في فيتنام واتخذت موقفاً معادياً للسياسة الاستعمارية. في

بعض الدروس التي تخص السياسة الخارجية الامريكية كنت اعطي وجهة النظر الأخرى ولكني اختتم بالوجهة التي اعدها هي الصائبة. كنت ادين في الكثير من الاحيان التدخل الأمريكي. كما نشطت في دعم حملة الانتخابات التي رشح فيها المعارض الديمقراطي للرئيس الأمريكي نيكسون في حينه فترأست لجنة المساندة في الجامعة لترشيح السناتور الديمقراطي (George Mclovern) ضد الرئيس الأمريكي (Richard Nixon).

كما سعيت لبناء كيان جديد في بلد قد ينتهي المطاف بي في النهاية ليكون محل اقامتي الدائمة، فأنا لم اصبح مقيماً دائماً لغاية الان في أمريكا بل قدمت الاستمارات اللازمة لذلك ولكني لم اتابعها وبقيت هكذا لأكثر من سبع سنوات فان حقي القانوني يسمح بالحصول على الإقامة الدائمة لكون زوجتي واولادي مواطنين كذلك عملي في مؤسسة بحاجة الى خدماتي وهذان الحقان كلاهما يمنحاني حق الإقامة الدائمة ومن ثم الجنسية الامريكية ولكن ذلك يستوجب علي التسجيل لدى دوائر التجنيد التي يسمح لها ان ارتأت ذلك تجنيد المقيم! لهذا فاني تقدمت بطلب الإقامة في امريكا الذي يمنحني حق العمل إلا أني لم اتابع الموضوع. كنت اعمل تحت المظلة القانونية لكني لا اريد ان اخدم في جيش قد يسوقني في حرب لا اؤمن بها واعدها عدائية واستعمارية ضد شعب اعزل.

عندما وصل البعث الى سدة الحكم في العراق عام 1968 قررت ان ابحث عن محل إقامة دائمي وجواز سفر فأنا بحاجة اليه بحكم عملي الاكاديمي لاسيما وأن العراق قد سحب مني جواز سفري. ولما كنت ضد "الفاشية" في كل مكان وبضمنها "البعثية" فقد بدأت البحث عن وظيفة اكاديمية خارج الولايات المتحدة. حصلت على عرض للتدريس في جامعات اوروبية وأخرى نيوزلندية إلا اني فضلت قبول العرض من جامعة كالكري الكندية التي قدمت لي عرضاً مادياً مغرياً ووافقت على شروطي في الحصول على درجة أستاذ مشارك مع الاحتفاظ بحقي في الحصول على تفرغ علمي أي إجازة بحث براتب كامل بعد ثلاثة أعوام مقرونة بكل حقوق الإقامة الدائمة والمواطنة بعد ثلاثة سنوات!.

الأن كيف لي الذهاب الى كندا لأجراء المقابلات المطلوبة للمتقدم للوظائف الجامعية وانا لا املك حق الإقامة الدائمة؟ وكيف للجامعة الكندية منحي عقد التدريس ومن دون إجراء المقابلات المطلوبة وان هناك عشرات المتقدمين للتعيين من الأساتذة الامريكان ومن جامعات مرموقة تريد مغادرة أمريكا احتجاجاً على الحرب الفيتنامية. فقد كانت الجامعات الأمريكية بطلابها واساتذتها معقل المعارضة للحرب ناهيك عن وجود عشرات الكنديين الذين انهوا الدراسات العليا في أمريكا وأوروبا وكندا راغبين بالعمل في الجامعة. انفتحت قريحة عميد الآداب في جامعة كالكري وعلى ما اعتقد بإيحاء من رئيس القسم وتشجيع قسم العلوم السياسية بان يأتي وفد من عمادة كلية الآداب ومن قسم العلوم السياسية برئاسة رئيس القسم وعضوية لجنة الاختبار بأعضائها كافة لزيارتي في جامعة شرق واشنطن. حضرت اللجنة الى امريكا وقامت بزيارة ميدانية الى قاعة المحاضرات ثم طلبوا مني القاء محاضرة عامة عن موضوع "نظريات العلاقات الدولية وواقعيتها في عالمنا المتغير"، بعد تدقيق ملفي التدريسي والتوصيات كلها التي يحتويها فضلاً عن نتاجي العلمي، قدمت اللجنة تقريرها وجاءني عرضها رسمياً واعطيتهم موافقتي المبدئية الى ان تسنح لي الظروف لزيارة المدينة قبل بدء العام الدراسي بعد ستة أشهر من تاريخ العرض!. قامت جامعة كالكري بمنحي راتب ثلاثة أشهر كمساعدة لشراء وتأهيل محل سكني الجديد فضلاً عن تسهيل حصولي على قرض مالي بمساعدة الجامعة من المصرف الذي تتعامل معه الجامعة وبفائدة رمزية!. تكفلت الجامعة بنقل اثاثي ومحتويات مكتبي على نفقتها الخاصة مع تكليف محامي الجامعة بمتابعة معاملة الإقامة الدائمة في كندا!.

طلبت من دوائر الهجرة الامريكية ان تبت في طلبي للإقامة الدائمة وقد تساءل الموظف المختص كيف ولماذا لم اطلب ذلك بعد هذه السنين كلها؟ ولكن المحامي الذي كلفته الجامعة بمتابعة الموضوع هدد دائرة الهجرة بإقامة دعوى ضدها لتماديها وعدم ملاحظتها لمعاملة الاقامة التي بحوزتها لسبعة أعوام. حصلت على الإقامة الدائمة وسافرنا انا وجاكلين لزيارة مدينة كالكري وجامعتها. امتازت ابنية الجامعة بالحداثة وحسن التنسيق وكانت المدينة جميلة ورائعة فهي تقع على سفوح جبال الروكي الشهيرة وان صيفها وقت زيارتنا كان في غاية اللطف وطبيعتها خلابة.

استقبلنا الزملاء في قسم العلوم السياسية وكانوا في غاية الود ورئيس قسمها في غاية الكرم. اما هيأتها الإدارية فقد كانت مضيافة وجعلتنا نشعر باننا في عالم جديد ومتمدن. أول ما لفت نظرنا حين دخول الأراضي الكندية نظافة البلد وجمال بيئته الطبيعية وتمدن رجال الهجرة على الحدود الكندية - الامريكية لاسيما بعد ان اعلمتهم بأننا هنا للبت في إمكانية قبول عرض الجامعة. كان من حسن المصادفات ان موظف الهجرة من سكان كالكري ومن خريجي جامعتها. ختم ترحيبه قائلاً: اريد ان أقول لك شيئاً ارجو ان تحمله محمل الجد وهو انك ستكون سعيداً في هذا البلد وهذه المدينة بالذات وسترتاح بين اهلها وهم فخورون بجامعتهم وانا احد خريجيها.

عدنا الى أمريكا بعد ان وقعت العقد رسمياً وطفنا في المدينة التي عشقتها زوجتي اول ما وطأت قدماها أرضها. في اليوم الثاني ذهبنا وبصحبة احد مسؤولي ضيافة الجامعة لزيارة بعض البيوت المعروضة للبيع وأخرى للإيجار، استقر رأينا على شراء احدها وكان قريباً من الجامعة. قمنا بالاجراءات المطلوبة كلها وغادرت المدينة في اليوم التالي. كانت تلك اول مرة اغادر فيها أمريكا بعد وصولي اليها قبل ثمان سنوات فان الإقامة الدائمة التي حصلت عليها تبيح لي التنقل بين أمريكا وكندا!. تذكرت التطبيل والتزمير للوحدة العربية والعروبة بين البلاد العربية والروتين والعضلات البوليسية المبطنة والعلنية التي تظهر احياناً عند نقاط الحدود بين بلداننا. عدنا الى أمريكا من دون تفتيش او مضايقة وطلبت من جامعة شرق واشنطن منحي إجازة لمدة عامين والا فاني سأستقيل ان ارتأت الجامعة ذلك. تقدم القسم بمقترح الى الإدارة الجامعية بقبول الطلب وبقيت في القسم أقوم بواجبي حتى نهاية ذلك الفصل.

انتقلت الى كندا بعد انتهاء فصل الصيف الدراسي مباشرة وقدمت طلب الإقامة الكندية الدائمة عند الحدود وساعدني الموظف المختص وكان بغاية الادب. فقد قام الموظفون المختصون في جامعة كالكري بالإجراءات المطلوبة كافة منذ توقيعي العقد معهم قبل ثلاثة اشهر وما عَلي الا ان اتقدم بطلب رسمي لاكمال معاملتي. اقترح موظف الهجرة ان أقوم ومن تلك الساعة بإكمال المعاملات الرسمية وختم حديثه قائلاً: لاحظت ان بعض موظفي الدوائر الامريكية يعتقدون بانك من اكثر

الناس انتقاداً للسياسة الامريكية الخارجية وان ميولك السياسية فيها الكثير من عدم الارتياح من النظام السياسي الأمريكي على الرغم من انهم يعلمون ويؤكدون بانك لست من حملة "المبادئ الهدامة "ولكني اعتقد بانك ستكون سعيداً مع بعض الأحزاب السياسية هنا في كندا لأننا بصورة عامة "شعب غير مؤدلج". أكدت له باني أستاذ ومنفتح وتقدمي بآرائي ولكن لست من الذين يعملون ضمن "الحدود "الايدلوجية لدى الأحزاب السياسية. نادى على المسؤول الكمركي وطلب منه ان يقوم بواجبه في استكمال معاملات "الكندي الجديد" والموافقة على فحص الشاحنات" الكبيرة التي حملت اثاثي. تعجب الموظف من كمية الكتب التي حملتها احدى الشاحنات. قام بفحص بدائي وعشوائي لبعض المواد المشحونة ووافق على ادخال سيارتي الشخصية من دون رسوم جمركية ووعد المسؤول في دائرة الهجرة بان الوثائق الرسمية ستكون عند الإدارة الجامعية في غضون أسبوع واحد لكنه اكد لي بان هذا اجراء روتيني ليس الا.

وصلنا الى بيتنا الجديد وكانت الجامعة قد قامت بأعداد ترتيبات لاستقبالنا وتنظيم حمولة الشاحنات وتم ذلك بأشراف موظفي الجامعة. قد تكفل احد الزملاء بالقسم وزوجته بالعناية بجاكلين وأبنتي "شيرين "و "جنان" وهما ما زالتا صغيرتين، شيرين في عامها الثاني وجنان في عامها الأول!. بينما كان عملي الاشراف على توزيع حمولة الشاحنات على غرف البيت الخمس. اودعت الجامعة كتبي في مكتبي بالجامعة. نمنا تلك الليلة في احد الفنادق بضيافة الجامعة. في غضون أسبوع واحد حل العام الدراسي كنا كما لو عشنا في هذه المدينة سنوات. فالنظام الاجتماعي والسياسي اكثر انفتاحاً من أمريكا وطبيعة التعامل اقل فضاضة وان كانوا اكثر تحفظاً. في الأسبوع الأول زارني مسؤول "التوظيف" في الجامعة وسلمني الوثائق الرسمية بكوننا "مقيمين دائمين". سألته كيف سأحصل على "جواز مرور" كوني لا أحمل جوازا رسميا؟ فقال بأنه سيوفد الي احد موظفيه ليقوم بالإجراءات المطلوبة وعلل ذلك ضاحكاً ستبدأ بعد ساعتين درسك الأول في هذه الجامعة او قل عملك الرسمي في كندا ولهذا كنا نريد انهاء معاملات الهجرة الدائمة حتى لا نخالف القانون. كنت أرغب بزيارة والدي ووالدتي بأقرب فرصة ممكنة. رجوت الموظف في دائرة التوظيف الجامعي تدبير جواز

المرور وكان الرجل كفوءاً وهو من أصول بريطانية كما يبدو من لهجته. اتصل بي في اليوم التالي ليقول بانه بحاجة الى كتاب من رئيس القسم او العميد يؤكد فيه حاجتك لأجراء بحوث تتعلق بدروسك في المناطق التي ستزورها وقد ابدى العميد استعداده لتزويدي بذلك كما تبرع رئيس القسم بكتاب يبرر فيه ضرورة ان أقوم بذلك في اثناء عطلة عيد الميلاد. اتصلت بصديقي عدنان إسكندر رئيس قسم العلوم السياسية في الجامعة الامريكية ببيروت حينئذ طالبا المساعدة في تدبير مستلزمات البحث في اثناء وجودي هناك وارسل الرجل مشكوراً "وبالتلكس" الى الجامعة الموافقات المطلوبة. كما طلبت من أستاذ في جامعة بريطانية دعوتي لألقاء محاضرة على طلاب الدراسة العليا في قسم العلوم السياسية في جامعة لندن وبذلك استطعت تأمين جواز مرور كندي مع سمة دخول لبريطانيا ولبنان.

وما ان انتهت الفترة الدراسية للفصل الأول حتى كنت في بيروت للقاء الوالد والوالدة وقد كنت بأشد الشوق اليهما. لأول مرة رأيت والدي على أبواب الشيخوخة فقد تركته كهلاً ووالدتي على مشارف نهاية الكهولة. كان احد تلامذتي في الدراسات العليا من أهالي بيروت قد رتب مع اهله تسهيل مجيئهم واقامتهم في بيروت. كانت تلك الزيارة بداية لاعتباري بيروت بلدتي ولبنان وطني. كنا نترك كالكري في منتصف شهر نيسان بانتهاء الفصل الدراسي الثاني ولانعود اليها الا في بداية الفصل الأول في منتصف شهر أيلول. وغالباً ما تقوم الجامعة الامريكية في بيروت بتهيئة احد دور الأساتذة لسكنانا. للجامعة الأميركية عالمها الخاص لها مساكنها ولها دوائرها ولها نكهتها الخاصة في الجمع بين متطلبات العيش الحديثة وجمال الطبيعة والتراث العربي. فهي قطعة من اجمل بقاع لبنان على شاطئ البحر المتوسط، وقد شيدت على طراز الجامعات الامريكية التقليدية، مسورة ومؤمنة ومتميزة بالهدوء والانتظام مع الاحتفاظ بجمال الطبيعة اللبنانية التي تحيط بها أروع واحدث المطاعم والفنادق الحديثة فضلاً عن المحلات والمقاهي الرائعة في منطقة "الحمرة" الراقية. كانت بيروت في ذلك الزمان مرتعاً للفكر الحديث وموطناً لكثير من الشعراء والادباء. تزدحم شوارعها ومصايفها بالكثير من المصطافين العرب والمثقفين سواءاً من المنفيين من بلادهم اختياراً او اضطراراً. كانت بيروت ام الثقافة وصالون السياسة الحرة وكانت

القيادات الفكرية العربية وحتى الأجنبية تعتبر بيروت "سوق عكاظ "بالنسبة لها بمختلف مشاربها ومنابعها. كان صديق العمر الطيب الشاعر بلند الحيدري حلقة الاتصال مع عالم الفكر والثقافة ورجالها من كل بقعة في الوطن العربي او خارجه، واهم مركز لإعادة صلتي بالأصدقاء من العراق الذين اصبح الشاعر بلند عميدهم في بيروت يلجأون اليه لاسيما الشعراء والكتاب التقدميون منهم. بعد خروج بلند من قصر النهاية آبان حكم البعث في العراق عام 1963 والتعذيب الجسدي والنفسي الذي مر به غادر العراق الى بيروت ام الحرية وبيت الشفقة، وجد له عملاً في عدد من صحفها ومجلاتها واستطاعت زوجته دلال المفتي "ام عمر" إيجاد عمل تدريسي لها في احدى المدارس الاهلية. استطاعوا تدبير شقة ممتازة لهم في احلى احياء بيروت واصبح بيتهم ملتقى الادباء والشعراء من البلاد العربية كلها والعراق على وجه الخصوص. أصبح بيت أبي "عمر "النادي العراقي لنا جميعاً. مع بشاشة بلند ونفسية الاخت دلال كنا نعيش احلى اوقاتنا معهم، ناهيك عن كرمهم وسمو اخلاقهم وحلو لقائهم وعلاقاتهم الحميمة مع العديد من شخصيات المجتمع والادب والسياسة البيروتي، كانوا رحمهم الله رحماء كريمين طيبين مخلصين لأصدقائهم ووطنهم. كانوا مفتاحاً لعودة الروح ونافذتي على العراق المغلق بالنسبة لي. كانت بيروت التعويض عن الكثير من الذي افتقدته في بغداد واعادت وصلي بالبيئة الفكرية العربية فكانت هي المنقذ النفسي والمتنفس العاطفي كما كانت المدينة التي تستطيع فيها زوجتي واطفالي العيش والذي سميته "الشرق الأمن "الذي استطيع من خلاله رسم صورة اودان اوحي بها لهم عن بلادي التي كنت اريد شد عائلتي الصغيرة بها!. كان بلند خير معين في تحقيق هذه اللوحة في عالم خيالي. الى ان جاء عام 1973 وكنا في طريقنا الى بيروت كما كنا نفعل منذ ثلاث سنين، ففي اليوم الرابع من ابريل صدرت الأوامر الى شركات الطيران الى تغير رحلاتها الى أثينا وان يبقى المسافرون في أثينا حتى اشعار اخر. وصلنا الى بيروت في العاشر منه وكانت تلك بداية الحرب الاهلية غير المعلنة. عندما هبطت طائرتنا في بيروت ادركنا انها بيروت جديدة. فقد بدأ منع التجوال يسري منذ وصولنا وكان الجيش على أهبة الاستعداد وكانت أصوات الطلقات النارية تسمع طوال الليل واختفت وداعة بيروت وسلميتها وهدوءها المعهود. انقطع الاتصال بالعالم الخارجي

واغلق مطار المدينة حتى المطاعم أغلقت. كنا كعادتنا في السنوات الماضية نقطن في فندق صغير ونظيف محدود الضيوف ومشهور بأكلاته البيروتية الرائعة. وضيوفه معظمهم ممن تعودوا على التوافد عليه كل عام. كان عليك ان تحجز جناحك قبل شهور من قدومك إليه وقائمة المنتظرين تزداد شهرياً. يدير ذلك الفندق عائلة كريمة وطيبة وكنا نفضل الجناح الأرضي في فندق -عون- لسهولة الخروج منه والدخول اليه بالنسبة للأطفال. لأول مرة لاحظت صعوبة تدبير أمور معيشتنا على الرغم من ما اسمته جاكلين "قدرة البيروتي الخارقة في التدبير". كانت اختي سعاد قد أنهت دراستها في كلية ماونت رويل (Mount Royal College) وهي في طريقها عائدة الى بغداد فقررنا ارسال جاكلين والأطفال الى بغداد. حصلت على سمة دخول الى بغداد لي ولعائلتي من كندا على ان نذهب بعدها الى القاهرة لقضاء العام الدراسي فيها كأستاذ زائر في الجامعة الامريكية في القاهرة. كان ذلك تفرغي العلمي الأول. وحال حصولي على أول بطاقات طيران لهم أرسلت الجميع برفقة اختي الى بغداد وكانت ايام بقائنا في" فندق عون "لأسبوع كامل لا نستطيع مغادرته. جاهدت عائلة عون في اطعامنا وأغلقت أبواب الفندق واوصدت الشبابيك ولكنا كنا نقضي معظم اليوم اما في غرفنا او مطعم الفندق الصغير. كنا نعامل بعضنا البعض كعائلة واحدة داخل الفندق ومن حسن الحظ فان عدد الزائرين في شهر نيسان يكون محدودا جداً ويبدأ فصل الاصطياف في أوائل شهر مايس، لهذا فان ادارة الفندق استطاعت ولو بجهد بسيط تدبير امورنا. في الطريق الى مطار بيروت مع سائقنا الذي اعتاد ان يرافقنا في سفراتنا كلها "أبو حسن" وكان له معارفه والذي يعدنا جزءاً من عائلته. كان حذراً ومهتماً بسلامتنا. لأول مرة رأيت الخوف في عينيه واختفت من وجهه علامات المحبة والسعادة. كان الجيش منتشراً ونقاط التفتيش تقطع المواصلات والتأكد من هويات الناس لاسيما هؤلاء الذين في طريقهم الى المطار. بعد جهدٍ مضنٍ وصلنا المطار. في فوضى الامن وكثرة المسافرين وزعيق الشاكين أدخلت العائلة وبمساعدة "أبو حسن" الى صالة المطار ومنها الى الطائرة. انتظرت وأبو حسن على احر من الجمر الى ان اختفت الطائرة من سماء بيروت!. استطاع أبو حسن ترتيب عودتي الى "البلدة" مع احد زملائه ليستطيع هو العودة الى بلدته قبل حلول موعد منع التجوال ليلاً!.

عـادت بيروت الى هـدوء مشروط وعـادت العائلة من بغداد وقد كانت سفرتهم مريحة وقد عمل الوالد والعائلة على إنجاح السـفرة كانت بالنسـبة لهم سـفرة سياحية رائعـة جـاءوا بعدها بانطباع رائع عن العراق وأهله. كانت شـيرين وجنان سـعيدتين وهـن يقصصـن عَلي قصـة سـفرهم الى النجف وكيـف كان عليهـن لبـس "العباية" البغدادية عند زيارتها واشفعن ذلك بالصور واشرن بأنها تجربة رائعة للأطفال وامهم بهذا الوشاح.!.

بعد اسـتقراري في كندا وغزارة الإنتاج العلمي الذي اتاحته لي الحرية الاكاديمية في الجامعات الكنديـة بـدأت العمل عـلى تأسـيس (International Association of Middle East Studies) "الجمعية الدولية لدراسات الشرق الأوسط" التي حاولت فيها توسيع نطاق عضوية متنسبيها من المحيـط الامريكـي الى الفضاء الـدولي. عقدنا الاجتماع التأسيسي لجمعيتنا الجديـدة في مركز معهد الدراسات الإسلامية في جامعة مكجيل بمونتريال في العشرين من تشرين الأول عام 1969 حضره اكثر من خمسـين اسـتاذاً والعديد من الشـخصيات العلمية واتذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: سـدني نيلتـن فـشر (Sidney Neltlon Fisher) المـؤرخ المنصـف مـن جامعة ولايـة اوهايو الذي انتخب اول رئيس لنا، كما حضرها الاكاديمي المعروف البرت حوراني من جامعة اوكسفورد وكان بيننا أيضاً العالم المشهور الذي كان محايداً بحق في الأمور السياسـية الا انه كان متفهماً للواقع العربي في قلبه (Malcom Kerr)، والذي اغتيل في بيروت عام 1982 حينما كان رئيساً للجامعة الامريكية فيها، وحضرها الأسـتاذ العراقي المشهور رئيس دراسـات الشرق الأوسط في جامعة جون هوبكنز المعروفة مجيد خدوري كما كان بيننا من الجامعة الامريكية في بيروت حنا بطاطو الذي كان ماركسياً يسارياً وله حب صامت للعراق وأهله. كنت انا الوحيد من كندا في حينها كما حضر معنا من جامعة برلين الحرة أستاذ الشرق الأوسـط الحديـث فريدمان بتنـر (Fridman Buttner) كانت تلك نواة الجمعية الدولية لدراسـات الشرق الأوسـط وأصبحت انا أمينها العام وهكذا ولدت هذه الجمعية ولها موقف فعال من مشاكل المنطقة ولا تستلم أية مساعدة مباشرة من احد وليس لها صندوق مالي والمسـاهمات كلها كانت من أعضائها ولا تقبل من بين زملائها الا من يرشـحه عضو مؤسس وهي ليست منفتحة على الجميع. ولهذا كنا حذرين من تسرب القوى غير الاكاديمية الى الجمعية لتحرفها عن مسارها العلمي ولم يكن يحركنا الا الوازع العلمي لا غير.

بعد مؤتمرنا الأول في عام 1970 في جامعة رئيس الجمعية "جامعة ولاية اوهايو" في مدينة كولمبس تم انتخابي لرئاسة الجمعية عام 1978 وانعقد المؤتمر الثاني في جامعة كالجري عام 1986 وحضره اكثر من ثلاثمائة زميل من انحاء العالم. بدأنا بجدية نناقش وليس كما هو الحال في (MESA) ولا نتوانى من معالجة المواضيع السياسية التي نتخذ فيها مواقف مبدئية لا دعائية... وهذا ما اختلفنا به عن (MESA) التي تحرم اتخاذ مواقف مهما كانت عادلة كما ان مجلتها العلمية باتت بالرتابة نفسها كما سيأتي ذكره لاحقاً.

عَلي الأن العودة الى بيروت والى السنوات الماضية. كان بلند الحيدري موئل العراقيين القادمين الى بيروت، كان الرجل نقطة الاتصال الرئيسية للجميع فمنذ صيف 1970 وثق علاقاتي بأصدقاء رائعين مثل الفنان الكبير منير بشير صديق أيام إذاعة بغداد الذي غدا من نجوم بيروت بعد خروجه من سجن البعث في صيف عام 1963. التحق بالجو الفني في بيروت وأصبح من أساطينه فقد بدأ بالتألق عازفاً في اهم الفرق الموسيقية في بيروت وكان يعمل مع فرقة فيروز الرائعة. كما توثقت صداقاتي مع الكثير من الادباء اللبنانيين والسوريين. بدأت تتكون لي حلقاتي أيضاً فما دامت جاكلين والأطفال في امان الجامعة الامريكية فأن باستطاعتي ان اعمل ما أشاء مساءً بعد ان يعودوا الى امان الجامعة وجمال شفقها. كانت لنا أيضاً "منظفة" وطباخة تعمل لاحد العمداء الذي يغادر هو وعائلته صيفاً الى أمريكا فتغدو "محبوبة" المسؤولة عن تدبير الأمور المنزلية لنا. كنا نقضي اليوم مجتمعين نتناول في الغالب غداءنا في مطعم فيصل الرائع الواقع في الشارع المقابل للبوابة الرئيسية للجامعة الامريكية، وكان النادل "يوسف" مثله مثل القائم بأعمال السكرتير يقوم بأخذ المواعيد من السائلين عني من الأصدقاء وتوصيل تلك الرسائل. كان شخصاً كريماً في ترتيب اكلاتنا ويعد لنا يوميا قائمة غداء تختلف عن الغداء السابق واللاحق. كان يعرف ما يحبه كل منا وما نكرهه!. نقضي الظهر وما بعده - في الغالب- في مسبح الجامعة على شاطئ البحر ونعود بعدها لشرب الشاي واكل فاكهة العصر التي تعده "محبوبة" لنا وتحضر لنا طبخة العشاء وتغادر الى بيتها في ضواحي بيروت نحو الساعة الخامسة، كنا نجزل لها العطاء وكانت تقابل ذلك بالعمل جاهدة على اسعادنا.

حينما تأتي مجموعة أصدقاء من بغداد تقوم محبوبة بأعداد أروع الأكلات واطيب الطبخات ومعظم ما يحدث كان ذلك في عطلة نهاية الأسبوع واغلبها كان يوم الاحد ويكون قطب تلك الحفلات الرئيس الاخ "أبو سعد" منير بشير إلا في حالات التزامه في حفلاتـه والحفلات التي يشرف عليها او يشارك فيها بينما بلند الحيدري والاخت دلال كانا القطب الاخر لمرحنا العائلي. لا انسى في صيف عام 1971 حينما اتصل بلند قائلا بان مجموعة أصدقاء يريدون لقاءنا فألححت عليه ان يكون اللقاء في شقتنا في الجامعة واصر على عدم اعلامي بأسمائهم حتى وصولهم لتكون مفاجأة للجميع. كان عددهم خمسة وطلب ان تقوم محبوبة بتحضير الشاي والاكلات المفضلة. ما أن حل موعد اللقاء وفتحت الباب إلا ووجدت امامي باقة من اقرب الناس الى قلبي من الذين اتشوق الى لقائهم وهم الفنان الرسام المبدع الدكتور خالد الجادر وفنان الشعب يوسف العاني والشاعر الخجول والطيب حسين مردان. كان معهم زميل أيام الإذاعة ومن الموظفين المزمنين في طاقم الإذاعة وهو عبد الحميد الدروبي فضلاً عن الاخ منير بشير. كانت ليلة رائعة على الرغم من الألم الذي ساد ذلك اللقاء فقد تحدثوا عن ما حصل لهم بعد انقلاب شباط عام 1963 والتعذيب الذي مر بهم جميعاً وكيف كانت قساوة تلك الزمرة الفاشية التي لا يمكن تصورها وكيف كان التعذيب يجري في قصر النهاية لهذه العقول المبدعة والجبارة وكيف كان "ابطال "الحرس القومي يطفئون أعقاب سجائرهم في عيون وجفون المعتقلين من امثالهم وكيف ابتدع ذلك الجهاز أساليب جديدة ومبتكرة للتعذيب. الكل كان يعرف ان ذلك من صنع المخابرات الامريكية وكيف كان كبار المثقفين يساقون الى غرف التعذيب لإرضاء أسيادهم وكيف كان ما يسمى بالحرس القومي يتفننون بإيذاء وتعذيب ضحاياهم من كبار المثقفين والمبدعين (والجالسين معنا بضمنهم) فضلاً عن الكثيرين من العلماء وأساتذة الجامعات والفنانين والشعراء والادباء. أطنب يوسف العاني في رسم تلك الصورة عبر مسرحيته بعنوان" اويلاخ "التي كتبها وجاء بها الى بيروت ليودعها عند بلند. كانت تسجيلاً لما مر به هو والحاضرون في أيام التعذيب بقصر النهاية المشؤوم الذي اتخذه جلادو الحكم الجديد وحزبهم مقراً لمآسيهم. لقد تحدث عن ما فعله هؤلاء "الاوغاد" كما نعتهم يوسف في حينه وذكر أسماء المعذبين بألم، أساتذة جامعة،

رؤساء جامعات، كبار الأطباء، فنانين وأدباء، شباب وشيوخ. نشر يوسف العاني تلك المسرحية لأول مرة قبل وفاته عام 2014 واشرف على طباعتها ونشرها صديقه الحميم "الدكتور حمدي التكمجي "وقد أصدرت طبعتها الأولى مطابع دار الاديب في عمان ضمن كتاب صدر باسمه "يوسف العاني: فنان الشعب". بدأت عيون الجميع تغرورق بالدموع وظهرت على الوجوه سجايا ألم عميق مما دفع الاخ أبو سعد لأن يبدأ بالعزف والغناء على حد قوله "لنحتفل بنجاتنا منهم ونغني للمستقبل فنحن هنا باقون". كانت أمسية عامرة حافلة عراقية اصلية بآلامها وبعزم وتصميم طيبيها. كان اكثر الحضور بكاءً وأن كان بصمت "حسين مردان "!!. لا تزال تلك الليلة عالقة في مخيلتي ولا تزال جاكلين تتذكرها بتفاصيلها حتى هذه اللحظة، وأقول: ما هذه الحيوانات الشرسة التي عاشت على تعاسة الناس!؟ "، وأكرر ذلك القول حتى الان.

انتهت بيروت التي عرفناها في تلك الحرب الاهلية وتفرق الشمل وانفرط عقدنا حيث انتهى المطاف ببلند ودلال في لندن بينما هاجر نجلهم الوحيد "عمر "الى كندا. ماذا جنى جلاوزة البعث على اهل العراق ومثقفيه ومبدعيه من الذين ضمتهم بيروت تحت جناحيها الى ان فرقتهم قوى الشر في بيروت.

كانت بيروت في السبعينيات ملجأً للمثقفين من كل صوب وحدب ومن كل جهة سياسية او فنية كانت بمثابة مجموعة صالونات او منتديات لا حدود لفعالياتها ناهيك عن ألوان الفن. كان صالون الاخ بلند الحيدري مفتوحاً على الكل وللكل. كان له حضوره في لبنان ولاسيما مع القوى التقدمية. كان مقدماً من قبل الزعيم الدرزي كمال جنبلاط. في بيروت السياسية لا بد ان تكون محتمياً بأحد من رجالاته او مؤسساته او تحت مظلة مؤسسة او شركة او مجموعة منتديات. كنت وبالتبعية تحت خيمة جنبلاط لاسيما انه كان يستمتع بالنقاش الفلسفي الاكاديمي. كنا نراه باستمرار في بيروت او في بيت الدين. كان يحترم الجامعة الامريكية والمثقفين العرب الذين تستظل بهم الجامعة فضلاً عن احترامه وتقديره لأدب بلند وشخصه. كان يطلب من بلند مجيئي الى بيت الدين في الأقل مرتين في كل صيف. كنت افعل بطيبة وشوق. كان يعاملنا انا واطفالي وزوجتي بلطف وتقدير ويدخلنا جوه العائلي. كان يضحك من محاولات شيرين

وجنان التحدث باللهجة اللبنانية الممزوجة باللغة الإنكليزية واللهجة العراقية كان يداعبهم ويسعد بلقائهم. حينما نزوره نقضي اليوم بكامله معه ومع عائلته. كان يسعد معنا كثيراً على حد قول "ام عمر". اما صالوني الفكري فقد كان مطعم فيصل ورواده من التقدميين العرب باطيافهم الفكرية كلها منهم الاخ حنا بطاطو الفلسطيني المنبت كذلك المفكر والمحلل للتراث الإسلامي يوسف إبش السوري الميلاد والكردي الأصول وكذلك الاخ الشاعر التقدمي والقومي السوري الهوى واللبناني المنبع خليل حاوي، وهم جميعهم أساتذة في الجامعة الامريكية. كنا قريبين من بعض ونلتقي باستمرار مع أنه لكل منهم ميوله واراؤه الخاصة. كنت استمتع بآرائهم وشخصياتهم العلمية واعد نفسي قريباً ان لم اكن صديقاً لهم وقد تداخلت علاقاتنا العائلية أيضاً وأني لأسعد بلقائهم وهم يظهرون اعتزازهم بي ويبادلوني المشاعر نفسها.

نلتقي في مطعم فيصل في الأقل مرتين بالأسبوع على مائدة الغداء او نادي أساتذة الجامعة الامريكية، نتبادل اطراف الاحاديث في مواضيع معظمها فكرية وعلمية وفي اغلب الأحيان سياسية. كان عالم السبعينيات السياسي عالم المتغيرات والمعالم الغامضة، نغوص في أعماق بحره ونحاول تحليله وفهمه.

كانت لي قصة مع شاعرنا الفذ واستاذ النقد في الجامعة الامريكية خليل حاوي الذي التزم فكرياً بخط القوميين السوريين على ما اعتقد. لم ألتقي خليل شخصياً. ويوما كان صديقي المفكر اللبناني ذو الشخصية الفذة منح الصلح يجلس للغداء مع رجل لم اره من قبل. تحدثنا عن الفكر العربي وهنا هاجم خليل صديقي واستاذي محسن مهدي من جامعة شيكاغو. انبريت للدفاع عن محسن وبصورة عاطفية مشفوعة بأدلة علمية لدحض تقييم هذا الرجل لمحسن مما دفع صديقي المضيف منح الصلح لتغيير الحديث بلطف ولكنه بإصرار. ومن لا يعرف منح الصلح الشخصية الأدبية السياسية اللبنانية الذي كان يسكن في شقة على ما أتذكر تبعد خطوات من "مطعم فيصل" وهو لولب الكثير من الحركات السياسية على الرغم من عدم انتمائه الى أي منها لكنه قريب منها وهو معروف بهدوئه وصراحته وله أسلوبه الخاص في الحديث فهو يرمي درراً من النصائح ونتفاً من المقولات الصغيرة وكانت دوماً تنقش

في ذاكرة المستمع. كان محبوباً وحلو الحديث. وحينما خرج الرجل طلبت من منح ان يعرفني على خليل حاوي بعد ان قرأت قصيدته الرائعة "يا مجوس الشرق" على أوضاع القيادات العربية بعد حرب 1967 وما كان من منح بعد ان حك شفته وقال: هذا هو الرجل الذي اشبعته ركلاً عراقياً وأشار الى خليل الذي كان في طريقه لمغادرة المقهى. ركضت نحوه وقبلته واعترفت بحماقتي وقلت له بأني سالت منح ليعرفني بشخصك وامل ان تقبل اعتذاري والذي اريد "ان اسحبه بقوة الف حصان". رد بلطف وقبلني وعاد يتقبل شرب القهوة معنا بعد ان قطع لقاءه مع الاخ منح. كانت تلك بداية صداقة وود لأعوام مع خليل حاوي حتى انتحاره رحمه الله احتجاجا على احتلال اسرائيل لبيروت عام 1982. كان انساناً كاملاً مثقفاً واديباً له مزاجه الخاص ولم يتزعزع التزامه الفكري والخلقي حتى مماته. ترك في نفسي كبيرالاثر لا سيما طريقة مفارقته هذا العالم وكأنه أراد ان يصدر حكماً على عالمنا وساسته بطريقة مغادرته لنا. حزنت على وفاته وافتقدت علمه وشخصه ونبله.

كنت اقضي المساء في مقهى اخر وهو "الدويتشة فيتا" البعيد عن الجامعة ويقع في منطقة "الروشة"، وذلك بعد التأكد من تدبير وجبة العشاء للعائلة اما في المطاعم القريبة من الجامعة وعلى راسها "مطعم سقراط "او "مطعم العجمي "المشهور بمشوياته اللبنانية والذي يقع على بداية شارع الحمراء او ان تقوم محبوبة بأعداد العشاء لهم بينما نلتقي نحن الرجال كالعادة، فبلند له ضيوفه القادمون من العراق وغالباً يكون معنا شاعر العرب المجدد نزار قباني وقد أضيف الى تلك الحلقة الكاتب السوري أستاذ الفلسفة في الجامعة الامريكية صادق العظم الذي كانت لنا قصة معه أدت الى صداقة استمرت حتى وفاته فقد بدا نقاش اكاديمي وتطور الى حوار عربي مشوب بعاطفة حب وولاء لثورة 23 يوليو والمصائب التي حلت بالوطن بعد نكسة حزيران عام 1967. فقد أصدرت مجلة "مواقف "الفكرية الذي كان برأس تحريرها الشاعر الموهوب "ادونيس"، عددا خاصا فيه مقالة رائعة لأستاذ الفلسفة في جامعة توليدو بولاية اوهايو "نديم البيطار" العربي النزعة والإخلاص بعنوان "نحو ثورة 23 يوليو" -على ما أتذكر- طالب فيها نديم البيطار الالتفاف حول ثورة جمال عبد الناصر وقيادته لتلافي ما حصل!. انبرى وبكل قساوة اخي وصديقي صادق العظم

وبحسه الفلسفي وقساوته اليسارية بالانتفاض على مقالة نديم البيطار بالتهكم وبالتحريض!، كما كانت سجالات ذلك الزمان السياسية بعد نكبة العرب الثانية. شعرت بألم وانا اقرا ذلك الهجوم فاني لم اكن اعرف البيطار شخصياً لكني قرأت له الكثير أيام مراهقتي السياسية والفكرية. كان الرجل من المؤمنين الأوائل بالقضية القومية يوم كان طالباً (وهو ليس من عائلة البيطار المسلمة في سوريا وانما من عائلة مسيحية المذهب وعلى ما اعتقد من لبنان). شعرت ايضا بالتجاوز على هذا الرجل الذي مارس التزامه القومي وخدم في العراق في اثناء حركة 1 مايس 1941 ايماناً منه بأنها من أوائل الحركات القومية. كتب الكثير من الكتب والمقالات العميقة في تحليل القومية العربية. كان قومياً في القول والفعل ولم أرى سبباً للأخ صادق ان يكون بهذه القساوة . كنت دوماً اشعر بضرورة تقدير هؤلاء المثقفين الذين بنوا الفكر العربي على الرغم من اني لا اتفق معه وليس من حقنا ان نكيل لهم التهم ونعتدي على كراماتهم لانهم بلغوا من العمر عتياً!. كتبت رداً على العظم ثائراً لكرامة البيطار مقالاً طويلاً ومعمقاً وكان بقساوة العظم نفسه والذي كان في قمة نشاطه الفكري على الساحة التنويرية في ذلك الوقت بعد صدور كتابه الرائع "نقد الفكر الديني". جاء رد العظم على مقالتي هذه واراء البيطار مع الهجوم على الصحفي المصري والمثقف المعروف الذي يعد صوت عبد الناصر "محمد حسنين هيكل" صاحب الاهرام في كتابه الموسوم "دراسات يسارية "الذي نشرته دار الطليعة المشهورة آنذاك في بيروت. بطيبة وخلق حنا بطاطو الذي يكبرنا سناً ونكن له نحن الاثنان احتراماً خاصاً، طلب منا بصوته الخافت وحلاوة نبرته الهادئة ان نصفي الجو بيننا وتعود مياه صداقتنا الى مجاريها فاستجبنا نحن الاثنين وكانت نصيحة بطاطو لنا ان نكون "اقل حماسة "في نقاشنا " وان قدم الشباب "الفكري يجب ان يستمر في جسم الفكر القديم لتجديده على حد قوله. كنا صديقين حميمين وكان من رواد مطعم فيصل ودويتشا فيتا. وقد وجد بطاطو مثلي في حلقة بلند راحة اكثر وكان يقدر ويثمن المثقفين العراقيين ويعد بغداد وطنه بعد نكبة أهله. كانت أيام بيروت رائعة، فأنها تعطيني ما يدور في الساحة العربية السياسية والفكرية والتي انا بحاجة اليها في غربتي على الرغم من أن الجامعة الاميريكية في بيروت تحمل اسماً كريهاً إلا انها استقطبت الكثير من اعلام الفكر

التقدمي والقومي وحتى اليساري فقد كانت واحة فكرية في صحراء العرب العلمية.

كنت اعد العدة لقضاء العام الدراسي 1973-1974 في الجامعة الامريكية في القاهرة والتي سعى بها احد الاصدقاء من اساتذتها السابقين الذي كان يعمل معي في جامعة شرق واشنطن من اليساريين الامريكين حينما التقيت بوالدي (عاد والدي مع اولادي وزوجتي الى بيروت لقضاء فصل الصيف معنا كما كنا نفعل بعد لقائنا الأول قبل اربع سنوات) وسألني: لماذا لا افكر بقضاء العام القادم في بغداد لاسيما وانه تأكد بأن النظام البعثي الجديد ليس له عليَّ أي ثأر، فقد استخلص الوالد بأن محاولة ناظم كزار للإطاحة بالبكر أنستهم كل شيء الا القصاص من اعدائهم الجدد في حزبهم. قال بأنه سيقوم بالاستفسار أولاً من أصدقائه العاملين في دوائر الجنسية والامن عن إمكانية إعادة جواز سفري المسحوب. استنتج الوالد بان ذلك ممكناً وطلب مني تقديم طلب رسمي الى السفارة العراقية في بيروت اشفع معه جوازي العراقي الملغي الذي صدر قبل اكثر من عشر سنوات. اتصل السفير بي شخصياً طالباً احضار الصور وأعاد لي جوازاً جديداً كما انه اصدر سمات دخول جديدة لزوجتي وبناتي، وصل بيروت أيضاً صديق عزيز هو الدكتور هشام الشاوي تواصلت معه حينما كان عضواً في الوفد العراقي للجنة حقوق الانسان في الأمم المتحدة فضلاً عن انه عميد كلية العلوم السياسية والقانون في الجامعة المستنصرية الذي استوزر حديثاً لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي والظاهر انه هو من حث السفير في الأقل على تشجيعي لزيارة بغداد بدعوة من كلية القانون والعلوم السياسية في جامعة بغداد. عندما التقينا على الغداء مصادفة في مطعم فيصل شجعني الشاوي على ان احمل الفكرة على محمل الجد لاسيما وان الوضع الان تغير فان الزمرة الجديدة التي تسيطر على مقاليد الحكم تحاول جذب المستقلين والاكفاء وأكد بانه ليس بعثياً ولن يكون منهم مهما كانت الظروف. وطلب مني اعطاءه طلباً بقضاء فترة التفرغ العلمي للعام القادم في جامعة بغداد واتفقنا على ان أُدرس أنا وزوجتي العرض المقدم على ان يتولى هو تعقيب ومتابعة الطلب.

ذهبت الى القاهرة لمقابلة نائب رئيس الجامعة للشؤون الإدارية في الجامعة الامريكية. حينما علم بأني ما زلت احمل الجنسية العراقية وليست الكندية فأني سأعامل

كما يعامل المصريون إلا في الراتب حيث سأعامل كما يعامل الأساتذة الأمريكان كذلك الإقامة وبدل بطاقات السفر ولكن ليس فيما يتعلق بدفع الأجور الدراسية لأولادي في المدارس الامريكية الخاصة فعددت ذلك اخلالاً بتعهدهم المبرم معي.

بعد نحو شهر اتصل بي السفير العراقي في بيروت وأعلمني بأن وزارة التعليم تدعونني لقضاء مدة تفرغي العلمي في كلية القانون والعلوم السياسية في جامعة بغداد وطلبت وزارة التعليم العالي من السفارة تسهيل مهمة سفرنا الى بغداد. كان الوالد قد ذهب الى بغداد وعاد ولديه انطباعاً ايجابياً مشجعاً لي على اتخاذ تلك الخطوة وأبدى سعادته بذلك. بدأت اشعر بان الوالد والوالدة قد بدأت الشيخوخة تأخذ طريقها اليهما وكان الوالد بصورة خاصة يزداد تعلقه بأولادي وبروز المشكلة مع الجامعة الامريكية في القاهرة وزيادة شوقي وحنيني الى أصدقاء الطفولة في بغداد وما تحمله مخيلتي عن بغداد وتشجيع جاكلين لان يتعرف الأولاد على اهليهم في بغداد وعلى مدينتي المحببة. توكلنا على الله وكتبت رسالة الى الجامعة الأمريكية ابلغتهم بعدم مجيئي لعدم ايفائهم بعقدهم معي.

بدأنا نعد العدة للذهاب الى بغداد. ارسلت الأولاد مع الوالد في الطائرة وانطلقنا انا وجاكلين بعد ان اشترينا سيارة وشحنا بعض الأدوات المنزلية الكهربائية الحديثة التي لم تكن متوافرة في بغداد في ذلك الحين وشددنا الرحال الى سوريا وبقينا هناك أسبوعين للسياحة والاستجمام لحين وصول السيارة الفيات التي استوردناها من إيطاليا. بعد اجراء المعاملات التي قام بها مخرج كمركي متمرس في دمشق غادرنا براً الى بغداد ووصلناها على ما أتذكر في الأسبوع الثاني من أيلول عن طريق الرطبة - دمشق. كانت إجراءات الدخول متعبة وسقيمة. بدأ الموظف على الحدود بتفتيش سجلات المنع من السفر والتحري عن مصادرة املاكي وتجميدها كذلك رصيدي في البنوك. لحسن الحظ كان الموظف طيباً - وأراد مداعبتي فقال: (دكتور لازم انت جيفارا!!). ضحكت انا وشكرته على تعاطفه معي حيث أحببت لقاءه واجبت قائلاً: لم تكن عندي أملاك ولم اكن أتصور بان لدي رصيد في أي من حساباتي لكن همة دكتور هشام الشاوي وزير التعليم العالي ومتابعته للموضوع انهت المتطلبات الرسمية

كلها والغى الوالد كل اوامر المنع فهو ما يزال يعرف دهاليز الدولة العراقية وزوايا بيروقراطيتها.

لم يكن الموظف على ما يظهر مستقلاً او يسارياً، إلا أنه قام بواجبه بنوع من الاحترام وقدم الماء البارد وعرض علينا الشاي واقترح علي ان لا اذهب سياقة الى بغداد الليلة فالحيوانات البرية الصحراوية لاسيما الابل السائبة تنتشر في الطرقات وقد تفترش اسفلت الطرق ونصحنا بمحاولة إيجاد مضجع لهذه الليلة وأقترح المبيت في نادي مصلحة المصايف في الرطبة. كانت السيارات العائدة الى البلد مزدحمة على أبواب الجمارك وبعد انتظار لأكثر من ساعة جاء الموظف الذي كانت علامات التعب بادية على محياه وطلب مني افراغ حمولة السيارة على قارعة الطريق المقابل لموقعه وهنا، عيل صبري وناديت على رجل كان يقوم بالتفتيش من الموظفين تبدو عليه علامات الأهمية البيروقراطية وحاولت بأدب لكن بحزم بأن اعلمه بأن هذا الطلب من الموظف غير مقبول وبينت له بأني لم اكن أتصور باني اتلقى هذه المعاملة من أبناء بلدي بعد غياب خمسة عشر عاماً. كانت اوداجه منتفخة - نوعاً ما - وطلب مني الكتاب الرسمي الموجه من وزارة التعليم العالي بدعوتي والذي قدمته للموظف ولما قرأه، تغيرت لهجته في معاملتي وقام هو بنفسه بفحص المحتويات بنظرات غير جدية وسألني اذا كان أي شيء اريد ان أقوم بإعلانه لدائرة الجمارك فقلت له بان لدي الة طابعة إنكليزية استعملها في بحوثي ومراسلاتي الأجنبية فطلب مني بكل لطف ان اذهب معه الى الموظف المختص ليزودني بكتاب الى مديرية امن بغداد لفحص الالة وإصدار الترخيص اللازم لها كما جرت العادة وقال بأدب انه سوف لن يأخذ الطابعة مني بل رجاني أن اخذها مع الكتاب لإتمام المعاملات في الدائرة المختصة او ان تقوم وزارة التعليم بهذه المهمة.

غادرت دائرة الجمارك وذهبت الى دار الضيافة وانا في غاية التعب وما ان جاء الموظف المختص حتى قال بان اخر غرفة لديه هي بحاجة الى التنظيف والتنظيم وقد يحتاج ذلك ساعة في الأقل. تبرع ضابط برتبه كبيرة كان جالساً مع مجموعة من الضباط بغرفته وقال بأنه ما يزال متسامراً مع زملائه ولم يذهب او ينقل امتعته

من سيارته بعد ونادى احد الجنود وطلب منه مساعدتنا لنقل امتعتنا وشكرته على ضيافته. نادى الموظف مسؤول الطبخ الذي اعلن بان المطبخ مغلق منذ ساعة وليس لديهم أي طعام. أنبرى احد الجالسين من الضباط متبرعاً بعشائه الذي حجزه قبل ساعتين وتبعه اخر متبرعاً بعشائه للزوجة بعد ان علموا بأن هذه هي الزيارة الأولى للوطن بعد خمسة عشر عاماً!. في اليوم التالي نزلت لدفع فاتورة العشاء وأجرة الغرفة واتضح بان الآمر العسكري قد دفع ايجار غرفتنا التي كان قد حجزها لنفسه وعاد الى المعسكر مع ضباطه لينام في غرفة مكتبه وكذلك الضباط الذين تبرعوا بعشائهم لنا دفعوا حسابنا أيضاً. يالروعة الكرم العراقي والشهامة العراقية والعربية واية مقدمة لي ولزوجتي عن أهلي العراقيين الطيبين.

لم اكن اعرف اسم أي احد منهم ولم اسأل عن اسمائهم. بعد مغادرتي وحين لقائي الاول بصديقي هشام الشاوي بينت له ما حصل فالظاهر انه طرح الموضوع على وزير الدفاع قبل اجتماع مجلس الوزراء الذي وافق حصوله بعد ساعة من روايتي له تلك الحادثة، فهزت تلك مشاعر الوزير فتعقب الموضوع واستطاع معرفة أسماء الضباط وآمرهم فكتب لهم شاكراً للأخلاق العسكرية التي يفتخر بها الجيش العراقي!.

وصلت اطراف بغداد وكانت الشوارع خالية الا من سيارات النجدة وسيارات مرسيدس سوداء اتضح لي بأنها سيارات المخابرات ودوائر الامن، كانت سيارتي من دون رقم لأني سجلت دخولها رسمياً في الحدود على ان أقوم بالإجراءات الرسمية حال وصولي الى بغداد. باقل من دقائق احاطت سيارتي عدد من تلك السيارات وترجل شخص تبدو عليه علامات الصرامة وطلب هويتي ولما كنت لا املك هوية عراقية أبرزت له الجواز العراقي مع هويتي الجامعية الكندية وحينما تأكد من اني لا أعلم ما يحدث، أوضح لي بأن بغداد في حالة نفير ومنع تجوال طوال اليوم. سألني الى اين أنت ذاهب فقلت له الى مدينة الشرطة واعطيته رقم دار اهلي فبينما اتحدث معه وسمح لي بالمغادرة فورا قلت له: شكراً أيها الأخ ولكن هل لك ان تصف لي اين هي مدينة الشرطة وكيف اصل اليها؟. استغرب من سؤالي هذا ولما أوضحت له: بان مدينة الشرطة الأولى ولا التي بعدها كانت غير موجودة يوم غادرت البلد قبل

نحو خمسة عشر سنة. فضحك وقال انه كان في المدرسة الثانوية حينئذ. طلب مني ان أسأل ضابط شرطة النجدة الذي كان يستمع اليه موعزاً اليه بقيادتي الى دار اهلي وعندما اعطيته اسم والدي... تهلل وجهه وقال انه عمل مع والدي في بداية عمله حال تخرجه من كلية الشرطة ويكن له الاحترام البالغ ويعرف اين يقع دار سكناه. قادني اليه وهكذا وصلنا الى دار الوالد.

كانت شيرين وجنان قد تأقلمتا على جو العائلة فقد سجلهما الوالد في المدرسة الاهلية "نجمة الصبح "وبدأن بالدوام الرسمي قبل أسبوعين ويبدو انهما سعيدتان في مدرستهما الجديدة على الرغم من غرابة كل شيء عليهما وعلى حياتهما في كندا او بيروت. بدأت شيرين في الصف الثاني الابتدائي بينما بدأت جنان في صفها الأول. بعد يومين ذهبت الى وزارة التعليم العالي وقابلت الوزير ورحب بي كثيراً واعطاني الخيار فيما اريد ان انتسب الى مركز دراسات او التدريس في الكلية. نادى على مدير عام شؤون الانسانيات في الوزارة وكان همي هو ان لا اعين اكثر من عشرة شهور حتى لا أُخالف قواعد جامعتي وان لا يزيد راتبي الذي اتقاضاه عن عشرين بالمائة عن راتبي في جامعة كالكري.

لم تكن هذه مشكلة ابداً فأن بيروقراطية الوزارة قررت بأن راتبي لا يزيد عن السبعين دينارا تضاف اليه المخصصات فيبلغ (141) دينار بالكمال والتمام وهو اقل من عشرين بالمائة عن راتبي التي تحوله لي جامعة كالكري الى بغداد شهرياً. كانت دائرة الرقابة البريدية تحيل راتبي من جامعة كالكري الى شعبة التحويل الخارجية في البنك المركزي ولدى مراجعتي للبنك يعطوني رقماً ويعلموني بالمراجعة حال صرف الصك لاستلامه. تستغرق هذه العملية اكثر من شهرين!!. تحدثت عن مشكلة الراتب مع صديقي وزميلي الدكتور باسل البستاني الذي عاد لتوه من واشنطن حيث عمل في البنك الدولي بعد انهاء دراسة الدكتوراه في الجامعة الامريكية فرتب لي لقاءً مع مدير التحويل الخارجي الذي ذلل المشكلة بعد اخذ موافقة الجهات العليا. منذ ذلك اليوم حتى نهاية فترة تفرغي وانا استلم راتبي حال وصول الصك الي وبالبريد المسجل واستطعت ان أعيش عيشة ممتازة من راتبي الذي كان اضعاف راتب الوزير الذي لم

يزد مع مخصصاته كلها على الالف دولار بالسعر الرسمي!.

التحقت بكلية القانون والعلوم السياسية وكانت رغبة الكلية ان ادرس مادة العلاقات الدولية لطلبة كلية القانون وكلية العلوم السياسية. كنت أقوم بإلقاء محاضراتي باللغة العربية الفصحى التي أجيدها وابحث في محتوياتها بالجدية نفسها التي اتبعها في جامعة كالكري واحث الطلاب بعد القاء المحاضرة على طرح الأسئلة ومناقشة ما ورد فيها من اراء حتى وان كانت مخالفة لما طرحت من افكار. رفع احد التلاميذ صوته مستفسراً عن نقطة مهمة ركزت عليها وهي ان مصلحة الدول تملى بالدرجة الاولى باتجاه إنتاج سياستها الخارجية وان كل عمل تقوم به الدولة يجب ان ينصب بهذه المعادلة فكيف افسر المعاهدة العراقية -السوفياتية عام 1972؟ قمت بالتحليل العلمي وسقت عليه البراهين وخلصت بأن الاتحاد السوفيتي ومصلحته هي التي انتجت هذه المعاهدة. اتضح بعدها ان السائل هو عقيد سابق في الجيش السوري وهو يعمل الان في القيادة القومية في العراق وكتب تقريراً بأني استنتجت ما نصه: العراق يدور في فلك الاتحاد السوفيتي وانه طبيعي حتى وان كان انتقاصاً من السيادة العراقية!. في نفس تلك الليلة جاء الى دار الوالد من يطلب مني مقابلة المسؤول عن الجامعات العراقية في مجلس قيادة الثورة ولكن والدي وبذكائه المعهود وخبرته اخبرهم بأني في أربيل لزيارة اخوالي وأني سأعود بعد غد. نصحني والدي بالذهاب الى أربيل فوراً لتلافي اكتشاف العكس ولما سألت الوالد لماذا هذا الزوغان فأجاب: اذا اقتنعوا بذلك فمعناه ان الموضوع استفساراً ليس محسوما.

عندما عدت الى الكلية بعد يومين كانت في انتظاري سيارة سوداء اخذتني الى بناية المجلس الوطني وهناك مباشرة ادخلوني الى مكتب فسيح وقد سبقني اليه وزير التعليم العالي الدكتور هشام الشاوي. فجأة انفتح باب كبير خرج منه صدام حسين بشخصه وكان المسؤول عن المكتب الجامعي والثقافي في القيادة القطرية. وقف الوزير وانا معه احتراماً للقادم وكانت بيده مجموعة أوراق واضبارة كبيرة حيانا وصافحني أولاً ثم الوزير وبادر قائلاً: دكتور اني سمعت عن شخصيتك وعلمك وكنت اريد التعرف عليك وهذه فرصة جيدة لذلك. وحينما لفت انتباهه تلعثمي ممزوجاً بحيرتي وحتى ارتجاف فرائصي، وقبل ان اجيب قال: بان الدكتور هشام

أعلمني بمنزلتك العلمية وأنك فضلت العودة الى بغداد على التدريس في الجامعة الامريكية على الرغم من الفارق بالراتب وجمال بيروت وراحة العيش فيها فاني اقدر هذا واعتز به وأعلم انك تقدمي وغير منتم سياسياً ولكن اعرف تاريخك الوطني في العراق وفي المغترب وأضاف قائلاً: كنت اتوقعك ان تكون اصلعاً وشعرك ابيضاً وعمرك كبيراً لما سمعته عنك فشكرته وقلت له بنوع من الرهبة: ياسيادة النائب ارجو ان لا اخيب ظنك فان مجيئي الى بلدي لسبب رئيس وهو ان يرى اولادي وزوجتي باني "مو طالع من زرف الحايط" وان لي اهلاً ولي بلداً ولي فيه جذور. حينها لاحظت انبساط الوزير وقلت بان الدكتور هشام الشاوي كان له ضلع كبير في مجيئي الى هنا. لم يتطرق لأسباب دعوتي الى هنا الا في نهاية المقابلة وبإيماءة وليس بتساؤل فتقبل جوابي وسأل: هل لك ان توضح لي هل اننا اصبحنا ندور في فلك الاتحاد السوفياتي بعد معاهدة 1972؟ فقلت: سيسعد ذلك الاتحاد السوفياتي ان حصل وان لم يحصل فان الاتحاد يعرف ويتوقع أن حصول ذلك ليس ما ينوي هذا البلد قبوله فضحك وقال فوراً: انت دبلوماسي ممتاز وهنا عقبت وقلت: جئت لوطني فقط لأقدم لأولادي تراث وثقافة وطني واردت لهم ان يتعرفوا على اجدادهم ، والدي ووالدتي وكذلك ليرى والديَّ اطفالي وزوجتي!. جئت لأسمع المقام واتذوق كباب بغداد وباچتها وليس في نيتي تحدي احد او خلق مشاكل لنفسي ولعائلتي وليس في نيتي إلا تقديم الخدمة لبلدي في حقلي الاكاديمي وانا لا اعرف المجاملات ولا حتى التصرف المتوقع و"كلايش" "التعايش الاجتماعي"!!. قاطعني قائلاً: يا دكتور البلد فيه الكثير من المشاكل المتراكمة والحسد والنفاق طبيعي في هذه الظروف ولكني أتوقع من عالم مثلك ان يفقه هذه الأمور اكثر منا. واردف قائلاً: أن وجود الوزير معنا جاء بناءً على إصراره حضور هذه المقابلة التي اردتها ان تكون غير رسمية ولا ادري لماذا إصراره فقد ينورنا الان عن أسباب ذلك؟. تلعثم هشام وجمع فقهه ولغته وروعتها فقال: ان طارق لا يعرف كل ما حصل عن تعيينه في الجامعة وانك انت الذي منحتني الصلاحيات كلها للمساعدة في اجتذابه الى جامعتنا وهنا قاطعه صدام قائلاً: "اعتقد انك لا تقدر نباهة الدكتور طارق فهو -مفتح باللبن- ويعرف جيداً كيف يتصرف في الحالات كلها وانا اردت ان أؤكد لكما باني اود ان اجعل زيارته لبلده ناجحة وبداية لالتزامه بجامعتنا التي هي بحاجة

الى تطويركما". واردف صدام مخاطبا الشاوي: "انت تقول دائماً أن تلقيح الجامعة بآراء جديدة وطرائق حديثة مهما لنا جميعاً". قال صدام قبل انصرافه "بأن أستعين بالوزير مباشرة لتسهيل العقبات التي قد تواجهني بضمنها موضوع صرف راتبك من جامعتك في البنك المركزي"!، فقد أباح هذا الثعلب بصورة مباشرة إني مراقب ويعرفون كل شيء عني حتى صغائر الأمور تصل الى مكتبه!، وانه الآمر الناهي في كل صغيرة وكبيرة. فهمت جيداً غرضه والحر تكفيه الإشارة كما يقولون.

لم اشرب الشاي الذي قدمه لنا مكتب صدام فاني سمعت الكثير عن من يشربه من زائريه!!. لحظ أبو الحكم ذلك وابتسمنا نحن الاثنان. اسر لي أبو الحكم لاحقاً سبب إصراره على حضور المقابلة فقد نمى الى علمه بالتقرير المرفوع من ذلك الطالب الى مخابرات القيادة لهذا وصل متأبطاً اضبارتي الشخصية التي قدمها الى صدام قبل المقابلة! وارفقها بتوصية عني.

كان هشام عزيز النفس قوي الشكيمة يحترم نفسه. توثقت علاقتي به اكثر واكثر حينما جاء سفيراً الى كندا. كنت من القلائل الذين عرفوا بقراره في الاستقالة من السفارة بعد غزو الكويت لأنه وجد ذلك متعارضاً مع التزامه القومي وفكره السياسي. وقد اتخذ القرار وكنت معه قبل شهر من اعلانه. كان الرجل في غاية الألم والالتزام فضلاً عن شرف رسالته القومية التي آمن بها. كان أبو الحكم انساناً كريماً وابناً باراً لبلده. وكان فوق المنافع الشخصية لا يعرف الدجل ولا يقبل المراوغة!. رحم الله أبا الحكم الطيب النبيل والرجل الرجل.

عودة الى الروتين الحكومي، فقد أصدرت وزارة التعليم العالي امراً بتعييني أستاذاً مشاركاً في كلية القانون والعلوم السياسية وكانت تلك مرتبتي العلمية قبل بداية تفرغي العلمي وقد رقيت في جامعتي الكندية الى درجة الاستاذية بعد استئناف تفرغي العلمي ولكن البيروقراطية ابت إلا ان أُعين بالدرجة المنخفضة بجامعة بغداد. وعندما صدر الامر الوزاري بتعييني عشرة اشهر فقط افتى مستشار وزارة المالية القانوني بعدم إمكانية تعييني موظفاً لتلك المدة فالروتين يقضي بتعييني موظفاً تحت التجربة لمدة عام واما تعييني بعقد لمدة عشرة شهور فهذا يعني "تعاقداً" والقانون يؤكد عدم إمكانية التعاقد مع العراقيين. وهكذا بدأت وزارة المالية تستقطع قسطاً

تقاعدياً من راتبي على الرغم من اني لم أكن موظفاً. واستمر سيل كتبها الى وزارة التعليم العالي حتى مغادرتي العراق. والادهى من ذلك كله هو حذف مديرية السفر والجنسية من جواز سفري كندا والدول الأوروبية من الدول المسموح زيارتها لأنها مقاطعة بعد حرب عام 1967 بعدما طلبت وزارة التعليم العالي تسهيل مهمة سفري الى مقر عملي في جامعة كالكري بكندا!.

بعد عودتنا من بغداد عام 1974 قررت جاكلين العودة لاكمال دراستها ولكون درجاتها عالية فقد تم قبولها لدراسة الماجستير في قسم الاجتماع - جامعة كالكري وتخرجت منها بدرجة الشرف الاولى. قبلت بعدها مباشرة في جامعة البرتا لاكمال دراسة الدكتوراه والتي تقع في مدينة ادمنتون التي تبعد عن كالكري مسافة 180 كيلومتر. قررنا - حينها - نقل العائلة الى مدينة ادمنتون وانا اتنقل مابين ادمنتون وجامعة كالكري كل ثلاثة ايام. أكملت جاكلين متطلبات شهادة الدكتوراه عام 1978 في مجال علم الاجتماع السياسي وكانت اطروحتها عن "سياسة التغير الاجتماعي في الكويت" ونشرت الاطروحة من قبل جامعة سركيوس الامريكية وأعيد طباعتها عام 1994 منقحة من قبل جامعة فلوريدا واصبحت الرسالة من المصادر الرئيسة في الدراسة عن منطقة الخليج. التحقت بعدها كأستاذة مساعدة في السياسات الاجتماعية في كلية الشؤون الاجتماعية في جامعة كالكري وبذلك اصبحت هذه المدينة وجامعتها قاعدة ثابتة في حياتنا العلمية والعائلية.

كان الوالد والوالدة يزوراني بين الحين والاخر في كندا. وعندما حل عام1985-1986 الدراسي قررت قضاء تفرغي الدراسي في الجامعة الامريكية في القاهرة التي سعى صديقي القديم الدكتور وليد قزيهة الذي كان يعمل هناك رئيساً لقسم العلوم السياسية فيها لترتيب تعييني وزوجتي التي تتمتع ايضا بدرجة الاستاذية في جامعة كالكري في السياسات الاجتماعية هناك. أما اولادنا فقد استطاعت جنان وكذلك شيرين قضاء سنة واحدة في الجامعة الامريكية بالقاهرة معنا بموافقة جامعاتهم المسبقة بنقل الدروس التي سيدرسونها في الجامعة الاميريكية الى ما يعادلها في برنامج جامعاتهم. اشرف صديق العمر وليد على ترتيب كل الأمور لتغدو تلك السنة الدراسية من أروع تجاربنا في المنطقة العربية. وكنا قد قررنا ان يعمل واحد منا فقط

حيث ان هذا كاف لتمتعنا بحقوق السكن ودفع الأجور الدراسية لأولادنا. وكنت انا المتبرع بينما قضت زوجتي تفرغها العلمي مركزة على تعلم اللغة العربية.

عاملتني كندا بكل احترام واعطتني حقوقي كلها فضلاً عن ذلك ان مجلس البحوث الكندي للعلوم الإنسانية والاجتماعية (Social Sciences and Humanities Research Council of Canada) مول من دون قيد او شرط بحوثي وكتبي كلها لمدة تزيد على الخمسين عاماً وكل انتاجي العلمي تقدمي ويساري. ولم يتوقف المجلس عن التمويل لأن تقييم تلك البحوث يجري باستقلالية تامة ومعايير علمية صرفة. كما حصلت من جامعتي على اعلى الجوائز التدريسية والبحثية على نطاق الجامعة نفسها او كليتي. اشعر باحترام كامل لهذا البلد ولكني لم اتنازل عن المطالبة بحقوق بلدي واني لم أحاول في تدريسي الجامعي الا ابداء رأيي العلمي من دون خوف او وجل. ولم يحاول احد الانتقاص من حقوقي او تحدي كرامتي.

حينما حل العام الدراسي 1990-1991 حصلنا أنا وزوجتي جاكلين على تفرغ دراسي لعام كامل وقبلنا موعداً لزيارة جامعة الامارات العربية الفتية قبل البت في قبول عرضها لرئاستي قسم العلوم السياسية وعمل زوجتي كأستاذة باحثة في مركز البحوث الاجتماعية مدة تفرغنا العلمي. بعد تلك الزيارة قبلنا العرض وكانت تجربتنا ناجحة جداً لدرجة اني قبلت عمادة الدراسات الدراسة العليا وقمت بتنظيم البحث العلمي لها في العام التالي.

قررت العودة الى جامعتي لاسيما ان زوجتي لم تكن تعتقد ان بأماكنها العيش في هذا البلد الغني وأهله الطيبين. كانت تخاف ان استأنس بالجو العام ويدفعني ذلك بالبقاء لمدة اكثر ولاسيما ان أمر تعيني لم يحدد له سقفا زمنيا، لذا صممت هي على العودة بعد عام واحد فقط بينما استمريت انا بالعمل بجامعة الامارات لعام اخر.

غادرت الامارات وانا الهج بالثناء على هذا البلد وأهله وبقيت لهذه الساعة. من احد الأمثلة هي العلاقة الشخصية التي تعدت الى صداقة حميمة مع زميلي الدكتور علي الشرهان الذي كان عميداً في تلك المدة وغدا بعدها وزيراً للتعليم في بلده لمدة سبعة أعوام. وهو من العقول النيرة في الجامعة وبعد ذلك في الوزارة. نكاد نراه ويرانا سنوياً في العطلة الصيفية وزادت تلك الروابط حينما قرر شراء شقة في قلب كالكري

وبهذا ازداد قربنا وهو نافذتي الوحيدة على العالم العربي الكبير، فضلاً عن صديق العمر الدكتور وليد قزيهه الأستاذ في قسم العلوم السياسية بالجامعة الاميريكية بالقاهرة الذي تربطني به علاقات فكر وزمالة حتى غدا جزءاً من حياتي في تشعباتها كلها، كما انه اتخذ من كندا وطناً له بعد الحرب اللبنانية التي حطمت لحمة شعبه الاجتماعية والنفسية. ومن حسن حظي ان اراه كل صيف في مدينتي كالكري التي احتضنته وقسم العلوم السياسية في جامعتي الذي تبناه. وقد ساهم في بناء القسم بتدريسه موضوعات عن المنطقة العربية. وحينما دعتنا أنا وجاكلين جامعة (University Eastern Mediterranean) في قبرص التركية عام 1997 لقضاء تفرغنا العلمي فيها للسنة اللاحقة سررنا بذلك.

كانت الجامعة حديثة المباني وقد اجتذبت الكثير من الأساتذة والطلاب من انحاء العالم كله وكانت هيئتها الإدارية اقرب منها الى العقلية الاكاديمية الأوروبية منها الى الشرقية ولكن تراثها وطبيعة أهلها وخلقهم العام وحتى بنيتها الاجتماعية كانت اقرب منها الى لبنان وسوريا والعراق قبل تفشي الانحلال السياسي والاجتماعي الذي حل بالمنطقة في تسعينيات القرن الماضي. اجتذبتني تلك الحياة وتلك الجامعة وشدتني لها قرابة عشرين عاماً. لقد كانت الجامعة تفهم ظروفي العملية والعلمية وكيفت قوانينها الجامعية وانظمتها الإدارية كلها لتسهيل مهمة القيام ببناء قسم العلاقات الدولية الذي كلفتني الجامعة بتطويره دون ترك وظائفنا الجامعية في كندا. وبالفعل أنشأت المركز الدولي لدراسات الشرق الأوسط المعاصرة:

(International Center for Contemporary Middle East Studies)

وجندت لهيئته الإدارية أهم الشخصيات العلمية المعروفة دولياً والتي لها تعاطف مع المنطقة العربية ومشاكلها ولكن بعلمية والتزام اكاديميين. كنا نقيم مؤتمراً دولياً كل عامين للتعامل مع المشاكل الدولية التي تتعلق بالمنطقة ولأكثر من عشرين عاماً. كان للمركز فرع دولي في جامعة كالكري في كندا حتى تقرر عام 2016 نقل المركز الى مدينة (Victoria) مع مساندة جامعتها وتحت مظلة المركز العالمي للدراسات (Center for Global Studies) فيها.

عند وقوع الاحتلال الأمريكي للعراق في نيسان عام 2003 كان ذلك في اثناء

انعقاد مؤتمر المركز السابع وقرر المجتمعون انشاء الرابطة الدولية لدراسات العراق المعاصرة. غرضها الرئيس تثقيف المجتمع الاكاديمي بصورة خاصة واطلاعه على مشاكل العراق المعاصر لاسيما مشاكله السياسية والاجتماعية والعامل الدولي في خلق هذه المشاكل وتبيان الظروف الدولية والمناطقية التي انتجت حالة العراق المعاصر التي مهدت لها القوة الدولية العظمى وانتهت بانتهاء سيادته وانتهاك حرمة كيانه.

أجمعت الهيئة المؤسسة لتلك الجمعية في لندن شتاء عام 2004 والمؤلفة من:

1 - كامل مهدي أستاذ دراسات الشرق الأوسط في اكستر البريطانية ((**University of Exeter**) (**Trinity College USA**).

2 - أستاذ العلاقات الدولية ومدير الكلية السابق (**Raymolld Baker**).

3- مدير مركز بحوث العالم العربي (**Guenter Meyer**) في جامعةماينز بألمانيا (Mainz).

4- الأستاذة هيفاء زنكنة الناشطة الوطنية والروائية المعروفة التي تتخذ من لندن مقرا لها بعد خروجها من سجن البعث عام 1971.

5- جاكلين إسماعيل أستاذة السياسات الاجتماعية ومدير الدراسات الاجتماعية الدولية في جامعة كالكري بكندا.

6- كاتب هذه السطور.

اجتمعنا في لندن لإرساء الأسس لعقد المؤتمر الأول للجمعية في صيف عام 2005 وحضرته اكثر من مائة شخصية علمية وقد رعت المؤتمر جامعة شرق لندن البريطانية واستمر لأربعة أيام. كان قرارنا الأول اصدار مجلة علمية تتبنى نشر البحوث الاكاديمية وتحظى باحترام الجهات الاكاديمية. وهكذا ولدت في العام التالي وصدر العدد الأول من مجلة الجمعية (International Journal of Contemporary Iraqi Studies) وتكمن اهمية المجلة في كونها تركز على الدراسات العراقية المعاصرة التي أصبحت مرجعاً مهماً للباحثين في الشؤون العراقية وكنت على رأس تحريرها بالاشتراك مع الدكتورة جاكلين وتصدر عن دار نشر (Intellect) في لندن والتي ما تزال تصدر بانتظام منذ ذلك الحين.

بادرنا بتقليد جديد يختلف بأسلوبه وتطبيقاته العملية وهو ان تكون رئاسة تحرير المجلة لمدة خمس سنوات على ان تنتقل الى هيئة جديدة حتى لا تصبح كحال الدوريات العربية تحت سيطرة اشخاص واتجاهات معينة فتغدو جهداً منفردا ووجهة نظر شخصية. انتقلت رئاسة التحرير الى الأستاذ الدكتور وليام حداد المعروف بالتزامه الاكاديمي والوطني الذي ترأسها لمدة اكثر من سبعة أعوام وكان قد ترك لتوه منصب نائب رئيس جامعة ولاية كاليفورنيا ليعود الى رئاسة قسم التاريخ فيها، ولكن بعد الالحاح وافق على تبني المجلة وقبول رئاسة تحريرها. كما استمرت الجمعية بعقد مؤتمراتها التالية في عمان وبرشلونة ثم في انقرة واخرها كان في تشرين الثاني من عام 2015 بالقاهرة والتي فيها كانت الخميرة الاولى لهذه الخلجات كما أسلفت.

كما عقدت الجمعية ندوة خاصة تكريما للذكرى المئوية لولادة العالم الاجتماعي العراقي المعروف وأبو علم الاجتماع في العراق علي الوردي في الجامعة الامريكية في بيروت في 14 شباط 2014. كان عرسا اكاديمياً يليق بالرجل وآثاره العلمية. لعل السبب الرئيس لاختيار جامعته الاولى لتكريمه بأنه ذكر لي في أخرلقاء معه عن دورها في اعداده وتلقيه البراعم الاولى في اصول علم الاجتماع الاكاديمي والتي كانت الاساس لمسيرته العلمية. رعت الادارة الجامعية المؤتمر وكان رئيس قسم الاجتماع الاستاذ الدكتور ساري حنفي لولبا فعالا في انجاحها. لقد شارك فيها اكثر من مائة باحث من جامعات العالم بقاراته الخمس. القيت فيها أكثر من خمسين بحثا علميا. كما أصدرت الجمعية عددا خاصا في عام 2015 في مجلتها العلمية عن علي الوردي وباللغات الالمانية والفرنسية والانكليزية فضلا عن العربية. لقد احتضنت الجامعة هذه التظاهرة العلمية اعترافا منها بعلميته وفخرا بانجازاته كأحد خريجيها. وأتساءل اليوم: أما آن الآوان لبلده أن يفي لهذا العالم حقه؟

الباب السادس

رحلتي في رحاب المقام العراقي

منذ نعومة اظفاري كنت قريباً من والدي ربما لكوني الطفل البكر في العائلة. كنت اجلس في احضانه وهو يستمع الى المقام العراقي من الراديو الكبير في بيتنا. كان - رحمه الله - يدندن مع القراء. كما كان يصحبني - احيانا - الى حفلات العرس والختان والفواتح والاحزان، في تلك المناسبات كلها كنا نسمع أنغام المقام تصدح وبذلك أصبح تذوقي له عنواناً ورمزاً لعراقيتي. كان المرحوم والدي يحاول الإجابة على استفساراتي عن المقام وماهيته وكانت تستهويه تساؤلاتي فيطنب في شرحها ويبدأ في الكثير من الحالات يغني بعض موازينها وكان له صوتا رخيما وشجيا وينشدها حينما يكون في مزاج رائق وفقط مع عائلته وعدد محدود لايتعدى عدد اصابع اليد من خاصته. وكان يجري تصنيف جودة كل المغنين حسب التزامهم بقواعد المقام، لهذا تبوء محمد عبد الوهاب وام كلثوم رأس قائمته. علمني انغام المقامات كلها اداءها وانغامها وأنا لم أنه بعد الدراسة الابتدائية. ما ان بدأت الدراسة المتوسطة حتى كنت قد تبحرت في أنغامها الأساسية وفروعها. وكنت اتذمر حينما يشط القراء عن قواعدها او سلالمها واشتقاقاتها. واستمرت تلك العلاقة مع المقام حتى يومنا هذا، الجأ اليه مع نفسي في شقائها وسعادتها. في منتصف الخمسينيات هبت عاصفة التجديد في الفن العراقي عموما شاملة المقام فانهالت معاول النقد التي تعدت حدودها الى الهدم. كنت اول من انبرى للوقوف بوجه هذا التحدي وبدأت بتوثيق اتصالاتي المباشرة بأهل المقام وعلى رأسهم محمد القبانجي ومدرسته في الأداء وقرائها جميعاً. كانت مدرسة القبانجي المقامية تتألف من يوسف عمر وناظم الغزالي وعبد الرحمن خضر وكلهم تلاميذه وأصدقاؤه يتصرف معهم كصديق. من هنا بدأت العلاقة إذ قدمني المطرب الرقيق والطيب ناظم الغزالي الى الأستاذ محمد القبانجي - هكذا كانوا يدعونه- (الصورة رقم-30).

بدأت علاقتي بناظم الغزالي في مقاهي بغداد الادبية في منتصف الخمسينيات إذ كان يلتقي مع الشعراء والكتاب، وكان في بدايات لمعان أدائه الغنائي وبداية شهرته وابداعاته حيث زاوج بين المقام التقليدي والحداثة الموسيقية، مما أدى الى نشوب معارك ضارية في معسكر المقام اذ اتهمه البعض بأنه عبث بهذا الفن العراقي الاصيل وشوهه "وضيع المشيتين" كما يقول البغداديون "فهو ليس بقاريء مقام ولا هو بمغني". بينما عد فريق آخر ما قام به الغزالي تطويرا للمقام لمواكبة القرن العشرين وبذلك أنقذ هذا



الصورة رقم (30): من اليمين، ناظم الغزالي، يوسف عمر، مصطفى النجار (رئيس أتحاد المؤرخين العرب تسعينات القرن الماضي لغاية الاحتلال 2003) والمؤلف في ضيافة محمد القنبانجي

الفن العريق من الاندثار. ولما كانت شخصية الغزالي في غاية الرقة وكان صوته روعة في الاداء فان مدرسة القبانجي وتلامذته الاوفياء لم تتأثر أبداً بهذه المعارك الجانبية على الرغم من الاختلاف الواضح بين اعضائها والسبب في رأيي هو الخلق العالي الذي يمثله القبانجي في التعامل مع تلاميذه والزامهم باحترام كل منهم لفن الآخر. ولهذا لم تدخل تلك الترهات حلقة القبانجي ولم تؤثر في علاقة بعضهم ببعض. كانت شخصية الرجل مسالمة فقد كان القبانجي حساساً وكبير القلب فضلاً عن كونه شاعراً وأديباً. وكان متواضعاً في تفاعله مع الجميع. وكان "خانه" في شارع النهر اقرب الى صالون أدبي منه الى محل تجاري!! (الصورة رقم -31). يرتاده ليس فقط عشاق المقام واهل الفن وانما حتى الادباء بشتى ميولهم واصنافهم السياسية والاجتماعية في المناسبات المختلفة. وعلى الصعيد الشخصي كان كريماً وسيما لا يراوغ ولا يجرح شعور احد حتى وأن اختلف معه. وكان تاجراً ناجحاً، يساعد الكثيرين مادياً ومعنوياً ولا سيما المقربين

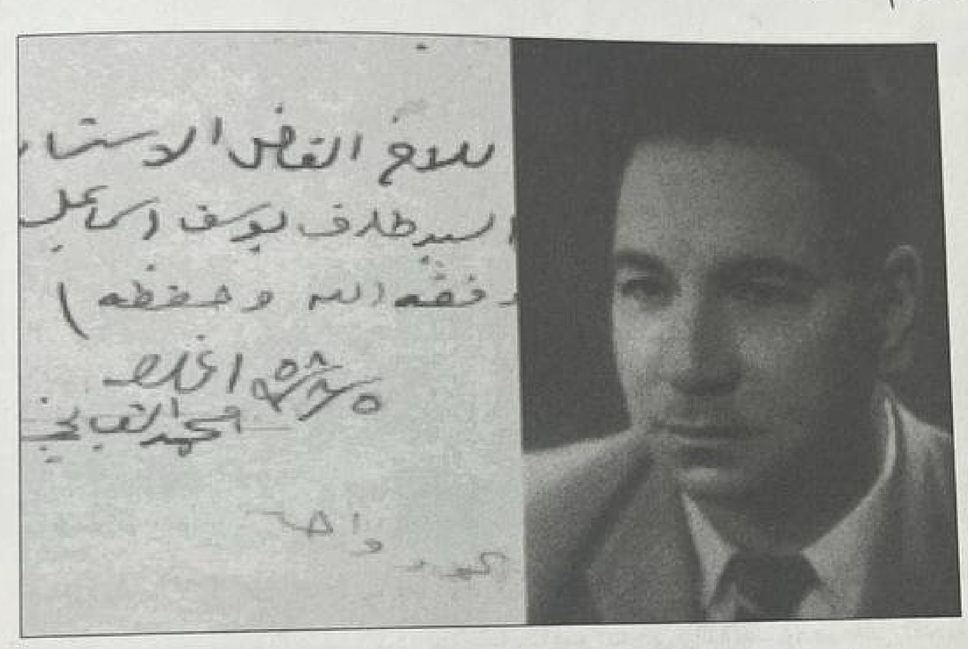


الصورة رقم (31): من اليمين قارئ المقام عبد الرحمن خضر، يوسف عمر، محمد القبانجي يشرح مقام الصبا الذي يعشقه، ناظم الغزالي والمؤلف ومصطفى النجار

منه. ويكره اللغة غير المهذبة في الحديث ولا يود الخوض في قدح احد او يسمح لاحد ان ينزلق باغتياب احد او ذم انسان. ولهذا فأنك لا تجد أحداً يذم هذا الرجل لأنه ذو خلق رفيع وأنيقاً في ملبسه وكلامه. بدأ ارتيادي مدرسة القبانجي في مقهى البلدية بداية عام 1957 وكنت التقي بناظم الغزالي ويوسف عمر وعبد الرحمن خضر هناك. كنت اعامل من المجموعة كمتذوق جدي للمقام على الرغم من اني كنت اعترف كثيراً بأني ليس أكثر من مستمع له أو اذن تعشق حسن أدائه وتتفاعل مع جودة قراءته. كان مقهى الزهاوي في شارع الرشيد مقر المجموعة أيضاً. أما يوم الجمعة فأن "خان "الاستاذ القبانجي هو مقرهم الرئيس. لم اكن معهم ألا حينما أريد أن أكتب عنهم شيئاً أو هناك مناسبة اجتماعية أو كان لاجتماعنا غرض ما حيث كان ناظم الغزالي هو الذي يرتب تلك اللقاءات.

حينما غادرت العراق عام 1959 اخذت معي عدداً من الصور التي اعتز بها وعلى رأس ما اخذته بعض من صوري مع الاحباء من مدرسة القبانجي. لم أكن اتصور أو حتى افكر بان تلك الصور هي التي ستبقى معي طوال رحلتي الى استمرت ستة

عقود. كنت اعدها رحلة مؤقتة وليست ابدية كما انتهت. ومن أكثر الصور التي اعتز بها هي الصورة التي اهداني أياها القبانجي وكتب بخط يده أهداءً رقيقاً في ظهرها (الصورة رقم -32).



الصورة رقم (32): قارئ المقام العراقي الكبير محمد القنبانجي

كان ذلك يوم زارني في مكتبي يوم 5 أب 1958 ولم انس كيف انه أكد على ضرورة أكمال دراستي كما كنت انوي قبل الثورة. لعل ما حفزني على كتابة هذا الجزء من المذكرات هو مقابلة تلفزيونية مع الفنان الكبير سعدون جابر في يوم 6 تموز 2017 عرضتها قناة الجزيرة التي وصف فيها علاقة القبانجي بالعاملين معه وعلاقاته مع مستمعيه وهواة فنه وزملائه. وكيف عامل حتى الكورس الذي كان سعدون جابر من ضمنه في بداية مشواره الفني باحترام بالغ وأختتم المقابلة بالإطراء على هذا العملاق ليس فقط من الناحية الفنية بل من الناحية الشخصية وأعلن الدكتورسعدون أنه تعلم منه ليس طريقته في الغناء فقط وإنما أسلوبه في الحياة وتعامله مع الناس ومتى يغني ومتى يسكت وكيف يتعامل مع جمهوره الذي يحضر حفلاته واختتم حديثه قائلاً: لقد أثر بي سلوكه أكثر مما أثر بي الغناء الذي قدمه.

أستمرت علاقتي بناظم الغزالي وكان - كما سيرد لاحقاً - أحد المودعين وانا اغادر العراق لآخر مرة. كانت تلك اللحظات الأخيرة التي ودعته فيها وكان في اوائل

الأربعينيات من عمره وفي غاية النشاط وكامل العافية واتم الصحة. عاودت الاتصال بناظم بعد عودتي الى بغداد والتحاقي بوزارة الخارجية في صيف 1961 واهديته خاتم الماجستير من جامعة انديانا الذي لبسه بنوع من الفخر والسعادة. وأسعده جداً أني اشتريت خاتماً اخر لأهديه لوالدي. كم اعتز ناظم بتلك الهدية الرمزية وظل يكرر للكثيرين مدى تقديره لها.

لابد من أن أعترف بأني دخلت حلقة القبانجي ومدرسته وغدوت قريباً من اعضائها. كنت أيضاً اعشق المقامات القديمة بأنواعها وازمانها كلها. وقرأت واقتنيت في مكتبتي الخاصة الكتب التي صدرت عن المقام العراقي كلها، أن كانت عن تاريخه أو عن موازينه او الحانه. فهذه الكتب شدتني الى تراث احبه واعتز به ولا يعني هذا اني لم أكن اتذوق الغناء العراقي لاسيما الريفي منه. كان صوت حضيري أبو عزيز أحبها اليَّ وربما لأن هذا العبقري كان جزءاً من حياتي ايام الطفولة فقد كان حضيري عريفاً في الشرطة يعمل تحت أمرة والدي يوم كان في بداية رحلته الوظيفية قبل ان يبدا مشواره الفني. فقد دفع الوالد أبو عزيز الى ان يتقدم للإذاعة وقد سهل ومهد له ذلك حتى أستطاع ان يبدأ مشواره الفني واحتلاله المقام الاول في الغناء الريفي. كان حضيري نبيلاً وطيباً ويصر على ابداء اخلاصه للوالد في كل مقام ومناسبة. كان وفياً وذا كرامة طيلة حياته. يوم افتتح مقهى سمي باسمه وعلى ما أتذكر كان يقع بالقرب من منطقة "علاوي الحلة" القريبة من مكان يدعى سينما (الاضرملي) ببغداد. كان يترقب الوالد حينما يمر من تلك المنطقة فيهرع للسلام عليه ويصر وبالحاح "لشرب استكان شاي" عنده ويقوم هو شخصياً بخدمة الوالد ويكرر لهواة فنه كيف ان "ابو طارق" كانت له اليد الطولى في ظهوره الفني وكان يدعوه دوماً "عمي أبو طارق" احتراما واعتزازاً ووفاءً في عالم بدأت تضيع فيه تلك الطقوس ولاسيما في عالم الستينيات. كنت أعد حضيري جزءً من عائلتنا وحينما بدأت علاقتي بدار الإذاعة ازدادت الروابط وثوقاً. فبعد خروجي من الاذاعة والتحاقي بمقر وزارة الارشاد وتأسيس مديرية الصحافة فيها وخروج سليم الفخري الذي استمر في رعايته استمرت علاقتي بابي عزيز. كانت تلك ايام أهملها التاريخ ولكن لها دلالاتها وتعكس صورة لعصر نساه الكثيرون واراني ملزماً بالتذكير به الان في هذه السطور بعد هذه الاعوام كلها...

خاتمة

أن صورة عراق اليوم لا تمت بصلة الى العراق الحقيقي الذي عشت فيه، ولا الى أهله الذين عرفتهم وعشت بينهم. وأجزم أنه خالد الى أبد الابدين ولن تستطيع كل جيوش العالم وليس الجيش الأمريكي وحده ولا من جاء معه أن تطمس من معالمه قيد أنملة. ولا أن تغرر بأبنائه لأنهم بناة الحضارة البشرية الأولى والذين أكرموا الأمم بالكتابة والقانون وعلوم الفلك والهندسة وغيرها من أدوات التقدم.

انني في حلي وترحالي افخر بكرم العراقيين وشهامتهم وسخائهم والتزاماتهم الخلقية وسمو قيمهم الإنسانية. وافخر بديني على الرغم من ثقافتي العلمانية وتوجهي الإنساني، لأنه جزءً من تراثي وثقافتي. وما أعرفه عن الإسلام هو أنه دين التسامح والمحبة والاخاء، وانه بريء من جرائم الإرهاب والبطش التي تقترفها الفئة الضالة، والتي هي الفاشية بعينها. وأنا اردد وباستمرار ومنذ خمسين عاما قصيدة قالها شمس الدين الكوفي الواعظ في رثاء بغداد بعد سقوطها على يد المغول عام 623 هـ / 1226م

عندي لأجل فراقكم آلام	فإلام أعذل فيكم وألام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً	لا تعذلوه فالكلام كِلام
ويذيب روحي نوح كل حمامة	فكأنما نوح الحمام حمام
إن كنت مثلي للأحبة فاقداً	أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها	يا دار ما صنعت بك الأيام
يا دار أين الساكنون وأين ذياك	البهاء وذلك الإعظام

والتي مازال المنشدين يرددونها في مناسبات مختلفة وغالبا ما تكون على نغمة مقام الصبا الحزين فتجد تجاوبا من اعماقي مقرونة بآهات وآلام وفي الكثير من الاحيان دموعا صامته. يتساءل الاولاد والاحفاد لماذا تسمع هذه الانشودة والتي غالبا ما تؤلمك وتحزنك "أليس هذا هو جلد الذات" كما يقول علماء النفس ؟ فإجيب: لن

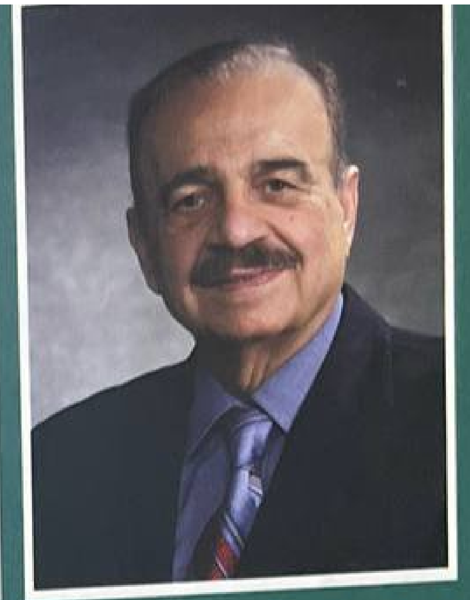
تفهموا لأنكم لستم بعراقيين وأن أبن الرافدين فقط يتفاعل مع هذه الكلمات وهذا اللحن.

خروجي من الاذاعة والتحاقي بمقر وزارة الارشاد وتأسيس مديرية الصحافة فيها وخروج سليم الفخري الذي استمر في رعايته استمرت علاقتي بابي عزيز. كانت تلك ايام أهملها التاريخ ولكن لها دلالاتها وتعكس صورة لعصر نساه الكثيرون واراني ملزماً بالتذكير به الان في هذه السطور بعد هذه الاعوام كلها ...

From the Threshold of Memory: on the Periphery of the July 14, 1958 Revolution.

By Professor Dr. Tareq Y. Ismael
University of Calgary, Canada

Introduction by
Professor Dr. Hussain Shaban
Academic University College for Nonviolence & Human Rights, Lebanon



المؤلف في سطور

الدكتور طارق يوسف اسماعيل استاذ العلوم السياسية في جامعة كالكري بكندا منذ عام ١٩٦٩ وترأس مركز الدراسات الشرق الاوسط المعاصرة في جامعة *(Eastern Mediterranean University)* في قبرص لاكثر من عشرين عاما. شغل منصب عميد الدراسات العليا ونائب المدير لشؤون البحث العلمي في جامعة الامارات العربية المتحدة. كان استاذا زائرا في جامعة بغداد والجامعة الامريكية في بيروت والجامعة الامريكية في القاهرة. أصدر أكثر من ثلاثين مؤلفا عن العلاقات الدولية والسياسة في الشرق الاوسط باللغة الانكليزية طبعت في دور نشر عالمية في امريكا وانكلترا. ترجم العديد من كتبه الى لغات مختلفة كالعربية والتركية والسويدية. يترأس تحرير مجلة أكادمية منذ اكثر من خمسة عشر عاما تعنى بقضايا العراق بعد الاحتلال الامريكي وتطبع في لندن بعنوان : *{Journal of Contemporary Iraq and The Arab Word (formerly of Contemporary Iraq Studies)} Published by Intellect, U.K*

من مؤلفاته:

- *Government and Politics of the Contemporary Middle East: Continuity and Change (Routledge, 2015) (now in its fifth edition or iteration over three publishers).*
- *Iraq in the Twenty-First Century: Regime Change and the Making of a Failed State (Routledge, 2015) with Jacqueline S. Ismael.*
- *The International Relations of the Contemporary Middle East: Subordination and Beyond (Routledge, 2013) with Glenn E. Perry.*
- *Cultural Cleansing in Iraq: Why Museums Were Looted, Libraries Burned and Academics Murdered (Pluto Press, 2010) with Raymond W. Baker and Shereen T. Ismael.*
- *The Rise and Fall of the Communist Party of Iraq: Evolution and Transformation (Cambridge University Press, 2012, 2007).*
- *The Communist Movement in the Arab World (Routledge, 2009).*
- *The Iraqi Predicament: People in the Quagmire of Power Politics (Pluto Press, 2004), with Jacqueline S. Ismael.*



العراق- بغداد - مدخل شارع السعدون- عمارة فاطمة
+964(0)7700252269
+964 (0) 771 3000 191
alnhtha_co@yahoo.com

